تراجم

مصرية وغربية

كليوباطرة ــ اسماعيل باشا ــ توفيق باشا ــ محمد قدرى باشا
بطرس غالى باشا ــ مصطفى كامل باشا ــ قاسم امين بك
اسماعيل صبرى باشا ــ محمود سليمان باشا ــ عبد الخالق
ثروت باشا ــ بتهوفن ــ تين شكسبير ــ شلى

بقلم

محمد حسين هيكل

[جميع الحقوق محفوظة]

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

إهـــــــداء ٢٠٠٦

رصيد علم

تراجم

مصرية وغربية

كليوباطرة ـ اسماعيل باشا ـ توفيق باشا ـ محمد قدرى باشا
بطرس غالى باشا ـ مصطفى كامل باشا ـ قاسم أمين بك
اسماعيل صبرى باشا ـ محمود سليمان باشا ـ عبد الخالق
ثروت باشا ـ بتهوفن ـ تين ـ شكسبير ـ شلى

بقلم

محمد حسين هيكل

[جميع الحقوق محفوظة]

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

للمؤلف

الصديق أبو بكر	الطبعة الأولى	١٩٤٢
فى منزل الوحى	«	١٩٣٧
حيـاة محمد	«	١٩٣٥
ثورة الأدب	«	١٩٣٣
ولـدى	«	١٩٣١
تراجم	«	١٩٢٩
عشرة أيام فى السودان	«	١٩٢٧
فى أوقات الفراغ	«	١٩٢٥
چان چاك روسو	«	١٩٢٣ ١٩٢١
زينب	«	١٩١٤
دين مصر العام — بالفرنسية	«	١٩١٢
دراسات اسلامية	تحت الطبع	

اهداء الكتاب

إلى صديقى

الدكتور حافظ عفيفى باشا

تقديراً لما كان لصداقته من فضل فى إقدامى على كتابة كثير من فصول هذا الكتاب .

هيكل

مقدمة

يحتوى هذا المجلد كتابين من التراجم ؛ فأما أولهما فيتناول تراجم مصرية لرجال هذا العصر الأخير منذ ولاية الخديو اسماعيل باشا الحكم الى وقتنا الحاضر ، خلا ترجمة لكليوباترة كتبت قبل أن تكتب هذه التراجم جميعا . أما سائر التراجم المصرية فنشرت فى السياسة الأسبوعية حين كانت تنشر فيها فصـول رجال التاريخ الحديث فى مصر ، اللهم الا ترجمة محمود سليمان باشا فقد كتبت لمناسبة وفاته ، وترجمة عبد الخالق ثروت باشا فقد كتبت ولم تنشر فى غير هـذا الكتاب . وربما كانت الترجمة لرجل كثروت باشا عاش بين أظهرنا وكان له دور فى حياة مصر أثناء وجودنا ، مما يتعذر أداؤه بما تقضى به الدقة التاريخية وما توجبه من تمحيص ونقد . وكنت أنا شاعراً كل الشعور بهذه الدقة أثناء كتابتى هذه الترجمة . لكنى انما تخطيت هذه الاعتبارات لأنى أردت أن أضع أمام القارىء صـورة ، ولو تقريبية ، لحياة مصر السياسية فى هذا العصر الأخير . وما دمت قد بدأت هذه الصورة منذ عصر اسماعيل باشا الخديو ، فقد رأيت واجبا اتمامها الى آخر عصرنا الحاضر . ثم مادمت بدأتها بترجمة بعض من كان لهم فى حياة مصر السياسية أثر ظاهر فمن حق ثروت باشا أن يكون ختام هذه السلسلة من عظماء الرجال الذين تناولت . على أنى رأيت أن أقف فى ترجمته عند الوقائع الثابتة وأن أتجنب

المغامرة فى الفروض والظنون ، حتى لا يتعرض ما أكتب عنه لنقد يفسده وان أمكن أن يظهر فيه نقص كثير .

فأما الكتاب الثانى فيتناول ترجمة بتهوفن ، وتين ، وشكسبير ، وشلى ، من كبار رجال الغرب . وهؤلاء انما ترجمت لهم لمناسبات خاصة ، ولأنى أحببتهم منذ زمان طويل حبا جما . فلما كانت مناسبات كرور مائة عام على موت بتهوفن أو على مولد تين أو نحوهما من المناسبات، رأيت واجبا على لهذا الحب الذى أضمر لأولئك الرجال، حبا يعادل ما أفدت من آثارهم وما حققت لى من معانى السرور بها والطرب لها ، أن أثبت صورة هذا الحب باثبات صورة من حياتهم هى الصورة الممتلئة بها نفسى منهم .

ولم يكن الاسم الذى وضعته للكتاب هو الذى دار من أول الأمر بخاطرى . فان كلمة « تراجم » تقتضى تناول جوانب حياة المترجم له بتدقيق وتوسع أكثر مما عالجت أنا فى هذه الرسائل . فأنا لم أتناول ، أغلب الأمر ، الا ما اعتقدته الناحية الغالبة فى حياة الشخص والتى كان لها فيه الأثر البالغ . وأنا قد تناولت هذه الناحية فى ايجاز جعلنى أختار فى نفسى اسما للكتاب تؤديه الكلمتان الانكليزيتان (Biographical Sketches) على انى بعد البحث مع أصحابى لم أهتد لعبارة عربية سائغة لأن تكون عنوانا للكتاب تؤدى هاتين الكلمتين أداء دقيقا . وفكرت وقتا فى أن أجعل عنوانه (من صحف التاريخ) . وأشار على صديق بأن أجعل العنوان (ملامح) . ثم انتهيت الى هذا العنوان الذى ظهر الكتاب به . فاذا كان فيه شىء من الادعاء فليس الذنب فى ذلك ذنبى وانما هو

العجز عن أن أجد المقابل الصالح للصورة المضبوطة التى تعبر تعبيرا صادقا عما فى الكتاب .

وكم وددت لو أنى استطعت أن أجعل الكتاب كله تراجم مصرية صرفة ، بل لو استطعت أن أظهره فى عدة أجزاء تصل التراجم فيما بين عصور مصر المختلفة منذ عهد الفراعنة الى وقتنا الحاضر ، فما أشك فى أن كتابا كهذا يكشف من تاريخ مصر عن صلة عصورها بعضها ببعض وعن جهود المصريين المتصلة منذ أول التاريخ الى عصرنا الحاضر فى سبيل الحق والحرية والعرفان . على أنى أعترف بأن عملا كهذا مما لايطيقه شخص وحده ، ومما لا أطيق أنا بنوع خاص . فاننى لم أتخصص فى التاريخ ولم تمل بى حياتى العملية نحوه الا بقدار . ثم ان تاريخ مصر فى مختلف عصورها ما يزال مبعثرا فى أطواء الكتب القديمة ، لم يعن أحد ، ولم تعن الجامعة المصرية نفسها ، بالكشف عنه كشفا علميا صحيحا وبتدوينه على طريقة تجعله عذبا سائغ المورد لمن يشاء أن يصل الى الحقائق فيه من غير أن تصده الطريقة السيئة أو اللغة المضطربة أو القصد السيء . واذا كنت قد وقفت على تاريخ مصر بشيء من الدقة فى العصور الأخيرة فذلك حين كتابة رسالتى للدكتوراه فى القانون عن « دين مصر العام » . فقد اضطرنى ذلك الى الانقطاع لدارسة التاريخ الحديث منذ عهد والى مصر سعيد باشا والاكباب على هذه الدراسة شهورا متوالية وتدوين الملاحظات والوقوف عند الأشخاص الذين كان لهم فى حياة مصر السياسية أثناء هذا العصر الأخير دور خاص . ومايزال كثير مما وقفت عليه أثناء مطالعاتى ثم لم تقتض حاجة

رسالتى تدوينه بها عالقا بذهنى ممثلا أمام خيالى صورة مصر منذ أيام محمد على وصور الكثيرين ممن لعبوا دورا خاصا فى حياتها . فأما قاسم أمين فقد عنيت بقراءة كتبه وكل ماكتب عنه مذ كنت فى دراسة الحقوق بمصر ، فتكونت فى نفسى منه فكرة أحسبها دقيقة غاية الدقة . وأتاح لى اشتغالى بشؤون مصر السياسية فى السنوات الأخيرة أن أضبط صور من ترجمت لهم من هؤلاء جهد ما واتتنى به الطاقة .

وان كتابا كالذى أشرت اليه حاويا تراجم أكابر رجال مصر فى عصورها المختلفة منذ الفراعنة الى اليوم ، يكون لاريب جليل الأثر فى تكوين صورة تاريخية لهذا الوادى الجميل الذى نعيش فيه ، صورة تظهر اتصال الحياة على ضفاف نهره المبارك منذ أقدم الأزمان الى وقتنا الحاضر . ثم ان مثل هذا الكتاب ليدل دلالة كبرى على بطلان الصورة الزائفة التى يضعها مؤرخو الغرب لتاريخ مصر . فالواقع أن تاريخ بلادنا لم يضعه حتى اليوم مؤرخ منصف على طريقة علمية صحيحة ، اللهم الا ماتعلق ببعض جوانب العصر الفرعونى من عصوره . فأما مابعد ذلك من عصور فقد شوهه الساسة الأجانب لمآربهم الخاصة منذ القدم : شوهه العرب الذين خلفوا الرومان فى مصر ، كما شوهه نابليون حين قدومه بالحملة الفرنسية فى آخر القرن الثامن عشر ، ثم كان لكتاب الانكليز بعد ذلك النصيب الأوفى من تشويهه تشويها قائما على ذلك الأساس الاستعمارى من أن شعب مصر قد ظل محكوما منذ انتهى عهد الفراعنة بأمم أجنبية عن مصر . فالفرس ، ثم اليونان ، ثم الرومان ،

ثم العرب ، ثم الترك ، ثم الانكليز . وشعب هـذا شأنه ، فيما يدعون ، لا يعرف لنفسه عليه كرامة يضحى فى سبيلها ولا يقدر للعزة القومية معنى يثور من أجل تحقيقه . وما يزال هذا التاريخ هو ، مع الكثير من الأسف ، التاريخ الرسمى الذى درس لنا ويدرس اليوم لأبنائنا . هذا ، على أن التاريخ الصحيح والتراجم الحقة تنادى بكذب هـذه الصورة من حياة مصر على تعاقب الأزمان وببطلانها .

ولست واثقا من أن تمكننى الفرص من الرجوع الى تواريخ هذه العصور القديمة والى تراجم الرجال الذين عاشوا فيها لأثبت حينئذ فى شىء من التفصيل أن تاريخ مصر جدير بأن يفخر المصريون به أكثر مما يفخر غيرهم من أبناء أية أمة أخرى بتاريخها . لذلك أسارع فأنتهز فرصة نشر هذا الكتاب المشتمل على تراجم بعض رجال مصر فى العصر الأخير وعلى ترجمة كليوباطرة خاتمة عهد البطالسة فى مصر ، لأبين زيف تلك الصورة التى يصورها الساسة الاستعماريون ، ولأظهر القارىء فى كلمات موجزة كيف دل ما تداول على مصر من ألوان الحكم على أن شعبها أعرق الشعوب حرصا على قوميته وأكثرها تضحية فى سبيل الحق والحرية والعرفان .

على أنى قبل أن أعالج هذا البيان أود أن أثبت للحقيقة أن بعض الذين أرخوا مصر من أهل الأمم المختلفة كانوا حسنى النية ، ولكنهم خدعوا بتمويه الساسة . وما أشك فى أنهم متى اطلعوا على هذه المقدمة الوجيزة سيعودون الى الحق يقرونه ، وسيعترفون لمصر بمكانتها التاريخية السامية .

ولعل ماخدع به هؤلاء المؤرخون الحسنو النية هو ماتواضع عليه الكتاب من تبويب تاريخ مصر عصورا أطلقت عليها أسماء أمم غير مصرية . فمن بعد العصر الفرعونى يذكرون عصر الفرس ، ثم العصر اليونانى ، ثم العصر الرومانى ، ثم العصر الاسلامى أو عصر العرب ، ثم عصر الترك ، ثم العصر الأخير عصر الاحتلال الانكليزى . وتبويب التاريخ على هذه الصورة من شأنه أن يدعو الى الخطأ وسـوء التقدير من جانب من لا يكلفون أنفسهم مؤونة البحث فى التفاصيل بشىء من الدقة . والواقع أن هذا التبويب خاطىء فى أكثر مناحيه . واذا كان صحيحا أن الحكام الذين تولوا أمر مصر فى عصور مختلفة لم يكونوا من أصل مصرى صميم فلن يغير ذلك من خطأ المؤرخين وادعائهم خضوع مصر لأمم أجنبية عنها ، الا اذا اعتبرنا قيام ملك كملك الانكليز على رأس أكبر امبراطورية فى الوقت الحاضر ، مع أنه من أصل غير انكليزى ، دليلا على أن انكلترا والامبراطورية البريطانية كلها خاضعة للأمة التى يرجع اليها دم مليكها . وهذا لغو من القول ، كما أن ادعاء خضوع مصر لأمم أجنبية عنها هى التى يرجع اليها أصل حكامها لغو مثله . وليس هذا المثل الذى ضربنا بالمثل الفرد ، فنابليون امبراطور فرنسا كان من كورسيكا ، أى كان أقرب للايطالية منه للفرنسية . وأكثر الملوك الباقين على عرش أوربا اليوم من دماء غير دماء الشعوب التى ملكتهم عليها وليست هذه الشعوب لذلك أقل حرية واستقلالا وعظمة مما كانت مصر فى أكثر العصور التى تعاقبت عليها .

ولنعد الآن الى تاريخ مصر نفسه . فالكل يعترف لمصر الفراعنة

بأنها كانت أمة عزيزة الجانب مضيئة الحضارة على نحو لا يمكن أن تتسرب اليه الشبهة مع قيام الآثار القديمــة شاهدة به محدثة عنه بأقوى عبارة وأفصح لهجة . مع هذا فقد منيت مصر الفراعنة بغزو الرعاة الهكسوس اياها مدة استمرت نحو تسعين سنة حتى استرد المصريون تاج بلادهم سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد . وظلت مصر من بعد ذلك متحكمة فى البلاد المجاورة لها ممتدة السلطان على حوض البحر الأبيض المتوسط ، وفيه روما واليونان ، الى أوائل القرن السابع قبل الميلاد . هنالك كانت الحضارة الانسانية على ضفتى النيل قد بلغت من الرقى والترف ماتشهد به الآثار التى تشهد أعيننا شيئا منه . وهنالك بدأت أشور ، ومن بعدها فارس ، تفكر فى غزو مصر . ومع غلبهم اياها ودخولهم عاصمة ملكها غير مرة فانهم لم يستطيعوا الاستقرار بها وتولى الحكم فيها الا فترات قصيرة انتهت فى سنة ٣٣٢ قبل الميلاد .

قبيل هذا التاريخ نشأ فى شمال اليونان فليب المقدونى وخلفه من بعده الاسكندر الأكبر . وكانت الطبيعة قد وهبتهما ، ووهبت الابن بنوع خاص ، من المقدرة فى القيادة الحربية ما يدخل فى باب المعجزات . وحيث يظهر فى الناس نصف اله فى الحرب أو فى الدين أو فى السياسة ترى العالم كله يتطلع معجبا مسحورا . وقد دوخ الاسكندر روما وأشور والفرس ووصل الى الهند ، ولم تكن أمة من الأمم تستطيع مقاومته . أما أمم أوربا الغربية والشمالية فكانت فى تلك الأيام فى حال من الهمجية أشبه بحال أواسط افريقية اليوم مما يجعلها نكرة على التاريخ ولا يجعل لأية مقارنة بينها وبين غيرها

محل . وجاء الاسكندر الى الشام ففتحت أمامه مصر أبوابها فى سنة ٣٣٢ التى أشرنا اليها ، لأنها رأت فيه مدوخ الفرس ، وكانت بينها وبين الفرس عداوة أشد العداوة . وبقيت مصر فى حكم الاسكندر ، وان شئت فى حكم اليونان تسع سنوات ، اذ مات الاسكندر فى سنة ٣٢٣ ق.م. ثم اختلف قواده من بعده فيما بينهم ، وكان بطليموس بن لاجوس من أقدرهم ومن أعرفهم بمصر وأشدهم حبا لها . واذا كانت مصر يومئذ بحاجة الى رجل ذى مواهب حربية ممتازة يستطيع أن يصد بقواها عدوان من يحاول الاعتداء عليها ، فقد اطمأنت الى بقاء بطليموس فيها مستقلا بها مستقلة هى به . وحدث ما أراد المصريون من ذلك . فان هذا البطل من قواد الاسكندر جعل الاسكندرية قاعدة له ومنها حارب الاشوريين والفرس وحارب اليونان أنفسهم ووطد لمصر سلطانا أعاد لها ولحضارتها عز الفراعنة الذى اضطرب وتزعزع خلال القرون الثلاثة التى سبقت ولايته عرش ايزيس وأوزوريس . ومع أن بطليموس الأول هذا كان أشد حرصا على طقوس الديانة اليونانية التى نشأ فيها فان ابنه بطليموس الثانى كان مصريا فى دينه مصريا فى عاداته مصريا فى دمه . ولا عجب ، فمصر ، بعزلتها عن العالم لما يحيط بها من البحر فى شمالها والصحارى فى سائر جهاتها ، هى عالم وحده تخلق الناس فيها خلقا وتسكب فى عروقهم دماء تجرى فيها روح النيل وقوة سلطانه . ولذلك كان كل الذين أقاموا بمصر اما تمثلتهم مصر فأصبحوا مصريين ، أو لفظتهم فلم يطيقوا ولم يطق أخلافهم من بعدهم بها مقاما . وبلغ من حب بطليموس الثانى مصر وحب مصر اياه أن أصبحت الاسكندرية عاصمة العالم كله حضارة

وعلما واعانا ، وأن اجتمعت فيها فلسفة اليونان المادية بفلسفة مصر الروحية ، ثم نشأت منها فلسفة مصرية خاصـة هى فلسفة مدرسة الاسكندرية . وكانت مصر هى سـيدة البحار فى ذلك العصر ، فكانت سياستها موضع النظر والتأويل فى روما واليونان وآشور والفرس وسائر بلاد العالم المعروف حينئذ . وتعاقب البطالسة حتى كليوباطرة فى حكم مصر ثلاثة قرون متوالية . تعاقب البطالسة على عرش مصر بارادة شعب مصر مستقلين به مستقلا هو بهم قائمين باسمه ناشرين على ربوع العالم المعروف يومئذ لواءه . فهل يكون نعت هذا العصر من تاريخ مصر بالعصر اليونانى معناه خضوع الشعب المصرى لأمة أخرى ؟ أو يكون ذلك التصوير باطلا البطلان كله لأن شعوب العالم ، ومنها الشعب اليونانى ، هو الذى خضع لمصر فى كل تلك القرون الثلاثة وكان يرى فى الاسـكندرية عاصمة الدنيا كلها ؟ .

وفى أواخر عهد البطالسة بدأ نجم روما يعلو فى سماء السياسة العالمية ، وبدأت روما تطمع فى التغلب على مصر بعـد أن كانت تخطب ودها وتخشى غضبها . وكما وهبت الأقدار الاسـكندر المقدونى المقدرة الحربية التى استطاع بها أن يتغلب على كل شعوب العالم المعروف يومئذ ، كذلك وهبت هذه الأقدار مثل تلك المقدرة يوليوس قيصر صاحب عرش روما . فلقد ظفرت جيوش قيصر بالشعوب كلها ورفعت راية روما على اليونان والشام وامتـدت غزواتها الى ناحية آشور ثم سارت شمالا وغربا فأخضعت السكسون فى ألمانيا والفرنسيين فى بلاد (الجول) وأخضعت أهـل الجزيرة البريطانية لحكم قيصر . فاذا كانت هذه الأقدار قد عصفت بمصر

فلم تكن مصر لذلك متفردة بالخضوع دون غيرها من أمم العالم . وصحيح أن حكم روما لمصر عن طريق حاكم تبعث به اليها ظل متتابعا قرونا عدة . لكن الصحيح كذلك أن هذا الحاكم كان يجــد أكثر الامر أشد العنت فى حكم البلاد وكان يتعرض للثورات المتوالية تقوم عليه وتضطر روما معها للاحتماء بالاسكندرية أحيانا تاركة داخلية البلاد يحكمها أهلها وتتمكن أحيانا أخرى من قمع هذه الثورات والتغلب عليها واخضاع مصر لنير روما قهرا عنها .

والمؤرخون جميعا متفقون تمام الاتفاق على أن السكينة والامن لم يسودا مصر طول هذا الذى يسمونه العهد الرومانى . فان روما كانت ، كما كانت بيزانس من بعدها ، دائمة الوجل من ناحية مصر من خشية أن ينقطع عنها مدد الغلال التى كانت مصر تبعث بها غذاء لأهل عاصمة العالم فى ذلك الحين . ولم تكن أسباب الاضطراب يومئذ مقصورة على الناحية السياسية . بل خلق المصريون منها فى سائر النواحى ما ارتبكت روما معه وما اضطرت بسببه لارتكاب الفظائع التى مايزال تاريخها ملطخا بها . من هذه الأسباب السبب الدينى ؛ فقد كان الدين المصرى القديم بعد اختلاطه بالتعاليم اليونانية قد قصر عن أن يلهم الشعب مايلهم كل دين من طمأنينة النفس وسعة الأمل . وكانت المسيحية الوليدة فى روما قد بدأت تنتقل الى مصر رويدا رويدا . وكان الطبيعى أن يلقى الدين الجديد فى مصر قبولا حسنا . فقد كان اليهود فى مصر كثيرى العدد جدا ، وكانت الديانة اليهودية تتصل فى كثير بالديانة الفرعونية القديمة ؛ أن كان موسى مصريا تلقى الطقوس أيام شبابه على كهنة ايزيس . وكان الاضطهاد الرومانى مما جعل الناس أشد اقبالا على دين يدعو الى الاخاء والسلام

والتسامح ويعد الجنة المحروم والبائس والمظلوم . على أن خلافا فى الرأى الدينى ما لبث أن نشأ فى مصر بين المتشبعين من قبل بتعاليم الفلسفة اليونانية والآخذين بروحية الديانة المصرية القديمة . وكم أثار هذا الانقسام الدينى من خلاف ! وكم اتخذ سببا خفيا للثورة على روما ومحاربتها والتغلب فى بعض الأحيان على ولاتها وحكامها واستقلال أهل مصر بالحكم فى مختلف ولاياتها .

وكذلك نرى أن مصر قد تمثلت البطالسة وهضمتهم طبيعتها فأصبحوا مصريين كسائر المصريين وان كانوا من أصل يونانى . فأما الرومانيون الذين أرادوا الاحتفاظ برومانيتهم وحكم مصر على غير ارادة أهلها فقد ظلوا تناهضهم عناصر الحياة فى مصر حتى انجلوا عنها كارهين . وكذلك كانت دورات التاريخ فى مصر دائما . فمن خضع لحكم الطبيعة المصرية القوية فى تمثلها من ينزل ربوعها كان له أن يطمع فى نعيمها وأن يستريح الى خيرها ورخائها . ومن حاول محاربة هذه الطبيعة المصرية كانت عليه حربا عوانا . لكنها لا تلجأ فى حربها الى العواصف الاجتماعية التى تثور فجأة مرة بعد أخرى . كلا ! بل هى تلجأ فى الناحية السياسية والاجتماعية الى مثل ما تلجأ اليه الطبيعة المصرية من شمس وهواء ونهر وأرض ورمال . هـذه الطبيعة لا تعصف بشىء أجنبى عنها ولكنها تظـل حتى تبليه وتفنيه .

وانتهى حكم الرومان وعقبه العصر الاسلامى لتكتب مصر خلاله صحف مجد فى تاريخها بوصفها أمة مستقلة ناهضة بأعباء الحضارة فى العالم على نحو ما كانت مصر الفراعنة ، تاركة من آثار ذلك مثل ماتركوا مما لايزال شهيدا على العظمة والجلال وتقدم المدنية وارتقاء

آثارها من علم وفن الى أبعد حدود الارتقاء . فقد نهض العرب منذ أوائل القرن السابع الميلادى نهضة روحية بفضل الاسلام أعقبتها نهضة حربية قوية متأثرة بها لاتقل فى اندفاعها اكتساحا لغيرها من الأمم عن نهضة الاسكندر فى اليونان وقيصر فى روما. ولم تقف مصر فى وجه تيار هذه النهضة أن شامت فى الدين الجديد جدة روحية كانت تشعر بالحاجة اليها شعورا عميقا . فان المسيحية ، على أنها دين فضل وجمال ، قد خالطت طقوسها صور من الزهد والتقشف والانقطاع عما لايتفق مع طبيعة وادى النيل الدائم الصفو الدائم الابتسام. وهذا التنافر بين ابتسام الوادى وعبوس التقشف ، جعل دعاة المسيحية فى مصر يبالغون فى ميلهم الى جانب الانقطاع والزهد ويفضلون العيش فى صوامع خشنة فوق رمال الصحراء المحرقة وذلك لفرط خوفهم من زخرف الوادى وغضارة نعيمه . وبالرغم من قيام طائفة من المصريين المسيحيين تحاول التوفيق بين تعاليم دين عيسى وفيض النيل ببركاته فان دعاة الزهد والتقشف كانوا أصحاب الغلب . فلما أذن مؤذن المسلمين بأن التقرب الى الله لايصد عن المتاع بالدنيا ونعيمها ، دخل المصريون فى دين الله أفواجا وآوت مصر من العرب ، حملة هذا الدين وحماته ، كل من تستطيع أن تؤويه . ولم يكن ذلك عجبا فى أرض الأنبياء ولا هو كان عجبا فى عصر لم تكن الفكرة القومية فيه قد نمت النمو الذى نعرف اليوم . فالأماكن المقدسة فى مكة والمدينة كانت معتبرة فى نظر المسلمين جميعا عاصمة المملكة الاسلامية كما كان الخلفاء الراشدون ، ثم أمراء المؤمنين من بعد ، معتبرين كلمة الله على الأرض ، تجب لهم على كل مسلم الطاعة المطلقة . لكن غريزة القومية كانت قوية فى مصر بسبب عزلة مصر عما جاورها ،

يفصـــل بينها وبين كل جار من البحار أو الصحارى ما لا يسهل اجتيازه . لذلك لم تلبث خلافة الراشدين أن انتهت وأن قام يزيد ابن معاوية أميرا للمؤمنين خلفا لأبيه ، حتى بدأت نذر الانتقاض على السلطة المركزية تبدو فى مصر برغم أنها كانت حلقة وسطى فى سلسلة الفتوحات الاسلامية المستمرة المتوالية ذاهبة الى الغرب حتى تصل الى مراكش كى يغزو موسى بن نصير الأندلس منها متخطيا جبل طارق . ولم يكد حكم بغداد وسلطان الدولة العباسية يستقر ويطمئن حتى بدأت مصر تقوم مستقلة استقلالا ناجزا صحيحا : استقلت أول أمرها حين قامت الأسرة الطولونية بالحكم فيها . ونازع الاخشيديون الطولونيين وغلبوهم واستقلوا بعرش مصر . ثم جاء الفاطميون من ناحية المغرب فأجلوا الاخشيديين وأسسوا عصر دولتهم بفضل قائدهم جوهر الصقلى الذين أنشأ القاهرة . واعتلى الأيوبيون العرش من بعد الفاطميين . وفى هذه القرون المتوالية كانت مصر مستقلة بشؤونها بالغة فى أحيان كثيرة المكانة الأولى بين الأمم الاسلامية صاحبة الغلب على أمم العالم جميعا . ولن ينسى أحـــد من ذلك فضلها العظيم فى الناحية العلمية والأدبية . فقد كان الجامع الأزهر منذ أنشأه الفاطميون الجامعة الاسلامية الأولى سواء كان ذلك فى أول عهد الفاطميين حين كانت التعاليم الشيعية تلقى من فوق منابره ، أو كان فى العهد السنى الذى جعل له حتى عصرنا الحاضر المقام الأول بين الجامعات الدينية الاسلامية . ثم لن ينسى أحد كذلك ما كان لمصر من مجد وفخار فى الحروب الصليبية حين تألبت أوربا تريد أن تغلب المسلمين على أمرهم فى الأماكن المقدسة بفلسطين وتضع يدها عليها باسم الصليب . فقد كانت الجيوش

المصرية المظفرة هي التي صدت أكبر الغارات وأشدها هولا . واسم صلاح الدين الأيوبي باق على الزمان بقاء الزمان كلما ذكرت تلك الحروب . وهزيمة لويس التاسع في المنصورة وسجنه بها باق كذلك شهيد على مجيد فعال مصر في صد الغارة الصليبية . وكان هذا كله والدولة العباسية ببغداد ما تزال باقية وما يزال لها اسم دولة الخلافة مما أدى بطائفة من المؤرخين للوقوع في الخطأ واعتبارهم هذه القرون المتوالية على مصر ، وهي متمتعة باستقلالها مقيمة من صروح الحضارة والعلم ما فاق كل ما عرفت بغداد ، بعض ما تولى على مصر من ظلم وما ناء به أهلها من مهانة وذل .

وليس بي حاجة الى العود للقول بأن قيام أفراد من دم غير مصرى على عرش مصر لا يدل على أن مصر كانت تابعة لأمة أخرى . فالملوك في أكثر الأمم وفي مختلف عصور التاريخ لم يكونوا أكثر الأمر من أهل تلك الأمم اذا أنت تقصيت أصل مولدهم . لكنهم وقد عظموا بها كما عظم بمصر ملوك مصر فقد نسبوا اليها على حين يصر المؤرخون على نسبة ملوك مصر لبلاد غير مصر ، والغلو في ذلك الى حد القول بأن مصر وملوكها كانوا تابعين لدولة أخرى . وهم يقولون : ألم يتول أحمد بن طولون أمر مصر من قبل العباسيين وان استقل من بعد بها ؟ اذا فمصر ولاية عباسية . والحقيقة أن الخلافة الاسلامية في تلك العصور كانت قد انحلت عنها الصبغة الزمنية وبقيت لها السلطة الروحية وحدها . فكانت تبعية كثير من الدول الاسلامية لها شبيهة كل الشبه بتبعية الدول المسيحية لبابا روما . واستقلال الأمم وسيادتها لا شأن لهما بالسلطان الروحي ، وانما مرجع أمرهما الى السلطان الزمني .

فما دام عاصمة مملكة من الممالك كل أمر هذه المملكة الزمنى فليكن لها من الاتصال الروحى بمكة أو بدمشق أو ببغداد أو بروما ما تشاء ، فلن يغير ذلك قليلا ولا كثيرا من أنها أمة كاملة الاستقلال. والأمر الذى لا ريبة فيه أن الخلافة الاسلامية انحلت عنها السلطة الزمنية انحلالا فعليا من بعد خلافة المأمون ومنذ بدأ المعتصم يضطرب فى حكم الدولة العربية وحدها . هذا الى أن أولئك الذين حكموا مصر من طولونيين واخشيديين وفاطميين وأيوبيين كان شأنهم شأن طوائف تماثلهم فى أكثر بلاد أوربا حضارة ورقيا ، طوائف جاءت الى انكلترا وفرنسا وألمانيا وغير هذه من الدول من بلاد أخرى فى بعض الغزوات ، وكانت فى ركاب الغازى ثم اندمجت من بعد ذلك فى الشعب ، وظل لها مع ذلك من تاريخها ما يحفظ لها فى نظام الطوائف أقرب مكان من العرش ، فهى أبدا تتطلع الى مقامه وكثيرا ما تصل الى ارتقائه .

واستمر حكم الدول الطولونية والاخشيدية والفاطمية والأيوبية بمصر من سنة ٨٦٨ الى سنة ١٢٥٠ . ومن بعد هذا التاريخ ازداد انحلال السلطان الروحى للخلافة وزالت الدولة العباسية نفسها من بغداد واستولى التتار على أكثر ممتلكاتها الأسيوية . أما مصر فقد استمرت تخطو الى الأمام خطوات واسعة فى سبيل التقدم والحضارة ، وكان المماليك هم الذين حلوا محل الدولة الأيوبية فى الحكم . والمماليك هم بعض هذه الطوائف التى أشرنا اليها والتى تجيء فى ركاب الغزاة ، ثم تصل فى كثير من الأحيان الى عرش البلاد باقرار أهل البلاد أنفسهم . وهؤلاء المماليك كانوا قد جاءوا الى مصر فى بلاط حكامها الذين سبقوهم

والأيوبيين منهم بنوع خاص . اشتراهم هؤلاء الحكام ليكونوا فى حاشيتهم وفى جيوشهم وليكون لهم من نسائهم الجميلات سرارى وموالى . ومن شأن هؤلاء أن يكونوا أكثر من كل الناس وقوفا على أسرار ذوى العرش ومعرفة ببواطن أمورهم وأسباب قوتهم وضعفهم . فكان طبيعيا بعد اذ كثروا فى مصر كثرة جعلت منهم جيشا جرارا أن يخلفوا الأيوبيين فى ملكهم . لكنهم ، كالأيوبيين وأكثر من الأيوبيين ، كانوا مستقلين بمصر وكانت مصر مستقلة بهم تمام الاستقلال غير خاضعة لحكم أية دولة أخرى . بل لقد كانت فى عهدهم عزيزة الجناب مرهوبة الجانب من كل دول البحر المتوسط التى كانت وحدها المعتبرة ذات حضارة معترف بها فى العالم كله . وبلغت من ذلك أن أصبحت القاهرة مقر الخلافة الاسـلامية ممثلة فى العباسيين الذين انقرضوا ملوكا ، فلم يبق للخلافة منهم الا شبح ذابل أراد الظاهر بيبرس أن يخلع عليـه رواء من قوة مصر ومجدها بأن يسكن الخليفة العباسى فى عاصمة ملكه . ولم يكن الظاهر فى هذا دعيا ولا مغرورا . فقد بلغت مصر فى عهد المماليك البحرية والبرجية من الرفعة شأوا عظيما حتى كانت صاحبة الاملاء على السياسة الدولية فى ذلك العصر . ولم يقف أمرها فى عظمتها عند السلطان الحربى ، بل كان لها أكثر منه سلطان علمى وأدبى معترف به ، كما كانت مركز الدائرة من حركة التجارة العالمية . وكمثل من سلطان مصر الأدبى أضع تحت نظر القارىء الفقرة الآتية من كتاب الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعى « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر » قال :

« ظلت الآداب العربية الى عهد السلاطين البحرية والبرجية

الشراكسة حافظة مكانتها التى كانت لها من قبل ، واليهم يرجع الفضل فى انقاذ آداب العربية من غزوات المغول التى كادت تقضى على العلوم والآداب العربية فى الشرق . فكانت مصر ملجأ للناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار فى العراق وفارس وسوريا وخراسان ، وبقيت لغة حكومتها عربية فى عهد تينك الدولتين ، واستظلت العلوم والآداب العربية بحماية الملوك والسلاطين فى مصر ، ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء ، كالبوصيرى صاحب البردة ، والسراج الوراق ، وابن نباتة المصرى ، والقلقشندى صاحب صبح الاعشى ، والابشيهى صاحب المستطرف ، وابن منظور صاحب لسان العرب ، وابن هشام النحوي العظيم الذى يقال فيه انه أنحى من سيبويه ، وابن عبد الظاهر ، والنواجى — نسبة الى نواج احدى قرى مديرية الغربية — صاحب حلبة الكميت ، والقسطلانى المحدث المشهور ، وشمس الدين السخاوى صاحب الضوء اللامع ، وابن خلكان المؤرخ المشهور صاحب وفيات الأعيان ، والصفدى صاحب الوافى ، وابن حجر المؤرخ امام الحفاظ والمحدثين فى زمانه ، والعينى المؤرخ والمحدث ، وابن وصيف شاه ، وابن دقماق ، والمقريزى صاحب الخطط ، والمكين بن العميد ، وأبو الفداء المؤرخ الجغرافى المشهور صاحب تقويم البلدان ، والذهبى ، والنويرى صاحب نهاية الأرب فى فنون الأدب ، وابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، وابن عقيل ، وابن تغرى بردى صاحب النجوم الزاهرة ، وجلال الدين السيوطى صاحب التآليف الشهيرة فى التفسير والعلوم الشرعية والتاريخ والأدب واللغة وهو آخر من ظهر فى ذلك

العصر من كبار العلماء بمصر ، والدميرى صاحب حياة الحيوان ، وابن اياس المؤرخ الذى أدرك الفتح العثمانى . وقد استضافت مصر فى ذلك العصر جماعة من أئمة العلوم والفلسفة فى الشرق ، كالامام ابن تيميـــة وابن القيم الجـــوزية ، وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون » .

ونضع كذلك تحت نظر القـــارىء هذه العبارة من كتـــاب « صفحات فى تاريخ مصر » للأستاذ توفيق حامد المرعشلى ، ليرى منها مبلغ ما وصلت اليه مصر أيام المماليك من عظمة فى نواحى حياتها الاقتصادية والسياسية ، قال : « ان عصر المماليك يعــد من عصور الرخاء والنشاط التجارى والاقتصادى بمصر . فكانت الصلة بين مصر ودول أوربا موطدة الدعائم . عقدت المعاهدات مع فرنســا وجمهوريات ايطاليا لحـــماية التجار الأجانب وترغيبهم فى الاقامة بمصر ، فراجت الأسواق التجارية وصارت مصر الملتقى التجارى بين الشرق والغرب سواء أكان بمرور التجارة من مصر فالبحر الأحمر الى الهند أم من الشام الى العراق فالخليج الفارسى الى بلاد العجم والهند وبالعكس من الطريقين ، مما عاد على المماليك وخزانتهم وعلى المصريين ضمنا بالأموال الطائلة التى كانت تجبى من المكوس والحركة التجارية » . فأما رقى الفنون ، وفن العمارة منها بنوع خاص ، فتشهد به الآثار الكثيرة الموجودة بمصر ومنها المساجد والمنـــازل الأثرية بمشربياتها وابهائها البـــديعة التنسيق الرائعة الجمال .

وليس انســـان يقرأ هذا الذى بلغته مصر فى عصر المماليك من سؤدد وعلم وحضارة الا يقف ذاهلا : ألم يكن الأثر الباقى فى نفوسنا لما تعلمنا عن تاريخ مصر فى هذه الفترة أنها تعتبر عصرا

مظلما فى تاريخ مصر ؟ فكيف يذر العصر المظلم كل هــذه الآثار المضيئة ! قد نفهم القول بأن حكومات مصر فى ذلك الزمن كانت حكومات استبدادية وان الفكرة الديموقراطية كانت معــدومة يومئذ ، وانما كان يقوم نظام الطوائف مقامها . لكن هذا لا يعنى شيئا ولا يخفى ما لتاريخ مصر أثناء عصر المماليك من سناء ساطع . هو لا يعنى شيئا لأن أمم العالم كله كانت يومئذ محكومة على نظام استبدادى تؤيده الطوائف المعزوة رياستها الى مقام الحاكم بما يجعلها ذات مشورة ، ان لم تكن ذات رأى فى تصريف الشؤون العامة . ومادام هذا النظام قد أنبت كل تلك الثمرات اليانعة التى تفخر بها مصر وتضعها فى الغرة من تاريخها ، فذلك الدليل على أنه كان النظام الصالح فى العصر الذى قام فيه . فليس نظام الحكم يحمد لذاته أو يذم لذاته ، ولكنه يحمد أو يذم بقــدر ما يؤتى من صــالح الثمرات أو من سيئات . وبقى هذا العصر الزاهر فى تاريخ مصر من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٥١٧ .

وكما اكتسح الاسكندر الأكبر العالم فعنت له أممه ثم فتحت مصر له آخر الأمر أبوابها ، وكما أتاحت الأقدار ليوليوس قيصر أن يصنع بالعالم صنيع الاسكندر من قبل، مما جعل مصر تذعن لسلطان روما مع مداومتها الثورة عليه ، كذلك اكتسح الأتراك العالم فى القرن الخــامس عشر وقضوا على الدولة البزنطية باستيلائهم على القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ وأوغلوا بعد ذلك فى أوربا حتى وصلوا الى أسوار فيينا . وقد بقيت مصر مرهوبة الجانب عندهم برغم ما كان من كل تلك القوة لهم حتى سنة ١٥١٧ حين نزلهــا السلطان العثمانى سليم بعد حرب تم له فيهــا النصر على السلطان

الغورى فى موقعة بالشام على مقربة من حلب وعلى طومان باى الذى كان قائما مقامه بالقاهرة .

وحكم الأتراك مصر على الطريقة التى حكمتها بها روما . وكان أول ماصنعوا أن أخذوا الخليفة العباسى الى الآستانة حيث جعله السلطان سليم يتنزل عن الخلافة التى أصبحت من يومئذ فى آل عثمان حتى قضى مصطفى كمال عليها فى سنة ١٩٢٣ ، ثم جعلوا يوفدون الى مصر واليـا حرصوا على ألا تطول مدته بمصر من خشية أن ينظم جيشها ثم يقهر الأتراك به ويعيد الى مصر استقلالها على نحو ما حدث فى عهد البطالسة . وأوقفوا ماكان بمصر من مظاهر الحضارة بأن أخذوا الى عاصمتهم رجال العلم والفن والصناعة فى مصر ، ولم يعوضوها شيئا . وظل الحال على ذلك الى أواخر القرن السابع عشر حين بدأت نذر الانحـلال يدب دبيبها الى تركيا . حينذاك بدأ المماليك ، الذين ظلوا طوال مدة ولاية تركيا حكام الأقاليم ، يفكرون فى استعادة السلطة والاستقلال بمصر . وكان هؤلاء المماليك قد أصبحوا ، كما أصبح اليونان والعرب من قبل ، مصريين ، فكانوا يقفون متكاتفين مع شعب مصر فى وجه الوالى الذى تبعثه الاستانة كما كان أسلافهم من قبل يقفون فى وجه الحاكم العسكرى الذى تبعثه روما . وكان هذا الوالى التركى الذى لم يندمج فى مصر ولم يتمثل روحها يظل سجينا فى قلعة القاهرة لاسلطان له على أحـد ولا على شىء فيها . وكان المماليك والشيوخ الذين يمثلون الطبقة المتعلمة اذا رأوه على غير مايريدون ، بعثوا اليه رسولا يطلق عليه اسم الأوده باشى يدخل عليه ويطأطىء الرأس احتراما له ثم يلمس طرف السجادة ويطويها ويقول مناديا للوالى : « انزل يا باشا » ،

ويكون هذا أمرا للوالى صادرا له من المصريين لا يستطيع له مقاومة ولا تستطيع تركيا له نقضا . وبلغ الضعف بالوالى التركى أن كان طوال القرن الثامن عشر واليا بالاسم لا سلطة له ولا عمل أكثر من ارسال الخراج الى تركيا . ودفع هذا الضعف على بك الكبير الى التفكير فى الاستقلال بمصر وتم له من ذلك ما أراد ، وظل ثلاث سنوات تلقب فيها بسلطان مصر وخاقان البحرين . على أن سوء سياسة الحكم فى تركيا وما كان من تدميرها كل أسباب الحضارة فى مصر أثناء القرن الأول من استبدادها بها ، نضح على هؤلاء المماليك فجعلهم يسيرون مع الشعب أسوأ ما يسير مستبد جائر ، مما شوه اسم أسلافهم المماليك الذين ارتفع اسم مصر فى عهدهم الى مكان من العزة لا ينال .

وجاءت الحملة الفرنسية الى مصر سنة ١٧٩٨ فقاومها المصريون أشد المقاومة حتى انتهت بالجلاء عن البلاد بعد ما نقلت اليها أفكار الثورة الفرنسية وأسباب الحضارة الغربية . وبعد أن فتحت عيون المصريين على حياة جديدة هى التى يدأبون اليوم لتوطيدها واتخاذها وسيلة لعود مصر الى مجدها وقوتها .

وجاء محمد على باشا واليا من قبل تركيا على مصر فقضى على المماليك ، ثم استمال اليه علماء مصر وأعيانها ووجهاءها ، وفكر طوعا لارادتهم ، فى الاستقلال بها . وأعلن ذلك بالفعل وغزا الدولة العثمانية فى الشام وفى الأناضول ووصل حتى صار على ثلاث ساعات من الآستانة . وكان مخضعا سلطان تركيا لولا أن تحالفت معها عليه دول أوربا جمعاء ، ووقفت فى وجهه برا وبحرا ، وقضت على الأسطول المصرى فى معركة نافارين . وهذا الوقوف من جانب الدول الأوربية

فى وجه الجيوش المصرية الظافرة لم يكن القصد منه المحافظة على تركيا الضعيفة مخافة أن يهدد وجود حاكم قوى فى الآستانة التوازن الدولى كما اعتاد المؤرخون أن يقولوا . فلو أن ذلك وحده كان السبب لكان أقل ماتجزى به مصر على انتصاراتها بقيادة محمد على أن تقوم بنفسها دولة مستقلة غير خاضعة لأحد . لكن الدول أبت على مصر هذا الاستقلال وأصرت على أن تظل ولاية تابعة لتركيا ، وان كانت ولاية ممتازة مستقلة استقلالا داخليا كاملا . انما كان السبب الصحيح تخوف أوربا من أن تستعيد مصر قوتها التاريخية المعروفة وأن تنضم اليها فلسطين وسوريا كما كانتا منضمتين لها فى أكثر حقب التاريخ ، وأن تتحكم لذلك فى حوض البحرين : الأبيض والأحمر ، وأن يصبح سلطانها بالفعل خاقان البحرين كما كان على بك الكبير يدعو نفسه فى الفترة القصيرة التى استقل فيها بأمر مصر . ومهما يكن من أثر ذلك فى تقوية الحضارة ورفع منار السلام فان الفكرة الاستعمارية كانت قوية يومئذ فى نفوس الساسة الأوربيين الى حـد جعلهم يضعون أساسا لسياستهم القضاء على قيام دولة فى مصر لها هاته القوة والسلطان . وهذا وحده هو السر فى ابائهم على مصر أن تستقل بازاء تركيا التى ضعفت كل الضعف عن مقاومة جيوشها والتى كانت معرضة لأن تقع هى وعاصمتها تحت سلطانها .

على أن هذا العسف من جانب أوربا لم يوهن عزيمة مصر . وقد ظل شعبها طوال القرن التاسع عشر كله متوثبا يريد تحقيق استقلاله على النحو الذى يستشفه القارىء من تراجم من ترجمنا لهم فى هذا الكتاب . وها هو ذا اليوم قد بلغ من مجهوداته فى هذا السبيل مقاما محمودا . وهو لاريب سيكون فى المستقبل كما كان فى الماضى عاملا من أقوى عوامل العرفان والحضارة والسلام .

الكتاب الأول

تراجـــــم مصرية

كليوباطرة

كليوباطرة اسم ساحر خلع عليه التاريخ وخلعت عليه الأساطير من ألوان الفتنة بهاء باهرا تضاءلت الى جانبه أسماء الزهرة وافروديت وسميراميس وسائر آلهة الجمال ، وهاتاسو ونيفرت وسائر الملكات ، بل تضاءلت الى جانبه أسماء الملوك ، والشعراء ، والكتاب . فهى ليست جميلة وكفى ، وليست مليكة وكفى ، وليست ساحرة الحديث وكفى ، وليست ذكية وكفى ، وليست أديبة وكفى ، بل هى ذلك كله وهى أكثر من ذلك كله ، هى الفتنة والسحر والذكاء والأدب والنشاط وقوة الارادة فى أسمى ما تصوره معانى هذه العبارات . وهى مع ذلك آخر البطالسة الذين حكموا مصر عصورا طويلة كانت مصر فيها مهبط وحى الحكمة والشعر والجمال . لذلك لم يفت مؤرخ ولا قصاص ولا شاعر أن يتحدث عن كليوباطرة وأن يتغنى بحياتها وأن يصور هذه الحياة على النحو الذى يجب أن تكون . ولذلك كان ماأريق من مداد وما سود من صحف فى الكلام عن هذه الملكة أكثر من مثله مما يمكن لأية آلهة أو ملكة أخرى أن تفخر به .

وكان حظ كليوباطرة أن ولدت بالاسكندرية فى عصر بلغ فيه نجم روما غاية سموه ، وبدأت مصر فيه دور الترف الذى يسبق الانحلال . وكانت الاسكندرية فى ذلك الحين عاصمة الدنيا ومستقر كل ما فى الحياة من متاع ونعمة . فكان الناس يتكلمون فيها كل

اللغات المعروفة ، كما كانت الفلسفة فيهاناضرة مستقرة بكل نظرياتها المتضاربة استقرار جوار حسن ليس فيــه شيء من الكفاح أو القسوة . فالى جانب الأبيقورية الناظرة للحياة نظرة سرور بهــا وحرص عليها واستمتاع بكل ما فيها ، المبتسمة سخرا منها وازدراء لها واشفاقا على أهلها ، كان الرواقيون ينادون بالزهد فى الحياة والأخذ بأسباب التقشف واحتقار عرض الدنيا الزائل ، وبلغ بعضهم من ذلك حد الدعوة الى تعذيب الجسد لطهارة الروح . والى جانب مكتبة الاسكندرية العامرة الحاوية ثمانمائة ألف مجلد فيها ما شئت من ألوان الحكمة والعلم والتفكير والفن ، كانت تقوم المراقص والملاهى يهرع الناس اليها لينسوا أنفسهم فى لهوها ولينهمكوا فى ملذاتها وليمتعوا أبصارهم بجمال ساحراتها الراقصات والمغنيات .

وكانت هذه الحياة المتفجرة بينابيع الحكمة واللهو جميعا تموج فى محيط بلغ كمال العمارة التى قامت خلال ثلاثمائة سنة كانت منذ انشأ الاسكندر الأكبر المدينة عام ثلاثين وثلاثمائة قبل الميلاد سنى نشاط وعظمة لمصر وفلسفتها وعمارتها . فقد اتصل مابين هذا الثغر البديع الموقع فى امتداده على شاطىء بحر الروم وجزيرة فاروس القائمة وسط البحر ترقب غدواته وروحاته بجسر هفتا البالغ غاية العظمة والجمال والذى انتهى بالجزيرة الى أن أصبحت جزءا من المدينة . واتصل بالنيل بقناة كانوب (ترعة المحمودية الحاضرة) التى لم تكن مجرد مجرى للماء والتجارة ، بل كانت كذلك مجرى للمسرة والنعيم بما أحاط بها على مدى طولها من حدائق وأعناب ونخيل قامت أثناءها منازل اللهو ودور المتاع تحيط بها جنات فيحاء جمعت كل أسباب النعمة من زهر عطر وفاكهة نضرة . فأما أهل هــذه

المدينة فكانوا أهل ذكاء وظرف وكانوا حراصا على المتاع بكل ما فى حياة مدينتهم الزاهرة متاعا عريضا ، يتهالكون فى ذلك على اللهو وعلى المسرة فى مختلف صورها وألوانها . فكما كانت فرعتها تفتن فى الترف بما يعجز خيال كل مترف فى عصرنا الحاضر كان الشعب ، رجالا ونساء ، منغمسا فى حمأة اللذائذ الدنيا مسلما نفسه اليها ما استطاع الى ذلك سبيلا . لكنهم كانوا مع ذلك أميل للاستخفاف بالحياة وما فيها ولو بلغوا على الحياة أعظم مكان . وأى استخفاف أشد من استخفافهم بالفراعنة الآلهة حتى لقد دعوا جد كليوباطرة البطين ودعوا أباها بطليموس أوليتا أى العازف بالناى .

وكانت كليوباطرة شديدة الولع منذ صباها بالتجول فى أنحاء الاسكندرية والوقوف على كل مافى هذا العالم العامر بكل مافى العالم من حياة وحضارة . وفى تجوالها هذا عرفت وتعلمت كثيرا . عرفت كل ما وقعت عليه عيناها الواسعتان الجذاب دعجها الساحر وكل ما أحاط به ذهنها الحاد . وتعلمت اللغات والآداب وطرائق التعبير العزيزة على مدرسة الاسكندرية يومئذ والتى تمتاز بالتورية والرقة والقوة . وكان لها بالكتب ولع وغرام ليس مثلهما ولع ولا غرام . وكانت أميل للشعر وأشد لذلك تفضيلا للأوديسى على التوراة وعلى كثير من كتب الحكمة .

وفى هذا الصبا الناعم عرفت وارثة عرش بطليموس الثانى عشر من ألوان الترف وتذوقت من صوره مالم يعرفه ولم يتذوقه غيرها ممن لم يؤت ذكاءها ولا علمها باللغات والآداب . فقد كان أبوها الفرعون العازف بالناى المستغرق فى ملاذ الحياة بما استحق معه لقب اله الخمر ديونيزوس يدللها بكل ما يلهمه ملك مترف معجب بابنة

ليس لها فى بنات حواء مثال . فكان يطوف واياها مدائن مصر ويركب واياها النيل من الاسكندرية الى طيبة ذات الأبواب المائة يقفان عندما يحلو لهما الوقوف عنده من المدائن العامرة بآثار مصر القديمة . فاذا تركا طيبة الى أنس الوجود أقاما فيه من الحفلات ما يجل عن الوصف ، وما ليس له مثال الا فيما أقامته كليوباطرة من المآدب لأنطونيو حين غرامه بها ودلها عليه .

على أن الصبية لم تبق فى هذا النعيم الملكى طويلا ، وان كانت لم تحرم منه الا لتعود اليه فتكون به أكثر متاعا . ذلك أن أباها طرد من مصر فالتجأ الى سوريا حتى عاد مع جند الرومان الذين أوفدهم بومبى . وكان أنطونيو على رأس فرقة من هذا الجند تحت قيادة جاليوس . فذهب مع بطليموس الطريد حتى دخل واياه الاسكندرية دخول الظافر .

وكانت كليوباطرة يومئذ فى الرابعة عشرة من عمرها . فلما أيقنت بانتصار أبيها وبعودته الى مدينة النعيم اجترأت على اختلاس شارة الملك من برنيس زوج اركايلوس خصم أبيها وجلست مع خديناتها فى شرفة القصر وقد ارتدت ثوبا رقيقا أبيض بدا فيه جمالها الساحر أشد سحرا رغم أن كان فى بدأ ترعرعه . ولما أقبل أبوها بعد دخول أنطونيو على رأس الجند الى القصر أمامه شقت هى وسط الجميع طريقا واندفعت تعانق أباها باكية من شدة التأثر . وكانت هذه أول مرة رأت فيها عين الرومانى الفاتح الطويل القامة العريض الأكتاف الشره الى كل لهو ومسرة تلك الفتاة الطفلة ما تزال ، والتى برعت برغم ذلك كل قريناتها من فتيات القصر ونسائه . ولم تنس كليوباطرة فى دهاوتيها أن توجه اليه نظرة حلوة

فيها أكثر من معنى الاعتراف بالجميل لرده أباها اليها والى ملكه .
وعاد أنطونيو الى روما وعاد بطليموس الى الحكم والى اللهو يستمرىء مرعاه ويمعن فيه بعـدما حرم زمنا منه . وكانت ابنته تطوف واياه أنحاء البلاد ينزلان فى المدائن العامرة ويقيمان فيها من أسباب اللذة مالا يباح لفتاة أن تعرفه . وظلا على ذلك ثلاث سنوات تباعا انتهت بموت الأب بعد ما أوصى بالملك لكليوباطرة ولأخيها بطليموس الطفل الذى لم يكن يزيد يومئذ على اثنى عشرة سنة على شريطة أن يتزوج من أخته . وكان زواج الأخ من أخته متعارفا فى الأسرات الملكية يومئذ لحرصها على أن لا يختلط دمها الفرعونى المستمد من الشمس كبيرة الالهة بدم الرعايا . واذ كان هذا الأخ قاصرا عين له قوام ثلاثة اشتركت الملكة معهم فى الحكم وان استأثرت به دونهم الى حد عظيم .

وقد ملكت قلب المصريين فى الفترة الأولى من فترات حكمها بما كانت تغدقه عليهم من صنوف المتاع وبسحرها اياهم بفتنة جمالها حتى دعيت اذ ذاك حبيبة الشعب وملكة كل نعيم . لكن عهدها بذلك لم يطل . فقد بعث منيلوس يطلب اليها ارجاع الجند الرومان الذين ظلوا عنـدها . واذ كان هؤلاء الجنـد قـد استوطنوا الاسكندرية وتزوجوا فيها ومتعوا بنعيمها فقد أبوا مغادرة مصر واستغاثوا بالشعب . ثم جاء من بعد ذلك ابن بومبى لنفس القصد. وكان لأبيه على أبيها فضل اعادته الى ملكه مما أجلسها هى على العرش بعده . لذلك رأت واجبا عليها أن تحسن وفادته . وقابلته فرأت فيه غير أخيها الطفل الذى فرضه الملك زوجا لها ، فقبلته ضيفا فى قصرها وأجابته الى ما طلب أن كان أبوه يومئذ فى حرب مع قيصر . وقد

غاظ ذلك أخاها منها فانضم الى المؤتمرين بها وعاون على انتقاض الشعب عليها ومحاولته قتلها . واذ كانت لا تملك الفرار من طريق البحر فرت فى (ذهبية) الى الصعيد كسيرة القلب ان لم يفعل جمالها فى أولئك السكندريين فعله . ونزلت طيبة على صورة لم تعهدها أيام زيارتها المدينة الخالدة مع أبيها المترف المتلاف . وبدلا من أن تجعل مقامها فى طيبة الاحياء جعلت مقابر الملوك موضع نجواها كأنما كانت تريد أن ترقد بينهم تنتظر البعث واياهم آملة فى الآخرة ملكا أكثر من ملك مصر ثباتا . لكن أصواتا انبعثت اليها من جوف مقابر هؤلاء الفراعنــة العظام تناجيها : أن لا ملك بغير اقــدام ولا جلالة من غير كبرياء ولا حكم لمن لم تملك نفسه شهوة الفتح . وأيأستها دعة المصريين من أن تجد منهم أى عون أو مدد . ففرت الى سوريا وهى فى مقدرتها على سحر أهلها أكبر أملا وفى فتنتهم بجمالها أشد ثقة . ولم يخنها حدسها. فما كادت تستقر فى ربوع الشام حتى سحرت أهلها بجمالها وبلاغتها واقدامها فالتفوا حولها واجتمع منهم جيش سارت هى على رأسه ممتطية جوادها . لكن المصريين بعثوا هم الآخرين بجيوشهم ورابطوا على حدود ما بين مصر والشام ووقف الجيشان وجها لوجه لا يلتقيان .

وفى هذه الأثناء هزم قيصر بومبى فى موقعة فرسالا وفر المنهزم الى مصر ، عله يجد موئلا فى بلد له عليه وعلى القائم على عرشه فضل سابق . لكن أوصياء بطليموس الطفل علموا أن قيصر يطارد غريمه ، وخشوا ان هم حموا هذا الغريم أو ألجأوه أن يصب عليهم قيصر جام غضبه ، فقتلوا اللائذ بهم . فلما نزل قيصر عليهم وعلم ما فعلوا ركبه الهم وحزن غاية الحزن وأمر أن تقام لبومبى أفخر طقوس الجنازة .

وعرفت كليوباطرة أمر ذلك كله ، وعرفت أكثر منه أن قيصر لما علم بما بينها وبين أخيها من حرب نصب نفسه حكما بينهما عملا بوصية أبيها أن تحمى روما ملك ابنائه من الشتات والدمار . هنالك فكرت فى أن تلجأ الى هذا الحكم ترفع اليه ظلامتها غير جاهلة ما قد يحمله لها من ضغن أن حمت ابن خصمه وأن مدت بومبى بالرجال والذخيرة . لكنها كانت واثقة من سحرها مطمئنة الى مقدرتها وفتنتها مؤمنة بأن لا نجاح من غير اقدام . وزادها طمأنينة ما كان من بكاء قيصر حين علم بقتل بومبى . فتركت الجند واستصحبت مؤدبها الأمين أبو لوردور ، واجتازا طريق البحر حتى وصلا أمام الاسكندرية . بقى أن تدبر الوسيلة للمثول فى حضرة قيصر . وكليوباطرة نحيفة القوام بضة لينة الملمس . فليس يعجز أبو لوردور أن يحملها وان يزعم أنها بعض المتاع وأنه من رجال روما يريد ايصال ما يحمله لقيصر . فالتفت الصبية الفاتنة فى بعض أسمال وأردية من غير أن تبدل شيئا من زينتها الملكية وعطرها ، وحملها مؤدبها على كتفه وزعم حين سأله الحراس عن غايته أنه موصل ما يحمل الى بعض ضباط قيصر . واجتاز معسكر الرومان حتى أنزل حمله فى رفق أمام الظافر على عاهل روما ، الباكى عليه حين وفاته .

وكانت هذه هى الساعة التاريخية التى اتجه فيها الزمن غير وجهته . الساعة التى وقف ازاءها القصاص والمؤرخون أذهلهم البهر وسحرتهم الفتنة كما أذهلا قيصر وسحراه . نضت الملكة الصبية ما التفت به من أطمار وأسمال وبدت فى زينة الملكة وعطرها وجلالها . أكانت طويلة أم قصيرة ؟ أكان أنفها كبيرا أم صغيرا ؟

لم يعرف قيصر فى هذه اللحظة من ذلك شيئا ، واختلف المؤرخون فيه خلافا كبيرا . وكأنما كان لجمال هذه الفاتنة من الروعة ما لأشعة الشمس من قوة تحول دون التحديق بها . وكأنما بقى هذا الجمال فى قوة سحره بعدما مر على صاحبته من عصور وقرون فكل يختلف فى صورته وفى قسماته . على أن كليوباطرة لم تحاول فتنة قيصر بجمالها . بل ارتمت عند قدميه ضارعة مستغفرة ، وجعلت تتكلم وتشكو وتستعطف ، وكان صوتها أفعل سحرا من جمالها ، وكانت عبارتها أنفذ الى القلب من صوتها الى شغاف الفؤاد ومن جمالها الذاهب باللب . جعلت تتكلم وتشكو وجعل قيصر ينصت ويصغى ، ثم صار لا يسمع دفاعا ولا شكوى بل أنغاما دونها صوت البلبل وعزف الناى . وانتهى بكليوباطرة وبه الأمر أن وقفت وجثا هو على قدميها ضارعا مستغفرا ثم حملها على كتفه كما حملها اليه أبو لوردور وذهب بها الى مضجعه .

وكان قيصر رغم تجاوزه الخامسة والخمسين محبا للنساء ، كما كان مثار اعجابهن بقوامه ونظرته وبروحه المهذب الرقيق وعزمته الصادقة القوية . لذلك اتصل بينه وبين كليوباطرة منذ هذه المقابلة الأولى بما سحره عن كثير مما كان اعتزم لمجده ومجد روما . وجلست هى الى جانبه فى قصرها المنيف تعجب به وتثير اعجابه . وملكته حتى لم تبق فى شك من حكومته بينها وبين أخيها . ودعا هو أخاها الطفل ليصلح بينهما ، فلما دخل عليهما قرأ فى عيونهما ماهاج الدم فى عروقه الضعيفة ، وما دعاه ليلقى التاج عن رأسه وليخرج صائحا فى الشعب وفى جند روما داعيا الى الثورة على أخته وعلى قيصر لعهر كليوباطرة وخيانة صاحبها . ولم يرد قيصر

أن يقاتل لقلة جنده ولحرصه على استبقاء هذا الطفل مغمضا عينه على ما يفعل الجبيان ، فاسترضاه وصالحه على تنفيذ وصية أبيه باشراف روما . ورضى الغـلام آملا أن يطمئن له الأمر فيصير ملكا وفرعونا وإلها . وظـل هو وكليوباطرة يرتشفان من كأس الحب وينهلان أعذب موارد الهوى بما يتفق وروحيهما المهذبين . ولقد كانا بذلك سعيدين كل السعادة . ولم يكن ورد سعادتهما قاصرا على اتصال الغرام بين ابنة الملك العازف اللدنة القوام ، الموسيقية الصـوت والنفس ، الرطبة الخلق ، الندية النظرة ، الرشيقة رشاقة الراقصة ، وبين قيصر الساحر الحلو الحديث . بل كان ورد سعادتهما الحق هو الحب . كبل كل واحد منهما صاحبه بأغلال هذه العاطفة القاسية السامية فى قسوتها فسعد كل باغلاله . وكانت كليوباطرة أكثر سعادة لأنها استردت مع هذا الحب ملك مصر ووضعت يدهـا على تاج روما وصرفت قاهـر السكون والجرمان وسائر دول أوربا عن حروبه فى سبيل الجمهورية ليحارب فى سبيلها وليقهر أوصياء أخيها وليثبت لها أركان عرشها بعدما ثبتت فى قلبه وظل كذلك ستة أشهر لا يعرف من أمر روما شيئا ولا يبعث الى روما بخبر ، وان عرفت روما من أمره مع ملكة مصر كثيراً . وزادت به ارتباطا وازداد لها عبادة حين حملت منه . اذ ذاك لجأ فى أسـباب المسرة يلتمسانها فى كل مكان ويرتجيان النعمة من كل الآلهـة . فأقاما أعيادا عند الأهرام وأبى الهول ، وفى ابيدوس عند قبر ايزيس وأوزوريس ، وفى دندرة حيث معبد هاتور آلهة النسل الخصب وفى طيبة ذات الأبواب المائة ، وفى أنس الوجود ، وفى كل معبد وعند كل إله .

ووضعت كليوباطرة غـلاما دعته قيصرون وخلعت عليه كل ألقاب الفراعنة آلهة مصر وعواهل روما وحكامها . ثم أبحر قيصر الى روما ولحقت هى به فى أبهة الملك وجلاله ، وفى حاشية ليس للرومان بها عهد . وقيصر ظافر والشعوب عباد من ظفر . وقد أقام لمناســبة عودته أعيادا أسرف خلالها فيما خلعه على الشــعب من أعطيات ونعم زادت الشعب له عبادة وأنسته ما كان من انصراف قيصر عنه الى كليوباطرة عاما كاملا . لكن هذا الشعب لم يعجب من كليوباطرة بجمالها الرائع المترفع ، لأن زعماءه وقادته جعلوا يستعطفونه على كالبورينا زوجة قيصر .

ولم يعن قيصر من ذلك بشىء . بل أقام لابنة بطليموس قصرا على نهر التبر جمـع فيه من ألوان النعيم ما أبدعه خيـال الملكة ، وجعل يزورها فيه فتقيم له من المراقص وصنوف اللهو ما ينسيه كل هموم الحكم ومتاعبه . ثم جعل يستقبل أصحابه فى قصر التبر ، و لايخفى عليهم من صلته بكليوباطرة شيئا . وبالغ فى الحفاوة بها حتى أقام لها هيكلا نصب فيه تمثالها على صورة الزهرة إلهة الجمـال والحب . ودار فى خاطره أن يتزوج منها رغم وجود كالبورينا زوجته وبطليموس الطفل زوجها . ومع أن مجلس الشيوخ لم يكن ينظر الى هذا الزواج بعين الرضا فقد فكر فى أن يعدل قوانين روما بما يبيح للرجل أن يعدد زوجاته ما دام لاعقب له . ولقد كان فاعلا وكاد قيصرون يصبح يومئذ وارثه على عرش روما ويتغير وجـه التاريخ وتبقى مصر مقرا للحضارة كما كانت لولا أن دبرت المؤامرة لقيصر ، وأن قتله أصحاب يوم أعياد المريخ فى العام الرابع والاربعين قبل الميلاد .

بكته كليوباطرة ثم عادت الى مصر مع حاشيتها وأبنائها وتركت أخاها الملك زوجها فنسيه التاريخ ولم يعرف أحـد عنه بعد ذلك خبرا ، وأقامت بالاسكندرية متوجسة خيفة أن يوقع بها خصوم قيصر وقتلته . لكن الحروب التى قامت بين أصدقائه وقتلته انتهت بانتصار أنطونيو وأصحابه فى موقعة فيليب . ولم يزل ذلك وجلها وظلت فى خشـية من أن ينزل أكتاف ابن أخت قيصر مصر وهو لابنها من قيصر ألد عدو . لكن نجمها كان ما يزال نجم سعادة . فتقاسم المنتصرون ملك روما ووقع الشرق لأنطونيو . وأنطونيو صديق قيصر ومحبه . وأنطونيو رجل شهوة لا صبر له أمام امرأة . وأنطونيو معجب بجمال كليوباطرة منذ سنين ، عابد اياها مذ كان يزور قيصر فى قصر التبر . مع ذلك لم تر كليوباطرة أن تبعث اليه وفودا تهنئه بالملك كما بعث سائر ممالك الشرق التى وقعت فى حكمه . وهى لم تمده فى حروبه مع قتلة قيصر بعدد من مال أو رجال . فغاظ ذلك أنطونيو وبعث اليها رسـولا أن تحضر بنفسها لتدافع عن ذنوبها . وظل الرسول فى قصرها أياما عاد بعدها مسحورا بها آخذا نفسه بالدفاع عنها حتى تحضر اجابة لطلب سيده . وبقيت هى زمنا تعتذر عن عدم مسارعتها لاجتياز البحر بشتى الاعذار . وبقى رسول أنطونيو خلال ذلك يحدثه عن فتنتها بما أذهب صبره . ثم بعثت هى أنها آتية اليه فى تارسيس ، وذكرت موعد وصولها . فخف الحاكم الى المدينة ينتظرها وأقبل أسطولها يشق عباب البحر حول سفينها السابح تدفعه أشرعة من خز ، ويحمل مقدمه الرفيع تمثال آلهة البحر ، وتبدو فى وسطه مقاصير زينت بأفخر الرياش . وقد

ذهب بالشعب لما رأى كل هذا الجمال والجلال فصاح : « هـذه أفروديت ، بل هذه الزهرة أتت تزور إله لهونا المحبوب ! » .

وبعث أنطونيو برسوله يدعوها بالعشاء عنده ، فاعتذرت بأنها متعبة ودعته الى سفينتها . فلم يغضب ولم يتردد بل طار اليها وقضى شطرا من الليل فى حضرتها نسى فيه الذنوب ونسى العقاب ونسى كل شيء غيرها . ثم دعته فى الليلة التالية الى وليمة عشاء فى قصرها ودعت معه جمعا من الامراء وأرباب الدولة . وما كان أشد بهرهم حينما رأوا الليل ينقلب فى ذلك القصر نهارا ورأوا فيه من التماثيل والآنية والطنافس والخدم وألوان الطعام يتناولونها وتطربهم أنغام الموسيقى تطير فى الجو مع ريح العطر والزهر وتمتزج مع أنغام أجسام الراقصات اللدنة بما لم يحط به خيال أحد منهم من قبل . وكليوباطرة وسط هذا الجمال الساحر أروع فتنة وأشد سحرا . وأبدى أنطونيو دهشته متى نظمت الملكة هذا القصر وما فيه . فابتسمت قائلة : انه رسولها الذى بعثت به من أسابيع ثلاثة هو الذى صنع هذا بأمرها .

ودعاهـا أنطونيو الى قصره ودعا معها الامـراء وحاول أن يجاريها فى البذخ والنعمة ثم ابتسم آخر الوليمة أن رأى محاولته عبثا . ودعته وأمراءه الى وليمة ثانية قالت انها تكلفها ثلاثة ملايين درهم . فأنكر أنطونيو ذلك عليها ، وراهنته انها فاعلة . وكلف هو أحد الامراء أن يحصى التكاليف . ولما رأى ان لم تزد الملكة شيئا على ما فعلت فى الوليمة الأولى أبدى لها أنه قمرها . فاستمهلته وخلعت من اذنها قرطا فيه جوهرة منقطعة النظير كان الاسكندر أهداها لبعض أسلافها وألقت بها فى كوب به خل فذابت وشربت

هي الكوب وما فيه وقمرت أنطونيو . وظلت فعلتها هذه يقصها المؤرخون على انها بعض العجائب .

وأسرع أنطونيو بالنظـر فيما لديه من شـئون الملك وعاد وكليوباطرة الى مصر واندفعا فى سـبيل الغرام تهيج سماء مصر فى تفسيهما ما انطوتا عليه من حب اللذات واستباحة كل ألوانها والافتنان فيها . على أن أنطونيو لم يكن مهذبا كقيصر ، بل كان جنديا خشنا فج الذهن لايعرف الرقة ولا يحيط من الأدب أو اللغات بشيء . وانما حببه الى الجند ورفعه الى مقام قيصر سهولة فى العبارة التى كان يخطبهم بها ونزول منه الى مشاركتهم فى تذوق اللذات الدنيئة السـافلة التى كانوا يتذوقونها . فلم يكن حى من أحياء الدعارة فى روما أو بغى من بغاياها لا يعرفه . وكان من أسباب فخره أن أعقب من الاولاد حيثما ذهب مالا عدد له . ولقد أحب كليوباطرة بهذه الروح الحيوانية الملتهبة المتأججة الضرام ، فألفت فيه حياة بهيمية قوية لم تكن فى قيصر ، ولكنها لم تجد فيه حياة العاطفة الانسانية التى تغذى القلب وان قصرت عن الهاب الدماء . على أن هذا الخلاف بينهما اضطر انطونيو الى أن يتعلم ويحضر من الدروس ما يخفف من شعوره بأنه دون كليوباطرة ، ودفعها هى لتنزل عن التفنن فى رقة المتاع الى هذه البهيمية الثائرة . وقد أنفت ذلك فى بادىء الأمر حـين كان حرصها على انطونيو راجعا الى حاجتها السياسية له . لكنها تذوقته بعد ذلك وبلغت من تذوقه ان لم تكن تطيق مفارقة صاحبها حين جولاته فى أحياء الدعارة واللهو ، ولم تأنف أن تدفع بكتفيها أيا من رجال تلك الأحياء ونسائها على طريقتهم . وبقيا غارقين فى نعمتهما حتى حملت . وخيـل اليها أن

سيربط الحمل بينها وبين صاحبها كما ربط بينها وبين يوليوس من قبل • لكنه رآها ثقلت حركتها وخمد شعاع روحها ، فعاد يفكر فيما كان غافلا عنه من شؤون الدولة ، ورأى أن لا مفر له من العودة الى روما ليصالح أكتاف بعد ما حزبت عليه فلفيا زوج أنطونيو وهبت لمحاربته ، وليستعديه على أهل فنيقيا والشام الذين انتقضوا على روما وخلعوا نيرها • ولم تجد توسلات كليوباطرة اليه كي يبقى ولو الى حين وضعها • فلما قابل فلفيا فى اليونان أنزل عليها من سخطه ما كسر قلبها ، وغادرها الى روما فماتت قبل وصوله اليها • وأصـلح موتها بينه وبين أكتاف وتزوج من أخته أكتافيا برضى مجلس الشيوخ ، وكانت أكتافيا عـدل كليوباطرة فى سنها وجمالها ، وكانت أم طفلين من زواجها الأول محبة لحياة العائلة ونظامها مما يسر لها أن تسير زوجها وفق رأيها • فأنطونيو ككل رجل له مثل هذه الطبيعة الحيوانية يهون على كل امرأة أن تقوده • ولقد ذهبت معه الى اليونان وظلت معه زهاء ثلاثة أعوام أعقبت له أثناءها ابنين شغلت بهما وبأولادها الآخرين وبأولاد أنطونيو من فلفيا • فأحرج ذلك صـدر أنطونيو منها وجعل يراها أما لايعنيها منه الا ابوته لأبنائها ، من غير أن تعير مجده ولا عظمته اهتماما كالذى كانت تبديه كليوباطرة اذ كانت تدعوه انطونيو الأكبر • وبلغ من حرج صدره أن اتهمها بأنها أحن على اخوتها لأكتاف منها على زوجيتها له ، ثم بعث بها الى روما وانطلق هو الى سوريا يجنى ثمار النصر الذى أحرزه بعض قواده •

فى هذه السنوات الثلاث كانت كليوباطرة تعانى من الهم والألم أشدهما تبريحا ولذعا • علمت بما كان من زواج انطونيو واكتافيا

على أثر وضعها توأمين دعت أحدهما الشمس والاخرى القمر ، فاضطربت للخبر وما كانت من قبل تضطرب من خشية امرأة . وزاد فى مخاوفها ما قد يؤدى هـذا الزواج اليه من القضاء على آمالها فى قيام قيصرون مقام ابيه . هنالك غادرت الاسكندرية الى دندرة وشغلت نفسها بأن أقامت لهاتور معبدا . ثم انقبضت نفسها لهذه الوحدة التى أحاطت بها فعادت الى عاصمتها وشغلت نفسها من جـديد ببناء قبرها . وكان أكبر جهادها أن تنسى أنطونيو باستدامة العود الى تذكر قيصر . ونجحت فى ذلك نجاحا سرها . لكن هذه الذكرى وذلك الاشتغال بما بعد الموت لم يكونا ليتفقا مع ما يتحرك به الشباب فى جسد اعتاد ملذات النعيم ثم قسر على عفة قاسية . فعادت الى مثل ما عودها أنطونيو من المرح فى الانحاء التى يلهو الشعب فيها . لكن ذلك لم يطفىء من رغباتها ما كان كامنا .

ولما عاد أنطونيو الى الشام بعث اليها رسولا يستقدمها اليه بأنطاكية . ويل له من جرىء ! أيظن أن ملكة الملوك تطـير اليه بعد أن نسيته ، بل بعد أن أبغضته وبعد أن هجرها الى أحضان امرأة غيرها قضى معها أكثر مما قضى مع كليوباطرة ؟ لكن لا ! تضاءل ذلك كله أمام دعوته اياها فطارت تعد عدتها للسفر واجتازت البحر اليه لائمة عاتبة . وكفاها أن أقسم لها أن قلبه لم يعرف غيرها ولم يتعلق بسواها لتعود واياه سيرتها الأولى : وأنطاكية كانت ثالثة مدائن بحر الروم بعد روما والاسـكندرية فكان لهما فيها من مسارح اللهو ما يسد كل شهواتهما . ولكى تؤمن بحبه اياها عقد عليها زواجه منها وخلع عليها ثلاث ولايات بدل ثلاث السنوات التى غابها عنها .

وبعد زمن تهلا فيه ما طاب لهما من ورد النعيم جهز لمحاربة خصوم روما فيما وراء الفرات ، ورفض مشيئتها أن تصحبه لما فى ذلك عليها من مشقة . لكنه عاد الى سوريا محطما جيشه . فجاءت اليه من خير مصر مالا ورجالا بما أنساه هزيمته . وأقامت معه فانسته فتنتها كل متاعبه . ثم تلقى رسالة من زوجه اكتافيا أنها آتية اليه من روما فى عدة وعديد . فتأثر حين رآها تقابل صده لها وجفوته اياها بهذا الكرم والاخلاص والحب . لكن كليوباطرة وقفت فى سبيل ما أتت آكتافيا . ورفض أنطونيو أن يرى أخت عاهل روما أو أن يقبل منها مددا فعادت الى المدينة الخالدة ذات التلال السبعة مقهورة آسفة .

وعد الرومانيون هذه الفعلة على أنطونيو . فلما استرد قواه عاد فحارب خصوم روما وانتصر عليهم . لكنه بدلا من أن يحتفل بانتصاره فى روما ذهب يحتفل به فى الاسكندرية ويعتبرها عاصمة تعادل روما . وذلك مالا طاقة للرومانيين باحتماله . فأثار أكتاف الرومان عليه . وابتهجت كليوباطرة لذلك وجهزت أسطول مصر الضخم وسارت وأنطونيو الى أثينا فى انتظار ما ستتمخض عنه الحوادث راجية الانتصار على آكتاف حتى تجلس قيصرون على عرش أبيه . لكن نجمها كان قد بدأ ينحدر نحو المغيب فقد التقى الاسطولان فى (آكسيم) وكانت الملكة فى سفينتها (ألانطونياد) فى مؤخرة الاسطول المصرى ترقبه . وبدأت المعركة يحمى وطيسها وشعرت الملكة بأن حلمها أن تحكم روما وأن تقيم ابن قيصر مقام أبيه على عرش الغاصب آكتاف يتلاشى . عند ذلك طار صوابها وتولاها الذهول . فلما أفاقت ألفت الريح تهب نحو مصر فأمرت

رجالها بالعودة وما يزال الأمل فى النصر مضطربا بين العسكرين . والتقطت أنطونيو من سفينته وأخذته معها فى « الانطونياد » وعاد الى مصر وقد تولاه الأسى أن رأى نجمه يأفل وعظمته تذوى وتذبل .

فأما كليوباطرة فلم تفل الهزيمة من غرب عزمتها ، بل نقلت أسطولها برا من البحر الأبيض الى البحر الأحمر راجية أن تغزو الهند على نحو ما كانت تفكر مع قيصر . لكن هيرود عدوها فى سوريا لم يمهلها أن قتل رجالها وأحرق سفنها . هنالك تحطمت كل آمالها الامبراطورية واضطرت أن تقف كل حياتها ونشاطها على الدفاع عن مصر .

وأسلم أنطونيو نفسه للشراب ليله ونهاره آملا أن ينسيه الشراب هم انكساره . وظل فى شرابه حتى علم أن اكتاف آت من طريق سوريا لغزو مصر وأكبر همه أن يطفىء حياة ابن قيصر ، وكانت مشابهته لأبيه أكبر شهيد على اغتصاب ابن عمه عرش روما .وأخذ أنطونيو قيادة جيوش مصر . لكن الحظ اذا عثر لج به العثار . فانهزم أنطونيو فعاد الى قصر كليوباطرة وأمر أحد عبيده أن يقتله . فأمسك العبد الخنجر وتظاهر بطعن سيده ثم طعن نفسه فهوى . فأصغر ذلك أنطونيو فى عين نفسه فقضى عليها بأن ألقى بنفسه على النصل وذهب يعالج آلام الاحتضار يسلكها سبيلا لراحة الموت ، وقضى بين ذراعى محبوبته الفاتنة فبكته أحر بكاء ثم دفنته فى القبر الذى شادته حين هجرها وبالغت فى الحزن عليه لما أحست من سوء ما أعد لها القدر من مصير بعده .

ودخل أكتاف الاسكندرية ظافرا وكل همه أن يقضى على ابن

عمه الذى فر من وجهه . وحاولت كليوباطرة أن تلعب به كما لعبت من قبله بقيصر وبأنطونيو . وفى سبيل أبنائها وفى سبيل ملك قيصرون لم تكن لتعنى بشىء أو تتورع عن شىء . وبرغم حزنها على أنطونيو وجزعها على مصيرها ومصير أبنائها ولزومها القبر تقضى فيه وقتها باكية مكتئبة فقد ظفر أكتاف منها بساعات حديث شهى . وكان كل همه أن يأخذها الى روما وأن تسير فى حفلات نصره ليرضى بذلك شهوة انتقامه وانتقام أخته منها وليقدم للشعب الرومانى منظرا تبتهج له قلوب الشعوب : منظر ذل العزيز !! وعرفت هى هذا فثارت فى عروقها كل دماء البطالسة فراعنة مصر الأعظمين لكنها لم تكن قادرة الا على نفسها . وكانت قدرت هذا المصير ووطنت عليه نفسها وأوصت خادما من أتباعها أن يحضر لها ثعبانا فى فاكهة طعامها يوم تشير له الى جبينها . وأشارت الى هذا الجبين المصقول يوم أيقنت أن أكتاف غريمها يريد أن يذلها . ونزعت التين واحدة بعد واحدة ثم أمسكت الثعبان فوضعت فمه فى ثديها ليبعث اليها الموت من خلاله ، وكم بعث هذا الثدى الحياة الى أبنائها والى الذين انعمت عليهم الالهة بالمتاع بها .

وكان معها خادمتاها ايراس وشارميون فشاركتاها مصيرها بعد ماحلتاها بكل حلى ملكها الذى تحطم ، والذى حاربت حتى المقادير فى سبيل عزه ورفعته منذ مولدها الى مماتها (من سنة ٦٩ الى سنة ٣٠ قبل الميلاد) .

ويومئذ ذهبت الى بارئها أرواح كثيرين من عشاق فاتنة التاريخ . ويومئذ انطفأ نجم كان منيرا فى سماء الجمال والذكاء والقوة والنشاط وانطفأ معه سراج أسرة البطالسة كما انطفأ من مجد مصر حظ عظيم .

الخديوى الأول اسماعيل باشا

لئن صح أن كان لولاية محمد على حكم مصر أثر مباشر فى تاريخها الحديث ، وصح أن كان لشق قناة السويس أثر مباشر كذلك فى توجيه هذا التاريخ وجهة خاصة ، فالذى لا ريب فيه أن أكبر الأثر الذى خضعت وما تزال تخضع له مصر حتى الآن انما ترتب على حكم اسماعيل باشا . فأكبر مظاهر الحضارة التى تراها اليوم فى مصر يرجع اليه : اليه يرجع فضل انشاء السكك الحـديدية وتنظيم البريد ، وله الفضل الأول فى النظام القضائى القائم فى مصر حتى اليوم ، وله أكثر من ذلك كله الفضل الأكبر فى شعور الأمة المصرية بقوميتها وبكيانها . ثم ان عليه تبعة الأرتباك السياسى الذى لا تزال مصر تجاهد بكل قواها للخروج منه وتبعه الاضطراب المالى الذى شل حركة البلاد سنوات طويلة وهو ما يزال الى اليوم باقى الأثر ، وعليه أكثرمن ذلك كله تبعة تسليم البلاد ماليا واقتصاديا وسياسيا الى أيدى الأجانب . فهذه الستة عشر عاما التى رأته على عرش مصر (من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩) والتى شهدت من مظاهر النشاط المعمر ، ومن فضائح الظلم المخرب ، ومن البذخ والاسراف اللذين لا يعرف التاريخ ولا تعرف الأقاصيص لهما نظيرا ، والتى انتهت بسقوط عاهل مصر العظيم بعد أن جاهد أمته فأجهدها ، وبعد أن جاهد أوربا فأخضعته لها ، وبعد أن جاهد القدر فهوى به عن عرشه وأخرجـه من مصر حسيرا ينظر الى

شواطئها تبتعد عنه بعين دامعة وقلب كسير ، هذه الستة عشر عاما التى جرت الى مصر مظاهر الحضارة الأوربية وهى التى جرت على مصر الخراب ، وهى التى أيقظت فى شعب مصر الروح الاستقلالية التى لم ينسها يوما من الأيام ، وهى التى أججت فى نفوس المصريين نيران كراهية الاستعباد والظلم والحرص على الحرية والعدل .

ولم يكن عجيبا أن تترك هذه الأعوام الستة عشر فى مصر كل هذا الأثر واسماعيل باشا كان حاكم مصر المطلق . فقد كان بشخصه بطلا من أبطال الأقاصيص ، وكانت أيام حكمه أسطورة لا يسلم العقل بها لو رواها التاريخ عن عصر قديم . كان اسماعيل ساحرا أعظم السحر ذكيا أشد الذكاء وسيم الطلعة حاد النظرة ماضى العزيمة جذابا لكل من اتصل به . وكان مع ذلك قصير النظر شرها فى كل مطامعه وشهواته مغامرا فى سبيلها مجازفا مجازفة لا يهون منها أى حذر . وكان فيه من دم محمد على اقدام لا يعرف التردد وبطش لا هوادة فيه وقسوة لا يتسرب اليها أمل فى رحمة . وكانت هذه الصفات كلها بالغة منه فوق ماتبلغه من أذكياء الناس والباطشين منهم . ثم انه كان مولعا أشد ولع بالمظاهر الاجتماعية للحضارة الأوربية وان غاب عنه الجانب المعنوى منها ، وهو الجانب الذى يحركها وعدها بكل ما فيهـا من قوة . لذلك سخر ذكاءه واقدامه ليجعل لعرش مصر مظاهر العروش الأوربية وليكون قصره كقصر لويس الرابع عشر ان لم يكن أبهى منه وأزهر ، وليقول عن مصر انها أصبحت قطعة من أوربا . وفى سبيل ذلك انشأ كثيرا وخرب كثيرا وأثقل كاهل مصر بدين ماتزال تنوء الى اليوم به

وما تزال تحتمل بسببه نقصا فى سيادتها وذبولا فى استقلالها وعزتها .

ولد اسماعيل بن ابراهيم بن محمد على بمصر فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ وتربى فى المدرسة التى انشأها جده محمد على باشا بالقصر العالى ثم أوفده جده لما بلغ السادسة عشرة من عمره مع طائفة من الشبان الى باريس حيث التحق فيها بمدرسة أركان حرب L'école de l'état major ثم عاد الى مصر بعد أن أتم بها دراسته .

وكان عباس الأول والى مصر يومئذ . وقد حدث خلاف بينه وبين أفراد العائلة ومن بينهم سعيد باشا على اقتسام التركة . فذهبوا الى الاستانة يحتكمون الى جلالة السلطان . وفض جلالته النزاع بأن أوفد اثنين من رجاله الى مصر سويا الخلاف . وعاد أفراد العائلة العلوية خلا اسماعيل الذى ظل بالآستانة وعين فيها عضوا بمجلس أحكام الدولة العلية .

وفى سنة ١٨٥٤ تولى سعيد باشا أريكة مصر خلفا لعباس الأول . فاستقدم اسماعيل وجعله على رياسة مجلس أحكام مصر فى مثل وظيفته التى كان يشغلها بالاستانة . ولم يكن اسماعيل يومئذ وليا للعهد أن كان أخوه أحمد أكبر رجال العائلة وكان بذلك صاحب عرشها بعد سعيد . لكن أحمد توفى وآلت ولاية العهد لاسماعيل . من يومئذ جعل سعيد يخشى وجوده على مقربة منه فجعل يوفده فى مهمات خاصة الى البابا والى نابليون الثالث والى الباب العالى بالآستانة . وفى سنة ١٨٦١ نشبت فتنة بالسودان فبعث به على رأس أربعة عشر ألف مقاتل لقمعها . ونجح اسماعيل فى ذلك وعاد تولاه فى

أعين الشعب مقام كريم . ولما توفى أخوه أحمد وآلت اليه ولاية العهد ساءت العلاقة بينه وبين عمه الوالى الى حد أنه لما توفى سعيد باشا فى ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ ونودى به واليا مكانه حدد للتشريفات بالقاهرة نفس الساعة التى كانت محددة لسير جنازة سعيد بالاسكندرية ، فلم يحتفل بالدفن احتفالا رسميا ولم يحفل بالمشهد أحد .

وقد انتعشت النفوس بأكبر الآمال لأول ولاية اسماعيل باشا الحكم ، أن كان الناس فى سعة بسبب انتظام جباية الضرائب أيام سعيد وارتفاع أسعار القطن ارتفاعا عظيما ترتب على حروب الانفصال بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها ، وأن أبدى اسماعيل من الحرص على حضارة مصر واصلاحها ما جعل الرجاء فى المستقبل عظيما . وكان أول ماصنعه اسماعيل مما استراحت له النفوس أن نشر فى الناس على أثر ارتقائه العرش برنامجا خلابا كله المبادىء الحرة والوعود المغرية بخير الأمل والاصلاحات الواسعة على أحدث النظم الأوربية . وفى هذا البرنامج وعد بالغاء السخرة والرقيق والاتجار به وباصدار قوانين خاصة بالتعليم وبتحديد مخصصات والى مصر . وتوقع الناس أن ينفذ هذا البرنامج وأن تخطو مصر الخطى الواسعة التى تترتب حتما على تنفيذه لما بدا على اسماعيل بعد عوده من دراسته بأوربا ومن سياحاته الكثيرة فيها من الحرص على تنمية ثروته الخاصة . وزاد الناس رجاء فى ذلك ماكانت عليه حال البلاد اجمالا من الانتظام والطمأنينة .

لكن اسماعيل حرص ، الى جانب نشر هذا البرنامج ، على نشر

حالة الخزانة المالية وبخاصة فيما يتعلق بالديون التى خلفها سلفه سعيد باشا . ومع أن هذه الديون لم تكن تزيد فى التقـديرات الرسمية التى عرفت الى حين موت سعيد على أربعـة ملايين من الجنيهات فقد ظهرت فى البيان الذى نشرته حكومة اسماعيل باشا أحد عشر مليونا ومائة وستين ألفا من الجنيهات . والسبب فى نشر هذا البيان ليس مجرد الحرص على تحديد ما للدولة وما عليها ، فمثل هذا الحرص لم يكن معروفا فى ذلك الوقت . وانما السبب أن اسماعيل باشا كان يرى مايقتضيه تنفيذ برنامجه العظيم من طائل النفقات مما لاسبيل الى الحصول عليه من غير طريق الاقتراض . لذلك أراد أن يبين للنـاس وللأوربيين خاصة أن سلفه الذى لم يصنع شيئا لحضارة مصر أكثر من هذا الجيش الذى اختاره من طوال القامات ، الذى كان يصحبه أنى ذهب ، هو الذى بدأ سنة الاقتراض وهو الذى اقترض هذا المبلغ العظيم من غير فائدة للبلاد .

والواقع أن مطامع اسماعيل كانت عظيمة تنوء بها موارد مصر . فقد أراد أن يصل الى مارمى اليه جده محمد على من استقلال البلاد . لكنه كان يعلم أن تحقيق ذلك بالسيف غير ميسور ، وانه على كل حال عرضة لأن يصطدم من معارضة أوربا بما اصطدمت به انتصارات مصر أيام جده . وكان يعلم كذلك ما للرشوة من أثر فى وزراء الباب العـالى ، فاذا هو سخا بيده استطاع أن يحصـل على هذا الاستقلال شيئا فشيئا . ثم انه رأى من جهة ثالثة أن لا سبيل للحصول على المال اللازم لهذه الغاية ولسداد أطماعه وشهواته الا أن يظهر أمام أوربا حاكما غربيا يريد الاصلاح بالفعل . فنشر البرنامج

المشار اليه ونشر قائمة بديون سعيد وأبدى من مظاهر العطف الانسانى على رعاياه ما جلب اليه أنظار أوربا . من ذلك أنه لم يوافق على الاستمرار فى تنفيذ اتفاقية قناة السويس التى عقدت فى عهد سلفه سـعيد باشا بينه وبين المسيو فردينان دلسبس لأنه رأى شروطها قاسية بالنسبة لمصر وبالنسبة للعمال المصريين الذين كانوا يرهقون فى حفر القناة أشد ارهاق ، يسامون الخسف ويضربون بالكرابيج ويطعمون الزقوم ويكادون لايقتضون عن عملهم أجرا . ولما استحر الخلاف بين اسماعيل وشركة القنال ارتضى الطرفان تحكيم نابليون الثالث.ولسنا نستطيع أن نفهم هذا التحكيم الا على أنه نوع من الكبرياء والغرور . فنابليون الثالث امبراطور فرنسا ، وشركة القنال على صفتها الدولية كانت ماتزال فى كل مظاهرها شركة فرنسية تعنى امبراطور فرنسا حمايتها . فتحكيمه مع ذلك نوع من الكبرياء والغرور معناه انه لا يجوز لغير رأس من أكبر الرؤوس المتوجة أن تنظر فى خلاف بين اسماعيل والشركة الدولية العالمية . وانتهى التحكيم بالزام مصر بأن تدفع للشركة تعويضا من عدم تنفيذ شروط الاتفاق أربعة وثمانين مليونا من الفرنكات ، أى ثلاثة ملايين وثلاثمائة وستين ألفا من الجنيهات . فاذا أضيفت نفقات الدعوى وما قامت به الحكومة المصرية من أعمال النشر والاذاعة وما كان يتقاضاه القائمون بهذه الأعمال من باهظ النفقات لم يكن غلوا تقدير ما خسرته مصر فى هذه الحركة بأربعة ملايين من الجنيهات .

وبعد زمن وجيز من ولايته الحكم جاء جلالة السلطان عبد العزيز

الى مصر ومعه الصدر الأعظم فؤاد باشا . فكانت هذه أول فرصة، عرضت لاسماعيل كي ينفذ ماجال بخاطره كوسيلة لبلوغ الغاية التى صبا اليها من قبل جده محمد على . ولم يكفه ما أقامه لجلالة السلطان من أعياد فاقت فى الفخامة كل ما يتصوره خيال السلطان الشرقى . بل نفح الصدر الأعظم بمبلغ زهيد مقابل الخدم التى أداها أو يمكن أن يؤديها لبقاء علاقات المودة والصفاء بين والى مصر وجلالة السلطان . هذا المبلغ الزهيد هو ستون ألفا من الجنيهات .

على أن تباشير الخير التى جعلت المصريين يستقبلون ارتقاء اسماعيل الى العرش بالبشر والتهليل لم تدم طويلا . فقد انتهت حرب الانفصال بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها وعادت أسعار القطن فانحدرت من ستة عشر جنيهـا للقنطار الى ثلاثة جنيهات أو ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه . وفتكت بالزراعة المصرية آفات أنقصت من دخل الضريبة العقارية واضطرت الحكومة معها لشراء الماشية والغلال لتموين الأهالى مما خسرت معه مايزيد على مائة وعشرين ألفا من الجنيهات . ثم ان اسماعيل كان مغرما أشد الغرام بتلك الأطيان حتى لقد بلغت مساحة « دوائر » العائلة المالكة فى سنة ١٨٦٥ مايزيد على خمس الأطيان المنزرعة فى مصر الوسطى وفى الوجه البحرى .

ذلك كله مضافا الى حاجات الميزانية العادية وما احتاجت اليه الاصلاحات العامة التى بدأ اسماعيل باشا بالقيام بها تنفيذا لبرنامجه جعل الالتجاء الى الاقتراض أمرا لا مفر منه . وقد بدأ اسماعيل فعلا بالاقتراض منذ ولي الحكم . فلما انقضت على ولايته سنة وبعض السنة كان الالتجاء الى المرابين فى مصر غير كاف لحاجاته ، وكان لابد

من الاقتراض من بيوتات مالية كبيرة فى أوربا . ولم يجد اسماعيل عنتا فى استصدار تصريح بالاقتراض من الآستانة . وبذلك استطاع فى ٨ سبتمبر سنة ١٨٦٤ عقد أول قروضه وقدره ٥,٧٠٤,٠٠٠ جنيه .

كيف صور اسماعيل لنفسه برامج الاصلاحات العامة ، وماهى الطريقة التى أراد أن ينقل بها مصر من بلد شرقى بعيد عن مظاهر الحضارة الأوربية الا القليل الذى جاء مع نابليون والبعثة الفرنسية والذى دخل الى مصر سدا لحاجات محمد على الحربية ؟؟ هى صورة غاية فى البساطة ، يجب أن تقيم مدنا أوربية النظام فى طرقها وفى عمارتها وفى بساتينها فما يلبث المقيمون بها أن يصطبغوا بالحضارة الأوربية . ويجب أن ندخل أحدث المخترعات والنظم كالسكك الحديدية والبريد والتلغراف فما يلبث الناس أن يفهموا هذه الاختراعات والنظم وأن يصيروا كأصحابها . ويجب أن نعلم جماعة من النشء ليكونوا واسطة احتفاظ بمظاهر الحضارة هذه . أما الشعب فلم يكن اسماعيل يأبه له كثيرا لأنه كان كغيره من الحكام الشرقيين الى يومئذ ، وككثير من الحكام الغربيين الى زمن غير بعيد قبله ، يعتبر مصر كما اعتبرها جده من قبل مزرعة له ، مركز الشعب فيها مركز العبد أو الخادم . وقد أراد اسماعيل أن يصل لتحقيق فكرته من الحضارة والاصلاح فى سنوات مما لم تصل أوربا لتحقيقه الا فى قرون . فبدأ تنظيم القاهرة على نظام باريس وغير باريس من مدائن أوربا الكبرى يخطط فيها الشوارع ويقيم القصور وينشىء الدواوين ودور الحكومة

ويغرس البساتين ، وجعل من جانبه يعيش عيشة بذخ لم يتهيأ لخيال شاعر ولا قصاص من قبل . وطبيعى أن اقتضى القيام بذلك كله من النفقات ما تلاشى معه قرض سنة ١٨٦٤ أسرع التلاشى ، وما كثرت معه الديون السائرة التى كان يقترضها من المرابين الأجانب المقيمين بمصر كثرة اضطرته للتفكير من جديد فى الالتجاء الى أوربا كى يعقد قرضا آخر .

ولم يكفه قرض واحد ، بل كان وزيره نوبار باشا يتفاوض له مع كل البيوتات المالية وعقد له فى ثلاث سنوات ثلاثة قروض : قرض سنة ١٨٦٥ وقدره ٣,٣٨٧,٠٠٠ جنيه وقرض سنة ١٨٦٦ قدره ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وقرض سنة ١٨٦٧ وقدره ٢,٠٨٠,٠٠٠ جنيه . لكن هذه الملايين كلها لم تكن شيئا مذكورا الى جانب النفقات الباهظة التى كان يقوم بها اسماعيل باشا .

وماذا تريد من رجل أقل أطماعه أن يصل ليكون ملكا على بلاد مستقلة استقلالا داخليا على الأقل ! وكم كلفه ذلك من باهظ الرشوة يدفعها للكثيرين من رجال الباب العالى بالآستانة ! ولقد كانت أول خطوة خطاها فى هذا السبيل أن حصل فى سنة ١٨٦٦ على فرمان من جلالة السلطان بجعل الوراثة فى أبنائه بدلا من جعلها فى أكبر العائلة كما كانت من قبل . ثم حصل كذلك على ضم سواكن ومصوع لمصر بعد ما سلخا عنها من بعد حكم محمد على .

ثم انه من بعد أن حكم نابليون الثالث امبراطور فرنسا فى الخلاف بينه وبين شركة قناة السويس أصبح صديقا حميا للشركة وأصبح ينتظر اليوم الذى يعلن فيه افتتاح القناة ليدعو العالم كله

كى يشهد هذا التحوير البديع لنظام الطبيعة تحويرا من شأنه أن يغير سير الوجود الاقتصادى والتجارى تغييرا خطيرا . وكانت سنة ١٨٦٩ هى السنة التى حددت لهذا الافتتاح . وكانت قروض السنوات الثلاث السالفة الذكر قد نفدت كلها وتزايد الدين السائر مع ذلك تزايدا جعل اسماعيل يفكر فى الحصول على المال للظهور بالمظهر اللازم فى حفلة الافتتاح تفكيرا جديا استغرق كل مواهبه وكل ذكائه .

وفى هذا السبيل سافر فى سنة ١٨٦٧ الى أوربا وزار باريس ولندره واستضافه نابليون الثالث والملكة فكتوريا . وكان معه فى هذه السياحة وزيره نوبار باشا المطلع على دخائل مفاوضات البيوتات المالية والقدير بدهائه وخبثه على القيام بأعمال فى السياسة جسام . وفى هذه الزيارة بدىء الحديث فى مسألة تعديل نظام الامتيازات الأجنبية . فقد كان الى يومئذ كما كان الى يوم الغائه فى تركيا قائما على القاعدة القانونية التى تقرر أن المدعى يقاضى المدعى عليه أمام قضاته . وكان من أثر ذلك أن شعر الأجانب أنفسهم بالارتباك فى مقاضاة بعضهم بعضا . فاستقر رأى اسماعيل ووزيره على اقامة نظام المحاكم المختلطة القائم اليوم فى مصر ، على أن يشمل اختصاص هذه المحاكم الشؤون الجنائية كذلك . ومنذ هذه الزيارة التى قام بها اسماعيل لأوربا فى سنة ١٨٦٧ فتحت مسألة تعديل النظام القضائى فى شأن الأجانب ، وظلت المفاوضات فيها مستمرة بعد ذلك ثمانى سنوات حتى كللت بالنجاح فى سنة ١٨٧٥ . لكن هذه المسألة لم تكن الجوهرية يومئذ . انما المسألة الجوهرية كانت

الحصول على المال لسداد الديون السائرة فيما أعلنه اسماعيل باشا المفتش وزير مالية اسماعيل ولتحضير حفلة افتتاح القناة فى رأى المستر كيف الذى حقق أسباب ديون اسماعيل فى سـنة ١٨٧٠ كما سنرى ، وقد نجح اسماعيل فى عقد قرض تم توقيعه سنة ١٨٦٨ قيمته الاسمية مبلغ ١١٫٨٩٠٫٠٠٠ جنيه والمتحصل الحقيقى منه مبلغ ٧٫١٩٣٫٣٣٤ جنيه . وقد قبل اسماعيل ضمن شروط هذا القرض أن يمتنع عن الاستدانة لمدة خمس سنوات مقبلة مما يدل على انه كان فى أشد الحاجة الى المال . وكان افتتاح القناة فى ذلك الظرف هو شاغل اسماعيل الأكبر .

فلقد حرص على أن يدعو الى هذه الحفلة كل الرؤوس المتوجة فى أوربا وأكبر عدد من ذوى المقام والمكانة فى العالم . وكان أكبر همه من هذا أن يشهد هؤلاء جميعا كيف نقل مصر من بلاد شرقية أفريقية فجعل منها بلادا غربية متحضرة . وفى الحق انه أعد لهذا المظهر خير عدته . فقد بنى فى القـاهرة قصورا تضارع أفخم قصور المدائن الأوربية العظمى . بنى قصر الجيزة الذى انقلب فى العهد الأخير حديقة للحيوانات ووصـل بينه وبين القاهرة بكوبرى قصر النيل . وبنى قصر الجزيرة الذى آل أخيرا الى الأمراء آل لطف الله . وبنى غير هذين من القصور الشاهقة ومن دواوين الحكومة ما تعتز به مدائن أوربا . ثم أعد مسرح الأوبرا وكلف الموسيقار الايطالى الكبير فردى فوضع أوبرا عائدة لتمثل أثناء حفلات الافتتاح . وأنشأ حديقة الأزبكية فى وسط القاهرة أسوة بالحدائق العامة فى العواصم الكبرى ، وليتيسر للزائرين وبخاصة

الامبراطورة أوجيني زوج نابليون الثالث زيارة آثار الفراعنة اختط طريق الأهرام فى أشهر معدودة . هذا الى ما مد من خطوط السكة الحديدية ، والى ما شيد من مدينة الاسماعيلية على ضفة القناة ، كما أنه كان قد انشأ فى مختلف أنحاء القاهرة كثيرا من المدارس الجديدة ، كما أعاد المدارس التى كانت قد أنشئت فى عهد جده محمد على باشا واضمحلت من بعده . فأنشأ مدارس المبتديان والتجهيزية والمهندسخانة والمساحة والألسن والعمليات والادارة واللسان القديم والتجارة ومدرسة للبنات ومدارس كثيرة أخرى فى القاهرة والاسكندرية والأرياف . وكذلك كان من حقه أن يفخر بهذه المنشآت العظيمة وان يريها لملوك أوربا ليعلموا أنه أكثر حضارة من متبوعه الأعظم سلطان تركيا ، وانه اذا طلب يوما أن يستقل بحكم مصر فطلبه لاشىء من المبالغة فيه .

وسافر من جديد الى أوربا سنة ١٨٦٩ وعاد بعدما دعا كل الرؤوس المتوجة الى حضور الاحتفال بافتتاح القناة . وقد أجاب الدعوة منهم عدد غير قليل . ثم تم افتتاح القناة فى خمسة أيام . ففى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ركب المدعوون بواخرهم وعددها ثمان وستون ترفرف فوقها أعلام مختلفة ويتقدمها (النسر) سفين الامبراطورة أوجينى زوج نابليون الثالث التى جاءت بالنيابة عن زوجها وقطعوا المسافة من بور سعيد الى الاسماعيلية فى ذلك اليوم . وبعد أن أقيمت فى الاسماعيلية أعياد استمرت يومى ١٧و١٨ نوفمبر ركب المدعوون من جديد بواخرهم يوم ١٩ وبلغوا السويس يوم ٢٠ نوفمبر . ولم يكتف اسماعيل بهذا بل طاف بضيوفه العظام

أنحاء مصر يظهرهم على ما جدد فيها من حضارة تضارع حضارة أوربا . وقد كلفته هذه الأعياد الباهرة ، حسب التقـديرات الرسمية ، أربعة ملايين من الجنيهات .

وانتهت الأعياد وأضواؤها الباهرة وابتساماتها الخلابة وأجال اسماعيل بصره يريد متابعة أعماله فاذا خزانة الدولة قفر ، واذا هو فى أشد الحاجة الى المال . ولم يكن يستطيع أن يقترض وهو مقيد فى عقد سنة ١٨٦٨ بأن لا يعقد قرضاً جديدا قبل مضى سنوات خمس . فلجأ الى المرابين من جديد ولجأ الى وسيلة تشبه ما يسميه الفلاحون اليوم : البيع على الوجه . فكان يبيع آلاف الأرادب من الغلال قبل زرعها ويقبض ثمنها ، فاذا جاء موعد التسليم أعطى ما يجبى من الضرائب غلالا ثم اشترى الباقى بأسعار أعلى بكثير من الأسعار التى باع بها . ولجأ الى غير ذلك من الوسائل المخربة حتى اضطر جلالة سلطان تركيا رغم ما أصاب وزراؤه من أموال اسماعيل أن يبعث له يحظر عليه الاقتراض بغير تصريح سابق منه .

لكن ذلك كله لم يوهن من عزيمة اسماعيل الصلب ولم يثن من ارادته : يجب أن يوجد المال للقيام بمشروعاته ولمضاعفة هذا البذخ الذى كان يعيش فيه والذى اضطره لنثر الذهب من الأبواب والنوافذ نثرا . وهل تراه يرضى أن يقول لرجل من أتباعه الذين يتولون تسليته أو لجارية من مئات الجوارى اللاتى كانت تترنم بأصواتهن قصوره : أن سيدكم قدعرف أخيرا كلمة المستحيل . كلا ! ليس هذا من خلق اسماعيل . فليعقد اذن قرضا ترهن أملاكه الخاصة لسداده .

وعقد بالفعل قرضا خاصا فى سنة ١٨٧٠ قيمته الاسمية ٧,١٤٢,٨٦٠ جنيها والمبلغ المتحصل منه بالفعل خمسة ملايين من الجنيهات .

ومن سنة ١٨٧٠ بدأ يرمى بنظره الى التوسع الاستعمارى . ولقد أصاب من ذلك حظا من النجاح غير قليل . ففيما بين هـذه السنة وسنة ١٨٧٥ استصفى لمصر كل الشواطىء الشرقية من السويس الى رأس غردفوى وحاصر بربر وزيلع . وفى سنة ١٨٧٤ ضم دارفور الى مصر واحتل هرر . وقد أدى احتـلال هرر الى حروب مع الحبشة قتل فيها ابنه ، ولم يكن النصر فيها حليف جيوشه . على أن ذلك لم يصدها عن التوغل جنوبا الى حدود الأوغندة . وكان من أكبر رجال اسماعيل المسؤولين فى السودان صمويل بيكر والكولونيل جوردون . ولعل ذلك أول ما دعا انكلترا لتفكر فى هذا القطر النائى ، وكان السبب فى السياسة التى رسمتها لنفسها فيه والتى أدت الى مركز السودان الحاضر .

وكانت هذه الأعمال ، وكان اسراف الحكومة فى مصر ، وكانت نفقات اسماعيل ومن حوله ، تجعل كل مبلغ ضئيلا لا يقوى على سدادها . لكن اسماعيل باشا بدأ يرى هول الديون التى استدانها وبدأ يشعر بأن من الواجب التفكير فى السعى للتخلص منها. ولعله كان مخلصا فى سعيه وان كانت كل الوسائل التى ابتدعت لجلب المال لم تنجح فى أكثر من أن زادت الخديوى مطامع وسرفا . وأول ما أبدع من الوسائل قانون المقابلة . وخلاصته : ان ديون مصر الى يومئذ كانت تبلغ ستة أمثال الضريبة العقارية . فاذا دفع الملاك ضعف الضريبة ست سنوات أمكن سداد الدين . ومقابل هذه

الضريبة المضاعفة يعفى الملاك أبدا من نصف الضريبة التى عليهم . وقد دفع كثير من كبار الملاك والباشوات الضريبة المضاعفة بطلب ولى الأمر . وبدأت الحكومة فعلا توفى الدين السائر . ولكنها لم تمض عليها سنة واحدة حتى كانت قد استدانت من جديد بسندات أصدرتهـا مكفولة بضريبة المقابلة ما قيمته اثنا عشر مليونا من الجنيهات .

ولما كان موعد الخمس السنوات المحددة فى عقد قرض سنة ١٨٦٨ قارب الانتهاء ، رأى اسماعيل أن يستأذن الباب العالى فى قرض جديد يوحد به ديونه . واتفق فعلا مع بيت أوبنهيم الذى أصدر قرض سنة ١٨٦٨ على أن يصدر قرضا جديدا قيمته اثنان وثلاثون مليونا من الجنيهات لهذا التوحيد . على أن كل ماحصلته الحكومة المصرية من هذا المبلغ كان ٢٠,٨٤٠,٠٧٧ جنيها . وكان الدين السائر وحده قد بلغ يومئذ ثمانية وعشرين مليونا .

ثم ان الخديو كان قد اضطر الى انفاق مبلغ ضخم فى الآستانة للحصول على فرمان سنة ١٨٧٣ الذى وطد الوراثة فى بكر الأبناء على نحو ماصدر به فرمان سنة ١٨٦٦ والذى أتم لمصر استقلالها الداخلى حتى لم يبق لتركيا الا أن تسك العملة باسم سلطانها وتتقاضى الجزية آخر كل سنة . وزاد هذا المبلغ فى مقدار الديون السائرة زيادة جعلتها تجاوز مقدار القرض الجديد بما يوازى نصفه . لذلك لم يفلح القرض فى سداد الدين السائر . واستمر اسماعيل على طريقته يصدر سندات جديدة أسماها فى هذه المرة سندات الرزنامة . وقد حصلت الحكومة من هذه السندات ٣,٣٣٧,٢١٠ جنيه فلم تكف

هى الأخرى مضافة الى الدين الجديد لسداد الديون السائرة ولم يبق أمام اسماعيل الا بيع أسهم الحكومة فى قناة السويس . ولقد عرضها للبيع فى السوق العالمى . لكن انكلترا جعلت المسألة ماسة بسياستها ووقفت فى وجه فرنسا واشترت الأسهم من اسماعيل بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات وتمت الصفقة فى سنة ١٨٧٥ .

وفى هذا العام الذى أطل فيه الخراب محدقا بعينيه البشعتين فى وجه اسماعيل تم تنظيم المحاكم المختلطة بعد معارضة غير قليلة من جانب فرنسا ، وافتتحها اسماعيـل وهو ما يزال يأمل فى أن أعمال الحضارة التى قام ويقوم بها فى مصر تسمح له أبدا بأن يجـد من الدائنين من يثق به ، ناسيا أنه كان قد رهن كل ايرادات الدولة وكل أملاكه الخاصة وأن الثقة به تزعزعت فى كل مكان . لذلك ما بزغت شمس سنة ١٨٧٦ حتى كان وقت الحساب قد آن ، وحتى أطفئت أنوار هذه الأعياد الدائمة وهذا النشاط العجيب الذى نشره اسماعيل لا فى مصر وحـدها بل فى أرجاء كثيرة قريبة من مصر ونائيـة عنها — فى السودان وفى تركيا وفى فرنسا وفى انكلترا وفى كل بلد حلت به رحاله أو كان له دائنون فيه .

سنة ١٧٨٦ ! نعم هى السنة العصيبة فى حياة اسماعيل لأنها السنة التى بدأ فيها الصراع العنيف بينه وبين أوربا مجتمعة . والعجيب أنه واصل هذا الصراع وما يزال واثقا من نفسه ومن حيلته . لذلك كان اذا اضطر الى الاذعان يوما لم يكن ذلك منه حرصا على الوفاء ولكن انتظارا لفرصة النكث والأخذ بالثأر . لكن خصومه كانوا أقوى منه أضـعافا برغم أنه كان فى داره . وعلى الرغم من كل

الوسائل التى لجأ اليها فقد انتهى آخر الأمر فاسلم نفسه للمقادير التى قضت بخلعه وابعاده عن بلاده بقية حياته .

ومن عجيب سخر القدر من الناس أن اسماعيل هو الذى ألقى لأوربا بأول فكرة للتدخل فى شئونه وشئون مصر تدخلا ينتهى فى أمره هو الى الخلع ، وفى أمر مصر الى الخضوع لنير أوربا أولا وانكلترا أخيرا . ذلك بأنه لما ثقل حمله وأيقن أن لا وسيلة الى الاقتراض من جديد الا أن تثق به أوربا أجال نظره صوب صديقته الصدوق فرنسا فألفاها ما تزال مهيضة الجناح من أثر هزيمتها سنة ١٨٧٠ . عند ذلك فكر فى مصادقة انكلترا وانتهز فرصة مرور ولى عهدها بمصر فطلب اليه أن يعين انكليزى مستشارا للمالية المصرية. وكان جواب ولى العهد أن ذلك من شأن القنصل الانكليزى . فبعث القنصل بخطاب الى حكومته كطلب اسماعيل . وأهملت انكلترا الخطاب حتى اشترت أسهم القناة . يومئذ ذكرت الخطاب من جديد فأرسلت الى مصر ببعثة لفحص شئونها المالية وعلى رأسها المستر ستيفن كيف .

ولم يترك اسماعيل باشا وسيلة لاسترضاء المستر كيف ولجنته الا بذلها . وقدمت اللجنة تقريرها الى الحكومة الانجليزية فامتنعت عن نشره بحجة أن النشر يزيد مركز الخديوى حرجا . ولقد نشر التقرير من بعد فتبين أنه لا يزيد المركز سوءا وأنه على العكس من ذلك يبين للناس أن ما اقترضته مصر انما أنفق أكثره فى أعمال مثمرة ان لم تظهر نتائجها بعد فهى على كل حال ضمان يمكن أن يعتمد الدائنون عليه . على أن التقرير استظهر دقة حال مصر وأشار بأن

لابد من توحيد ديونها على قاعدة جعل الفائدة لها جميعا ٧ فى المائة . ولم يعجب اسماعيل هذا الرأى وأراد المقاومة بتأجيل الدفع ولو كان من نتيجة ذلك اشهار افلاسه أسوة بمتبوعه الأعظم سلطان تركيا . لكن سرعان ما أدرك خطر ماندفع اليه فتلافاه بأن أصدر قانونا فى ٢ و ٧ مايو سنة ١٨٧٦ بتوحيد الدين وبانشاء صندوق خاص بعملياته . وصندوق الدين تعين الحكومة المصرية أعضاءه من الأجانب بالاتفاق مع دولهم . وهذه أول خطوة من خطى التسليم والخضوع لأوربا ولتدخلها فى شئون مصر الداخلية .

على أن الدائنين لم يرتضوا القواعد التى بنى عليها توحيد الديون فضجوا بالشكوى وطلبوا تعيين لجنة جديدة لفحص حالة مصر المالية . فذهب المستر جوشن والمستر جوبير مندوبين عن الدائنين لاجراء هذا الفحص . وكان من أثر فحصهم أن صدر دكريتو ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ يفرق بين ديون الحكومة المصرية وديون اسماعيل الخاصة ويزيد فى اختصاص صندوق الدين وينشىء منصبى المراقبين العامين أحدهما انكليزى والآخر فرنسى يراقب أحدهما كل ايرادات الدولة ويراقب الآخر كل مصروفاتها ، وينشىء كذلك ادارة للسكة الحديدية مكونة من انكليزيين ومصريين وفرنسى واحد ، على أن يكون الرئيس انكليزيا . وبهذا الدكريتو أصبحت الحكومة المصرية فى يد صندوق الدين والمراقبين الأجانب وأصبح اسماعيل صورة لا يطلب منها الا أن تكف عن الأذى . وبدأت هذه النظم الجديدة بالعمل وبدأ اسماعيل يشعر بتلاشيه وانحدار سلطانه المطلق الى هاوية الفناء .

أين كان الشعب المصرى فى أثناء ذلك كله ؟ لم يكن فى نظر اسماعيل شيئا الا أنه العبد المطيع الذى يفعل ما يؤمر به والبقرة الحلوب التى تدر الضرائب لاقامة الميزانية . ولم تكن للحكومة ميزانية معروفة وانما كانت ميزانيتها ماتتطلبه شهوات عاهلها الذكى القاسى . ولتحصيل هذه الميزانية غير المحدودة كان يكفى أن يقول اسماعيل : « أريد » لتتحرك كل الحكومة كى تنفذ ارادته . والناس على دين ملوكهم . فكان كل موظف فى الحكومة كاسماعيل شهوة وقسوة . وكان ما يطلبه اسماعيل يجبى من الناس أضعافا مضاعفة سدا لشهواته وشهوات هؤلاء الجباة الجناة . والناس يجب أن يدفعوا أو يكوى الكرباج والسوط جلودهم ويدمغ جباههم . ويجب أن يدفعوا أو يلقى بهم فى غيابات السجن يذوقون فيها أشـد العذاب ، ولم لا ؟ أليس عزيز مصر وولى أمرها يريد . (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) . فمن عصى فعليه اللعنة وله العذاب . وأى عذاب وأية لعنة ! كان رجال الحكم يومئذ من غير المصريين الا قليلا . فلم تكن بينهم وبين مصر وشيجة رحم أو عاطفة مودة أو قربى تحرك فى نفوسهم بازاء المصريين المساكين معنى من الرحمـة أو الانسانية ، بل كانوا من الأكراد والجركس والأرمن والألبانيين . وكانوا قساة القلوب غـلاظ الأكباد على عقولهم أقفالها ، لا يعصون اسماعيل ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون .

لذلك كان طبيعيا أن لا يتحرك الشعب لتدخل الأجنبى فى شئونه . ولماذا يتحرك ؟ أليس حكامها هؤلاء أجانب عنـه كالذين تدخلوا فى شأن الحـكم سواء بسواء ؟ واختلاف العقيدة لا يكفى ليقوم

شعب هذه الظلم وأضعف نفسه لينصر ظالمه على مخالفه فى العقيدة ، وبخاصة اذا انتظر من هذا المخالف رفع الحيف ووقف الظلم والأذى .

وبدأ اسماعيل يشعر بهذا ويحسه فى أعماق نفسه . جلس حسيرا فى قصره مغلولة يده يشهد بعينى رأسه ماجر اليه بذخه واسرافه من خراب وسمح لأذنه أن تسمع لأول مرة مايضج به الناس من ألم وشكوى . وماذا يعنى الناس من قصور تشاد وحدائق تغرس وجسور تمد فوق النهر وألحان تعزفها الحسان اذا كان ذلك كله يشاد من دمائهم ويمد على أكتافهم ؟ وزاد اسماعيل شعورا بالكارثة ان استنفدت أقساط الدين كل الضرائب التى جمعت على النحو الذى كانت تجمع به من قبل من وسائل الارهاق ، ولم يبق منها شىء يدفع للموظفين ولا الجيش .

ورأى الدائنون بأعينهم هذه الحال البشعة فاتفق الرأى على تعيين لجنة جديدة لفحص جديد . وفى سنة ١٨٧٨ تعينت لجنة الفحص العليا أنشأها دكريتو ٢٧ ينساير من تلك السنة . وفى ٣٠ مارس صدر دكريتو آخر يجعل للجنة أوسع السلطة . وتشكلت من مسيو دلسبس رئيسا ومن مستر ريفرس ولسن نائب رئيس . ومن أعضاء صندوق الدين الأربعة . وبدأت اللجنة فحصها تحركها فكرة أساسية هى وضع قرار اتهام اسماعيل . وبعد انتهائها من الفحص قدمت تقريرا مبدئيا كانت الفكرة السائدة فيه وجوب تحديد سلطة الخديو واعتباره مسؤولا عن حرج مركز مصر ، واقترحت لذلك اجراء اصلاحات فى التشريع المالى بالنسبة

للضرائب وأن تخصص ايرادات أملاك الخديو كلها ومساحتها ٩١٧,٠٠٠ فدان لسداد ما يكون من عجز فى الميزانية .

تردد اسماعيل بادىء الرأى فى قبول هذه المطالبة ، لكنه رأى تردده لا يفيد شيئا بعد أن أصبح الأمر كله للمراقبين ولصندوق الدين ، وانه اذا قبل ما اقترح عليه فقد يفتح ذلك أمامه بابا جديدا للاقتراض من جهة ، ويترك له الوقت من الجهة الأخرى فى تدبير وسيلة للخلاص من هذه المراقبة التى غلت يده . وتحت ضغط نوبار باشا أعلن الى المستر ريفرس ولسن فى يوم ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ قبوله اقتراحات اللجنة . وفى ٢٨ أغسطس أصدر الأمر العالى المشهور بانشاء وزارة (يحكم هومعها وبوساطتها وتكون متضامنة فى مسؤوليتها) وشكل نوبار باشا هذه الوزارة واستعان فيها بالمستر ريفرس ولسن .

ومنذ طلب نوبار باشا الى المستر ريفرس ولسن معاونته فى الوزارة قام الأخير بالمفاوضة لعقد قرض جديد تسد منه الديون السائرة ويسد عجز الميزانية . وقبل أن يوقع عقد القرض أصدر اسماعيل دكريتو ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٧٨ تنزل أعضاء العائلة الخديوية للحكومة بموجبه عن أملاكهم العقارية وقدرها ٤٢٥,٧٢٩ فدانا خلا العقارات ، واعتبرت هذه الأملاك ضامنة للقرض الجديد الذى دعى باسم قرض الدومين أو قرض روتشيلد .

وفى شهر أكتوبر أصبح المستر ولسن وزيرا للمالية والمسيو دبلنيير وزيرا للأشغال العمومية وألغيت بذلك المراقبة الثنائية على ايرادات الدولة ومصروفاتها على أن تعود اذا عزل هذان الوزيران

الأوربيان من منصبيها من غير موافقة انكلترا وفرنسا . وجعلت هذه الوزارة المختاطة جل همها أن توفى الديون وأن تتلافى عجز الميزانيـة . والواقع أن الديون السائرة بلغت مبلغا ضاق دونه القرض الجديد على الرغم من أنه بلغ ثمانية ملايين . وكذلك وقفت الوزارة المختلطة بعـد ثلاث سنوات من المراقبة المالية موقف الحكومات التى سبقتها وعجزت أن تواجه حرج المركز بخير مما واجهته غيرها من قبل ولجأت الى الضغط والاضطهاد اللذين لجأت اليهما أشد الحـكومات عسفا واستبدادا . وزاد الموقف حرجا أن رأى وزير المالية الانكليزى الاستغناء عن ألفين وخمسمائة ضابط من غير أن يدفع لهم متأخرات رواتبهم لأكثر من سنة كاملة . هنالك هاجوا وقاموا ، ومن بينهم أحمد عرابى ، فى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ بمظاهرة خطيرة وأحاطوا بنوبار وولسن وأهانوهما وأوسعوهما ضربا . ولما نمى الخبر الى اسماعيل جاء بنفسه . فلما رآه الضباط وأمرهم بالانصراف لم يعص أمره منهم أحد مما دل على أن له فى تدبير هذه الفتنة يدا . وقد ثبت بعد ذلك أنه كان المدبر لها بالفعل بأن أوعز الى أكثر الضباط اقداما وجرأة بالقيام بها .

وكان من الضباط الذين قاموا بهذه المظاهرة ومن الذين استغنى عنهم ريفرس ولسون عدد غير قليل من المصريين الصميمين . ولعل ذلك هو الذى أدى الى استمرار الحركة فى المستقبل والذى كان نواة الثورة العرابيـة . فان الموظفين والضباط من الشركس والأتراك والأرمن وغيرهم — ممن كان بيدهم الأمر فكانوا يسومون المصريين الخسف وسوء العذاب — شعروا بفشلهم وبعجزهم

اذا بقيت الخصومة بينهم وبين المصريين قائمة . ثم ان ريفرس ولسن تقدم بسبب آخر أدى الى تحرك العناصر القومية الصميمة فى البلاد . فقد طلب الى الحكومة أن تعلن أن مصر مفلسة كى تعامل معاملة المفلس فى شأن ديونها . هنالك اجتمع نواب البلاد وأعيانها وكبراؤها وموظفوها الدينيون والمدنيون والحربيون وقدموا للخديو برنامجا ماليا يخالف برنامج ولسن محتجين على القول بافلاس مصر . ولم تكن يد اسماعيل بعيدة عن وضع هذا البرنامج . ثم لم يكتف النواب ببرنامجهم الذى تقدموا به ، بل تقدموا كذلك بعرض للخديو يبينون فيه استياءهم من الوزارة لعدم اكتراثها بآرائهم . وانضم الخديو لهذه الحركة وعضدها ، لأنه رأى فيها الوسيلة الوحيدة لعود بعض سلطته اليه بعد أن تقلص ظلها وانتقلت الى أيدى الأجانب . وبلغ من تعضيده اياها أن رفض النواب الارفضاض لما جاء رياض باشا وزير الداخلية يعلن اليهم انتهاء الدورة . وكذلك أصبح هذا المجلس الذى خلقه اسماعيل فى سنة ١٨٨٦ على صورة يوهم بها الدول الأوربية أن مصر أصبحت بالفعل جزءا من أوربا وقد شعر بوجوده وقدر مكانته . فقد احتج فى ٢٩ مارس سنة ١٨٧٥ على الوزارة المختلطة لأنها لم تكن تعترف بوجوده وبمسئوليتها أمامه . وفى ٥ ابريل طلب الى الخديو تعديل قانون الانتخاب واعلان مسئولية الحكومة أمام مجلس النواب . ولم يقف عند ذلك بل احتج على بقاء الوزارة المختلطة وبالتالى على وجود ولسن ودبلنيير فيها . ولم يلبث اسماعيل أن أبلغ هذا الاحتجاج حتى عزل الوزارة وعهد الى شريف باشا بتأليف

الوزارة الجديدة . وفى الشهور الثلاثة التى انقضت بين توليها وخلع اسماعيل بدأت بوضع قانون للانتخاب ، كما نشرت فى ٤ يونية لائحة مجلس شـورى النواب الأساسـية وفيها تقرر الحصانة البرلمانية وتحدد عدد النواب وتنص على المسئولية الوزارية . ومع أن هذه الوزارة كانت جادة فى عملها ومع أنها سبقت هذا التشريع النيابى بتشريع مالى صدر به دكريتو بتاريخ ٢٢ ابريل سنة ١٨٧٩ يكفل للأجانب حقوقهم ويقر المراقبة الثنائية وصندوق الدين فى اختصاصها الواسع فان أوربا بدأت تشعر بأن مصر على وشك انتقال خطير ليس من العسير تقدير مـدى نتائجه ، وأن خـيرا للمصالح الأوربية الوقوف فى سبيله . فبدأت ألمـانيا والنمسا بالاحتجاج فى ١٨ مايو على دكريتو ٢٢ ابريل بدعوى أنه مخالف لتعهدات مصر الدولية وألقتا مسئولية هذه المخالفة على الخديو . وفى ٨ يونية احتذت وزارتا باريس ولندرة مثال ألمانيا والنمسا . وقد حاول اسماعيل القضاء على هذه الحركة الدولية فطلب موافقة الدول على الدكريتو ، لكن حركته هذه لم تنجح .

وكانت الدول قد سئمت هذا الصراع الطويل مع اسماعيل . ولعلها كذلك خشيت بعد انضمامه للأمة واظهاره العطف كل العطف على مطالبها ، أن تقوى الحركة القومية المصرية وأن يصبح اسماعيل مثلما كان جده محمد على مكانة وقوة سلطان . لذلك رأت أفضـل السياسات أن ينزل عن العرش . لكن اسماعيل لم ينظر الى المسألة هذه النظرة وأراد أن يلجأ الى جلالة سلطان تركيا آملا أن يكون لما قدمه له من طائل الأموال وعظيم التضحيات بعض الأثر . وهنا

خاب فأله . فقد بعث الباب العالى فى ٢٦ يونيو تلغرافا بعزل اسماعيل عن العرش وبرفع ولده توفيق مكانه . وعلى أثر ذلك أقلع اسماعيل من الاسكندرية قاصدا ايطاليا وقلبه خافق وعيونه هامية بالدمع . وأقام فى ايطاليا زمنا ثم انتقل الى الاستانة اذ أقام بها فى قصر « أمر جيان » على شواطىء البوسفور حتى جاء أجله فى ٢ مارس سنة ١٨٩٥ .

* * *

وكم دار بخاطره فى هذه السنوات الأربع عشرة التى انقضت بين عزله وأجله أن يعود الى نضال يسترد به عرشه . وكان أول ما صنع من ذلك أن بعث الى السلطان بالآستانة على أثر وصوله الى نابولى رسالة حارة يذكر له فيها ما أجرى من عظيم الاصلاح فى وادى النيل وما قام به من فتح السودان الى خط الاستواء حيث خفقت الراية العثمانية من تلك الانحاء فى ربوع لم تخفق من قبل قط عليها . لكن السلطان لم يعبأ بخطابه ولا أجابه عنه . بل نسى كل ماضى اسماعيل وما أغدقه على الآستانة ورجالها من مال وأنعم . وما باله يعبأ به وقد أصبح لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا يملك لمتبوعه العظيم رشوة ولا هدية . وأصحاب العروش لا يعنون الا بصاحب القوة ما داموا يهابون قوته ويطمعون فى خيره ومعونته . ونال ذلك من نفس اسماعيل ولكنه حملها على الصبر حتى كانت الثورة العرابية فى مصر . هنالك حز الألم فى نفسه واذكر أنه لم يفكر فى مقاومة كالتى قاومها اليوم هؤلاء المصريون الأبطال . ولو أنه قاوم فربما كان له من الأقدار عون يستبقى نجمه عاليا .

أما ولم يفعل فليس له أن يرجو من الأقدار مددا وهى لاتمد الضعيف أو الخائف وانما تحارب فى صف الشجاع المقدام .

ومنذ دخل الانكليز مصر محتلين خيم اليأس على كل آماله فى استعادة ملكه . فظل فى ايطاليا حتى انتقل الى الآستانة ليلقى فيها منيته وليكون فيها أسير عطف الأتراك الذين طالما تمتعوا بما أغدقه عليهم من مدد ومال أيام ولايته .

الخديوى توفيق باشا

ثلاثة عشر عاما تولى فيها توفيق أمر مصر كان خلالها فى زهرة شبابه بين السابعة والعشرين والأربعين . لكنه كان فيها كذلك بين عوامل لا يستطيع مدافعتها والتغلب عليها الا نابغة محنك . كان فيها بين تركيا الناقمة لضعف سلطانها فى مصر . وانكلترا الطامحة الى بسط نفوذها نهائيا على وادى النيل ، وفرنسا المكتئبة لتقلص مكانتها رويدا رويدا من أرض الفراعنة ، والأمة المصرية المثقلة بديون اسماعيل باشا وظلم حكامها والمتأججة نفوس أهلها بالثورة طمعا فى الاستقلال والدستور . وهو بين هذه العوامل رجل يشعر بضعة أمومته ويحقد أهله عليه ، ويود لو أنه كان فى مكانة أبيه بطشا وسلطانا ، ويخضع للأقدار التى لم تهبه من سعة الذكاء ماوهبت غيره ،ولتربيته الشرقية البحتة التى اقتضت أن لايغادر مصر وأن لايتصل بالمدنية الأوربية اتصال اخوته ، وللظروف التى جعلت تتقاذفه منذ ارتقى عرش أبيه فتصدمه بكل واحد من العوامل المحيطة به ، لينتهى به الأمر الى أن يكون فى تاريخ مصر صورة غير محبوبة ، ولا ممقوتة ، صورة مرت فى هذا التاريخ فكان أثرها فيه سلبيا ، هو أثر العاجز عن أن يقوم لبلاده أو لنفسه بخير . وليودع العالم فى الأربعين من عمره فيلقى بمصائر مصر بين يدى ولى عهده الفتى عباس وما يزال فى الثامنة عشرة من عمره .

* * *

ولد توفيق باشا فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٥٢ ثمرة لبرهة هوى من اسماعيل مع احدى جواريه التى لم تنل منه الا حظوة قصيرة ولم تكن له زوجا . ولم يكن اسماعيل يومئذ وارثا لعرش سعيد أن كان أحمد أكبر الأسرة ما يزال حيا . لذلك لم يلفت مولد توفيق نظر أحد الا ما كان من زراية أميرات العائلة المالكة لأمه . فلما حصل اسماعيل على فرمان وراثة العرش للولد الأكبر انقلبت الزراية للأم حقدا على الابن . وشارك اسماعيل أهله فى عدم عطفهم على توفيق وان لم يبلغ ذلك من نفسه مبلغ حقده على حليم باشا وارث عرشه على النظام القديم . وثبت عدم عطفه على توفيق وعدم رعايته اياه فى عزمه على أن يكون عرشه لحسين من بعده . وقد كان يستطيع ذلك اعتمادا على أمومة توفيق أو بالتخلص منه كما كان يفعل ملوك ذلك العصر فى تركيا ، لكنه لم يكن يتعجل النظر فى أمر لم يكن فى حسبانه وقوعه قبل زمان طويل . وكفاه وجود توفيق بمعزل عنه فى قصر له مقتصرا على ادارة أراضيه .

على أن عزلة توفيق وعدم اغداق أبيه أسباب الرضا عليه جعله ينظر الى ما صنع أبوه من استدانة ومن ارهاق للمزارعين والفلاحين ومن بطش بالناس جميعا نظرة مصرى لا نظرة ولى عهد . لذلك اتصل بطائفة من الناقمين على الحال التى آلت مصر اليها ، أمثال السيد جمال الدين الافغانى واللقانى والشيخ محمد عبده ومن كان يلوذ بهم من أمثال عرابى، وانخرط فى سلك الماسونية الذى انخرطوا فيه . فلما اضطر اسماعيل تحت ضغط الدائنين الى أن يعين نوبار باشا رئيسا للوزارة المسئولة الأولى وأن يضم اليه مستر ريفرس

ولسن ومسيو دبلنيير ، الأول وزيرا للمالية والثانى وزيرا للأشغال، ثم لما رأى أن الحال المالية فى البلاد تزداد كل يوم سوءا برغم ما تنزل عنه من سلطته ومن أملاكه ، ورأى الشعور العام ضـــد التدخل الأجنبى يزداد فى البلاد كلها ، خلع نوبار من الوزارة واتفق مع فرنسا وانجلترا على تعيين ولى عهده توفيق باشا رئيسا للحكومة . على أن ولى العهــد كان يعلم دقة الموقف كما يعلم بنوع خاص تهيج الشعور العام بازاء ما كان يعتزمه السير ريفرس ولسن كعضو فى لجنة التحقيق الدولية من اعلان افلاس مصر . لذلك لم يجد الوزيران الاوربيان من رئيس الوزارة الجديدة مؤيدا قويا لهما . وعلى أثر اعلان وزير المالية تأجيل دفع الفوائد المستحقة للدائنين فى شهر ابريل تقدمت عريضة من العلماء والوجهاء والنواب ورجال الجيش يحتج فيها مقدموها على هذا التصرف ويطلبون الى الخديو أن يلجأ الى نوابه للخروج من المأزق ، وعلى ذلك استقالت وزارة توفيق من غير أن تفعل شيئا . وكلف اسماعيل شريف باشا بتأليف وزارة تكون مسئولة حقيقة أمام برلمان تنظم حقوقه وطرق الانتخاب له بحيث يســتطيع أن يقــوم بما تقتضيه الاحــوال وأن يحقق الأمانى القومية .

وكان ذلك هو الانقلاب الحكومى الذى أريد به القضاء على سلطة المراقبين وعلى تدخل الاجانب فى الادارة المصرية ، والذى انتهى بتركيا الى عزل اسماعيل باشا فى ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ والى ارسال برقية فى اليوم نفسه الى توفيق باشا تعلن فيها اسناد منصب الخديوية المصرية الى جنابه ويختتمها وزير تركيا بقوله « والأمر والفرمان فى كل حال لمن له الأمر أفندم » .

كانت هذه الضربة الحاسمة غير المنتظرة من جانب تركيا منبهة لكل من يعنيهم أمر مصر وكل من لهم مصالح فيها لكى يقفوا على حذر • ومع أن توفيق باشا فوجىء بالخبر وفزع له حتى لقد قابل موظف قصره الذى أبلغه اليه أسوأ مقابلة بأن صفعه ، فانه شعر من ذلك الحين بأن التركة التى آلت اليه أعباؤها تركة مبهظة مخوفة • ترى ماذا عساه يصنع بازاء أبيه ، وبازاء تركيا ، وبازاء الدول وتدخلها فى شؤون مصر ، وبازاء الامة المصرية المتوثبة للحركة بل للثورة ؟ •

أما اسماعيل فأيقن أن لا مفر له من الانحناء لعاصفة لم يكن يستطيع مواجهتها وان لم ينقطع رجاؤه فى العود يوما ما الى هذا العرش الذى انتزع منه اغتصابا • لذلك قابل الصدمة بكل ما يستطيع رجل فى عظمته وفى قوته أن يواجهها به ، وأظهر من العطف على ولى عهده ما لم يكن له من قبل به عهد • وفى الأيام التى انقضت ما بين تبوؤ توفيق عرش أبيه وسفر اسماعيل من بلاد عزيزة عليه كانت عواطف الابوة والبنوة بينهما كخير ما يمكن أن تكون فى مثل هذا الظرف العصيب •

اطمأن توفيق اذن من هذه الناحية • ولقد أظهر من عواطف البنوة ما دفعه للتنزل عن عشرين ألف جنيه من مرتباته السنوية لأبيه كى تبلغ مرتباته خمسين ألف جنيه • ولمناسبة رفع مرتبات البيت الخديو اليه أراد فى نفس الوقت أن يظهر للأمة حرصه على مصلحتها ومشاركتها اياها فى متاعبها المالية فأمر بالغاء الراتب المعين لوالدته وحرمه وقدرهما خمسة وخمسون ألف جنيه •

بعد ارتقاء توفيق العرش جعلت تركيا تفكر فى الاستفادة

من الانقلاب بأن تسترد ما كسبته مصر بفرمان سنة ١٨٧٣ الذى جعلها مستقلة استقلالا داخليا تاما فيما عدا سك العملة ودفع الجزية ، وقد أثار هذا الخبر فى مصر قلقا غير قليل ، على أن فرنسا وانجلترا عارضتا الباب العالى فيما أظهره من عزمه وأنبأتا ممثليهما فى مصر بأنهما معترضتان فيما اذا لم يقرر السلطان أحكام فرمان سنة ١٨٧٣ فى الفرمان الذى يوجهه الى الخديو توفيق أن تطلبا الاستقلال التام لمصر ، وقد اختلف فى الأسباب التى دعت تركيا الى هذا التصرف : أهى كانت تريد بالفعل الغاء الحقوق والامتيازات التى حصلت عليها مصر أثناء ولاية اسماعيل باشا ؟ أم هى كانت تتذرع بالمطل والتسويف للحصول على مبلغ من المال بدليل أنها قطعت فى ذلك الوقت حوالة على مصر أبت الحكومة المصرية قبولها بسبب ارتباكها المالى ؟ على أن هذا التسويف طوع لفرنسا ولانكلترا أن تتدخلا وأن تطالبا الباب العالى بابلاغهما فرمان تولية الخديو كوثيقة دولية وأن تثبتا بذلك حقوقهما فى التدخل فى شؤون مصر للمحافظة على حقوقها بازاء تركيا استنادا على ما كان من تدخلهما للمحافظة على مصالح رعاياهما الدائنين للحكومة المصرية ، وكان من أثر ذلك أن شعر توفيق بما للدولتين من فضل عليه بسبب محافظتهما على حقوقه وحقوق البلاد التى ولى عرشها ،

ولم يصل الفرمان بتولية الخديو الجديد الا بعد شهرين من ارتقائه عرش أبيه ، أى فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ ،

خلال هذين الشهرين كانت خطة توفيق غامضة ما تزال ، فهو حين ارتقى العرش كان فى زمرة الماسون الذين يناصرون الحرية والعدالة ، لذلك وجه خطابه الى شريف باشا لتشكيل الوزارة

الأولى فى عهـده مقدرا للأمـة معتمدا عليها ذاكرا « انى عظيم الميل لبلادى شديد الرغبة فى تحقيق آمال الأمة التى أظهرت السرور بولايتى عازم عزما أكيدا على التماس أحسن الوسـائل لازالة الاختلال المفسد لكثير من المصالح ... الا أن ادراكى لهذه الغاية التى هى موضوع آمالى يتوقف على مساعدة الأمة بجملتها » . وتحقيقا لهذه السياسة تألفت لجان من الاوربيين غايتها تقـديم العرائض الى قناصلهم يلتمسون بها من دولهم منع تدخل الاجانب فى أحوال مصر وقصر النظر فيها على الوطنيين . ثم آن توفيق باشا تحدث فى ذلك الظرف الى مكاتب التيمس فأشار باديء ذى بدء الى أنه لا يبرح مقيد اليد فى العمل حتى يرد الفرمان بتعيينه . لكنه مع ذلك صرح للمكاتب بأنه لا يريد الرجوع الى تعيين وزراء أوربيين بل ينبغى أن تكون الوزارة مصرية وطنية يصـح أن يعاونها رجال من الاوربيين فى الادارات على أن يكونوا موظفين مصريين لا أكثر . أما سير ريفرس ولسن ومسيو دبلنيير شخصيا فقد صرح توفيق بأنه يعارض أشد المعارضة فى رجوعهما أيا كانت صفتهما ، لأن رجوعهما يكون مخالفا لمصلحة مصر على خـط مستقيم . وطلب الخديو الى الدول فى حديثه هذا أن تمهله بضعة أعوام « فنحن فى مقام الامتحان فلا يحسن بأوربا أن تمسك علىّ وعلى مصر طريق النجاح » .

وكان من أثر هذه الخطة وتلك التصريحات أن هدأت أعصاب المصريين التى كانت متوترة فى الأيام الأخيرة من عهد اسماعيل . فعلى الرغم من عزل الحكومة عشرة آلاف من الجنـد المجتمعين تحت السـلاح وانقاص الجيش العامل الى اثنى عشر ألفا وتأخير

صرف مرتبات الكثيرين ، أمسك الرجاء بالنـاس عن أن يلجأوا للهياج . لكن نيات توفيق باشا الديمقراطية لم تلبث الى أكثر من وصول الفرمان بتثبيته على عرشه . ففى مساء اليوم الذى عاد فيه مندوب السلطان الذى كان يحمل هذا الفرمان قافلا الى تركيا بعد حفـلة تلاوته أقيلت وزارة شريف باشا وألف توفيق باشا وزارة تحت رياسته مباشرة . والحجة التى روجت تسويغا لهذا التصرف انما هى ارادة الخديو تعجيل الاصـلاح . أما الحقيقة فعدم رضا توفيق عن ميول شريف باشا الدستورية . ففى الخطاب الذى أرسل به الخديو الى كل من وزرائه الجدد معنى قصده العودة الى حكومة الفرد . فيه تكليف لكل من النظار أن يحضر أوراق شؤون وزارته ومعلوماتها عند حضوره الى المجلس لعرضها . على أن توفيق كان يشعر بأن الأمة لا يمكن أن ترضى عن هذه الحال . لذلك بعث بتلغراف الى رياض باشا الذى كان متغيبا هو ونوبار باشا، أوقل منفيين فى أوربا ، يستقدمه اليه لعلمه بعدم ميل هذا الوزير الى حياة الشورى . فلما حضر فى أوائل سبتمبر عهد اليه بتشكيل الوزارة وقطـع على نفسه العهـد باحترام ارادة ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٩ التى قررت مبدأ مسئولية الوزارة وتضامنها . وبعد ثلاثة أشهر من استقرار هذه الوزارة فى مناصبها زار توفيق ، جريا على سنة أسلافه ، أنحاء ملكه فى الوجهين القبلى والبحرى وقضى فيهما أشهرا وعاد منهما فى أوائل مايو سنة ١٨٨٠ .

وكان الهدوء شاملا أنحاء مصر فى هـذه الفترة . لكنه كان هدوء تربص وانتظار . ذلك بأن المسألة الشائكة التى انتهت بعزل اسماعيل كانت تحت البحث منذ أول ولاية توفيق وكانت لاتؤذن

بخير كثير . فعلى الرغم مما أعلنه الخديو لكاتب التيمس من المعارضة فى دعوة ولسن ودبلنيير بعد فشل سياستهما المالية فى مصر لم تر الحكومة الفرنسية بعد اتفاقها مع حكومة مصر على اعادة المراقبين أن يعين أحد غير مسيو دبلنيير . أما الحكومة البريطانية فأشارت بتعيين السير بارنج (لورد كرومر) . وتم تعيين المراقبين فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٩ وباشرا عمليهما وانتهيا بتقديم تقرير الى الخديو فى أواخر عام تعيينهما يقترحان فيه تعيين لجنة تصفية للدين المصرى كله . وبعد محادثات بين الدول صاحبات الشأن تعينت اللجنة فى ٣١ مارس برياسة السير ريفرس ولسن وتعهدت الدول بقبول قراراتها . واذن فقد رأى توفيق نفسه بازاء حالة كان يراها أول جلوسه على العرش مخالفة لمصلحة مصر على خط مستقيم من غير أن يستطيع لها نقضا .

وقدمت لجنة التصفية تقريرها فى ١٧ يوليو سنة ١٨٨٠ فأصدره الخديو فورا وأطلق عليه اسم قانون التصفية . وعلى موجب هذا القانون بلغ دين مصر ٩٨,٧٤٨,٩٣٠ جنيها . وقد روعيت فى هذا القانون ، كما روعيت فى كل تصرفات ممثلى الدول الأجنبية مصالح الدائنين الأجانب على حساب نظام الحكم فى مصر . وبالرغم مما كان يعلمه المراقبون وغير المراقبين من أن أكثر من نصف هذا الدين لم يدفع الى مصر لم يفكر أحد فى الزام الدائنين بالتنزل عن شىء من الديون الاسمية التى كانوا يقتضونها من مال المصريين ومن دمائهم . ولما كان تدخل الأجانب مثيرا لعواطف المصريين فى عهد اسماعيل فقد بدأت هذه العواطف تثور من جديد بعد هدأة التربص وبدأت العاصفة تتكور فى الجو لتؤذن بالانفجار عما قريب .

وبدأت نذر الانفجار بما كان من تبرم رجال الجيش تبرما سببه امتهان العنصر المصرى فيه لمصلحة الأجانب من الأتراك والجراكسة . فلما سرح اسماعيل باشا فى أواخرأيامه ألفين وخمسمائة من الضباط أكثرهم مصريون كان اخوانهم يشعرون بالألم من أجلهم ويخشون أن يصيبهم مثل نصيبهم . على أن ارتقاء توفيق الى العرش استيزاره شريف باشا هدأ الحالة زمنا . فقد ظن الناس أنهم حاصلون على هيئة نيابية خير من شورى النواب القديم تراقب الحكومة وتمنع تدخل الأجانب وتعيد العدل الى نصابه . فلما عين رياض باشا وعين معه فى وزارة الحربية شركسى قح هو عثمان رفقى ، يمقت المصريين ويمتهنهم ، ولما تكشفت نيات الخديو ووزارته عن العدول عن الحكم النيابى بل عن شورى النواب نفسه ، ثم لما بدىء بتنفيذ قانون التصفية وتبين أن حال مصر المالية لم تفد منه خيرا — لما حدث ذلك كله كان المدنيون وكان رجال الجيش تغلى فى صدورهم مراجل الحقد وتتأجج نفوسهم بنيران الثورة .

وعجيب أن يحدث ذلك كله بأعين توفيق فلا يراه ولا يقدر مداه ، بل يندفع فى التيار العجيب الذى اندفع فيه مخالفا بذلك كل ما أظهره من الميول أو جلوسه على عرش أبيه . فهذا الميل الشديد لتحقيق آمال الأمة وهذا الاعتماد على معاونتها قد انقلب فجأة عقب وصول الفرمان الى اعادة حكومة الفرد ثم الى اسناد الوزارة لنصير قوى من أنصار النظام المطلق . وهذا الحرص على معارضة عودة ولسن ودبلنير وعلى أن تكون الوزارة مصرية وطنية وهذه الدعوى لانتظار أوربا نجاح السياسة الوطنية الجديدة

قد انقلب فجأة الى قبول هذين الشخصين وغيرهما من الأشخاص والى ترك التدخل الأجنبى يتوغل فى ادارة البلاد . وهذه السياسة المالية التى أخفقت على يد ولسن انقلبت فجأة سياسة الحكومة المصرية ليصدر على موجبها قانون التصفية . وهذه الانقلابات كلها قبلها توفيق راضى النفس مطمئنا . على أن لهذا العجيب فى نظرنا تفسيره الواضح : فتوفيق الضعيف قد رأى ما حل بأبيه حين عارض انكلترا وفرنسا فيجب ألا يعارضها . وانكلترا وفرنسا تريدان هذا النظام فيجب أن يريده . ليتمخض ذلك كله عن انفجار أو عن ثورة أو عما يمكن أن يتمخض عنه ، فليس توفيق الضعيف هو الذى يطالب بالتفكير فى هذا . ويكفيه أن يعتمد فى بقائه فى عرشه على سند الدولتين اللتين استخلصتا له من تركيا فرمان توليته .

وكان يسيرا أن يرى توفيق نذر الانفجار آتية من ناحية رجال الجيش . ذلك بأنه فضلا عن تسريح ألوف من الجند ومئات من الضباط فى آخر عهد اسماعيل وبالرغم من تسريح عشرة آلاف جندى أول ولايته ، فان تنفيذ قانون التصفية أسفر عن عجز الميزانية اللازمة لنفقات الدولة فى سنة ١٨٨١ عجزا بلغ مقداره ١٦١٠٠٠ جنيه بينما كان متوفرا فى صندوق الدين بعد دفع الفوائد مبلغ ٨١٣٠٠٠ جنيه أنفقت فى استهلاك السندات بدلا من أن يسدد منها ذلك العجز . وقد ترتب على هذا أن بقى كثيرون من الموظفين ، ومن بينهم رجال الجيش ، لايتقاضون مرتباتهم . أضف الى هذا أن رفقى باشا ناظر الحربية أصدر لائحة مقتضاها عدم ترقية المصريين الى الدرجات التى يستحقونها ، بينما يرقى الجراكسة

الى أكثر مما يستحقون . ولما كان للضباط المصريين جماعة سرية بين أعضائها أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى وكانوا قد قدموا لرياض باشا طلبات بالاصلاح منذ شهر مايو سنة ١٨٨١ لم تنظر الحكومة فيها ، فقد قرر هؤلاء دفـع آلايات الجيش للاحتجاج على تصرفات رفقى باشا وعلى المطالبة بعزله . ورفعت بالفعـل عريضة للخديو متضمنة هذا الاحتجاج .

وكان محمود باشا سامى البارودى وزير الأوقاف فى وزارة رياض على اتصال بهؤلاء الضباط . لذلك تيسر لهم أن علموا بعد احتجاج الجيش أن الحـكومة تريد محاكمة الثلاثة الذين ذكرنا أسماءهم وانها أمرتهم بالذهاب الى قشلاقات قصر النيل فى أول فبراير سنة ١٨٨١ لتقبض بعد ذلك عليهم . فما كادوا يذهبون وما كاد يقبض عليهم ويجردون من رتبهم ويسجنون حتى كانت آلاياتهم قد حضرت وأنقذتهم من سجنهم بقوة السلاح .

وسار الضباط الثلاثة على رأس آلاياتهم من قصر النيل الى عابدين وهنـاك وقف عرابى بين الجنـد خطيبا فشكرهم على اخلاصهم له وانقاذهم اياه . ثم تقدم الى الخديو يطلب العفو عنه وعن زملائه ، وخلع عثمان رفقى من نظارة الحربيـة ، وأردف عبارته هذه بقوله : انهم لايبرحون الا بنيل بغيتهم . ولما كان توفيق قد رأى كل الأوامر التى أصدرها الى ضباط الجند لاتنفذ ورأى نفسه فى مأزق لا يعرف سبيلا الى النجاة منه سارع الى اجابة طلب العصاة وأقال عثمان رفقى من الحربيـة وعين مكانه صديق الضباط المنتقضين محمود سامى البارودى .

ولو أن توفيقا كانت له سياسة معينة يومئذ لما وقع حادث قصر

النيل . لكنه كان مضطرب الرأى والسياسة جميعا لأنه كان يشعر ، كما قدمنا ؛ بأن سنده الأخير ليس تركيا وليس الأمة المصرية مادام حليم باشا وارث العرش على النظام القديم مقيما فى الآستانة يدس لالغاء وراثة الابن ويعاونه أنصار من الساسة والأميرات ، وما دام هو لايريد أن يعتمد على الأمة أو ينيلها شيئا من الحقوق التى تشعرها بكيانها . على أن حادث قصر النيل لم يكف توفيقا درسا فى وجوب تحديد سياسة يسير عليها لكيلا يكون دائما معرضا للتصادم مع القوى المختلفة المحيطة به . فمع شعوره بأن أباه اضطر للاستعانة بالأمة ولو استعانة صورية ممثلة فى مجلس شورى النواب فقد ظل حفيظا على مبدأ الحكومة المطلقة . ثم أنه الى جانب هذا كان قد بدأ يتخوف رياضا لقوته وشدة سلطانه على الرغم من مشاركة رياض اياه فى تأييد النظام المطلق . لذلك بدأت الوزارة تضعف شيئا فشيئا على حين بدأ المتمردون من رجال الجيش يزدادون قوة على أثر انتصار يوم قصر النيل وينضم اليهم كثيرون من غير العسكريين ويجاهرون جميعا بضرورة تشكيل مجلس النواب . وكان سامى البارودى من أصحاب هذا الرأى ومن أقوى المحركين لعرابى ومن معه ، بل كان هو روح الحركة ومحورها .

وبرغم ضعف الوزارة وشعور الخديو بمعارضة عنصر قوى فى البلاد لها فانه أراد أن يقاوم هذه المعارضة بالشدة ؛ لذلك عمد الى عزل سامى البارودى من وزارة الحربية والى تعيين صهره داود باشا يكن مكانه . وأراد داود باشا قمع الحركة فأمر بمنع اجتماع الضباط وبث عليهم الأرصاد والعيون . ولما عاد الخديو

من الاسكندرية أمر الوزير الجديد باجراء تنقلات بين الآلايات شعر معها عرابى وأصحابه بأن المراد تشتيتهم للتنكيل بهم بعد ذلك ، فرفضوا تنفيذ الأمر وأبلغوا الخديو بأن الجيش سيحضر بتمامه الى عابدين لابداء اقتراحات تتعلق بنظام الحكم فى البلاد وبشؤون الجيش وتحسين حاله .

ترى ماذا يفعل توفيق بازاء هذه الحركة وهى حركة تمرد عسكرى صريح ؟ أتراه يترك الأمر لوزارته فيصرح أن عليها حفظ النظام والأمن ؟ أتراه يدعو اليه كبار رجال الدولة وأعيانها فى مجلس عام لينظر فى الأمر ؟ أتراه يأمر بتجريد المتمردين من رتبهم وألقابهم لكيلا يكون لوزارته ولا لغيرها من رجال البلاد عليه فضل ويقف صلبا ينتظر النتائج كائنة ما تكون ؟ كلا ! فهذه كلها حلول تحتاج الى عزيمة والى قوة جنان والى شعور بالمسئولية واستعداد لمجابهة الخطر وجها لوجه . وتوفيق الضعيف لايملك شيئا من هذا . لذلك عمد الى وسيلة عجيبة لايعمد اليها سياسى : أخذ وزراءه وتوجه بهم الى حيث تعسكر الآلايات المتمردين يحقق معهم ويستعطفهم . ثم ذهب بنفسه الى القلعة حيث آلاى عرابى ليرجوه أن لا يفعل ما اعتزم فعله . لكنه وجد عرابى قد سبقه الى عابدين فعاد هو الآخر أدراجه اليها .

وهنالك فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ قام عرابى على رأس الجيش ممتطيا جواده مستلا سيفه ووقف توفيق فى شرفة عابدين يحيط به وزراؤه وقناصل الدول .

وبأمر توفيق أغمد عرابى سيفه وتقدم بمطالبه ، وهى اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على

قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام • وربما كان التصديق على قانون العسكرية أهم مطالب الجند • وربما اكتفوا به لو أن الخديو أجابهم فورا اليه وأمرهم بالانصراف لكى تنظر حكومته فيما عدا ذلك من المطالب • لكن الخديو اضطرب لساعته ورفض الطلبات جميعا مواجها خطر النداء بعزله واعلان الجمهورية فى مصر على نحو ما كان يدور برأس عرابى وأصحابه • لكن وزراءه وقناصل الدول أشاروا على الخديو بالعود الى داخل السراى خشية أن تعجل مواجهة ما بين الرجلين الحوادث • وصار مستر كولفن القائم بعمل المراقب الانكليزى وقنصلا انجلترا والنمسا رسلا بين الخديو وعرابى • وتصلب عرابى التصلب كله وأشار بعض الحاضرين على الخديو ، ومن بينهم مستر كلفن ، أن يتشبث بالرفض • مؤكدين أن لن يصل رجال الجيش الى أكثر من المظاهرة التى قاموا بها • لكن الخديو أوصله ضعفه وعدم احتياطه الى التسليم فسقطت وزارة رياض لساعتها ووعد الخديو بتنفيذ باقى المطالب بالتدريج ، ودعا اليه شريف باشا كى يشكل الوزارة الجديدة • ورفض شريف بسبب ما أمامه من المصاعب وأخصها تمرد الجيش وعدم طاعته الأوامر • فلما أظهر عرابى استعداده ورجاله للامتثال وللطاعة ، ولما جاء عمد البلاد فكفلوا عرابى فيما قاله ، ثم لما استشار شريف حكومة تركيا وحكومات انجلترا وفرنسا وكفل معاونتهم جميعا ، بعد كل هذا شكل الوزارة وأمر الضباط الثلاثة بأن يتفرقوا فى أنحاء مختلفة من القطر وبعث بعرابى الى رأس الوادى وباشر الحكم فى حزم واناة كانت البلاد يومئذ بحاجة أشد الحاجة اليهما •

وآنس توفيق نفسه فى عزلة بعد ما أذعن الى الاستعانة بشريف الذى كان قد أقصاه عن الحكم يوم طمع فى الحكم المطلق على أثر وصول الفرمان بتثبيته فى عرشه . وأحسبه هذه المرة كان يود أن تطول عزلته وأن تظل الحكومة عاملة والأمن مستتبا وأن تجرى الأشـياء فى نصابها فلا تزعجه العسكرية ولا غير العسكرية مرة أخرى . لكنه لم يلبث الا قليلا حتى علم أن الباب العالى أرسل وفدا برياسة على نظامى باشا . ترى ماهى مهمة الوفد ؟ الخديو لا يعلم ، وفرنسا وانجلترا لا تعلمان ، والوزارة العثمانية نفسها لا تعلم . لقد أرسله أمير المؤمنين بارادة شاهانية ، فماذا عسى أن تكون هذه الارادة ؟ ونزل الوفد مصر فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨٨١ بعد ما احتجت انجلترا وفرنسا على تركيا لارسالها اياه من غير اتفاق معهما ولا مجرد اخطار لهما . وجاء الوفد واحتفل الخديو به وأقام بمصر سبعة عشر يوما وعاد ادراجه ، وكان كل ما فعل أن أكد للخديو ثقة المتبوع الأعظم به وأن أكد للجيش المصرى فى حديث دار بين نظامى باشا وطلبة عصمت بمسمع من الجند أن حكومة الباب العالى لا تلوم الجند على ما فعلوا وانها ترى مصر فى طمأنينة وسكينة .

بازاء تصرف الوفد شعر توفيق كأن الدسائس التى كانت تحاك له خيوطها على ضفاف البسفور بمعرفة حليم باشا تعاونه الاميرات قد آتت ثمراتها . وانه لولا تأييد انكلترا وفرنسا اياه لكان معرضا الحقوق المكسوبة لمصر . فليزدد توفيق اذن اعتمادا على فرنسا وعلى انكلترا ، وليخش فى نفس الوقت تدخلهما ، وليضطرب لمثل ما تعرض له أبوه من قبل . ومن يدرى ؟ فقد يكون حليم باشا قبل أن تسترد تركيا فى فرمان توليته ما شـاءت أن تسترده من

لذلك بين مختلف العوامل ، وليترك وزارته تجاهد وحدها للخلاص من حرج الموقف .

ودعت الوزارة لانتخاب مجلس شورى النواب كى تعرض عليه القانون النظامى لمجلس النواب ، وافتتحه توفيق بخطاب عرش ألقى فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ ورد عليه سلطان باشا رئيس المجلس ، وعرضت الوزارة القانون النظامى فاختلف المجلس معها فى أمر نظر الميزانية . ذلك أن الحكومة كانت ترى احتراما للاتفاقات التى تمت بين الحكومـــة المصرية والدول الأجنبية أن يكون الأمـــر الأخير فى الميزانية للوزارة مع مراعاة ارادة النواب قدر المستطاع فى حدود هذه الاتفاقات . أما النواب فكانوا يريدون أن يكون رأيهم الأخـــير أو يسار على القاعدة الدستورية من حل المجلس أو سقوط الوزارة . ولم يمكن التوفيق بين الرأيين ، فكان ذلك سببا فى استقالة وزارة شريف باشا بتاريخ ٤ فبراير سنة ١٨٨٢ وحلول وزارة محمود باشا سامى البارودى محلها مع تعيين عرابى باشا وزيرا للحربية فيها .

وفى أثناء قيام الخلاف بين وزارة شريف باشا ومجلس شورى النواب أرسلت الحكومتان الفرنسية والانكليزية مذكرة مشتركة الى الخديو توفيق باشا تؤيدانه فيها فى الخديوية وفقا للفرمانات وتعدان سكينة مصر مما يعنيهما لمصلحة رعاياهما وتعلنان استعدادهما لدفع ما يطرأ على الحكومة الخديوية من الأخطار . وكان منتظرا أن تحدث هذه المذكرة من الأثر ما يضعف تمرد المتمردين . على ان تركيا احتجت على الدولتين لتخطيهما اياها ومخاطبتهما الخديو مباشرة ، كما علم العرابيون ان انكلترا أبلغت فرنسا أنها برغم هذه المذكرة تعتبر نفسها حرة فى الخطة التى تتخذها تنفيذا لمقاصدها .

وقوى ذلك من ساعدهم وجعلهم أقل اكتراثا للحوادث وتقديرا لنتائجها • والواقع أن فكرة الثورة التى بدأها الجيش كانت قد انتشرت فى أنحاء البلاد جميعا وان قمع تيار هذه الروح كان قد أصبح متعـذرا • وبخاصـة مع وجـود رئيس للدولة ضعيف ضعف توفيق •

واستمر مجلس النواب ينعقد الى ٢٦ مارس سنة ١٨٨٢ حين صدر الأمر بانفضاض دوره العادى •

وفى أعقاب انفضاض المجلس نظر عرابى الى ما حوله موجسا خيفة مما يدبر خصومه له • ولم تك الا أيام حتى صدرت أوامر الحكومة بالقبض على عشرات الجراكسة ومن بينهم عثمان باشا رفقى بتهمة ائتمارهم به وبزملائه وبالنظـام الذى أقاموه ومحاكمتهم أمام مجلس حربى والحكم عليهم بالنفى الى أقاصى السودان • وكان عرابى ومن معه مقتنعين بأن الخديو هو المحرض على هذه المؤامرة • وزادهم اقتناعا رفض الخديو التصديق على حكم المجلس الحربى • وعلى ذلك استعر الخلاف بين الخديو والوزارة • يصر الوزراء على تنفيذ حكم المجلس ويعترضه رئيس الدولة • وأدى ذلك الى تخوف فرنسا وانجلترا على الرعايا الأجانب فى مصر ، فقرروا ارسال بوارج الى المياه المصرية للمحافظة على حياتهم ومصالحهم • وأعلنت فرنسا وانجلترا جميعا حرصهما على تأييد الخديو فى مركزه وفى ذلك اشارة الى ما كانتا تتوقعانه من وصول عرابى وأصحابه الى استصدار قرار من النواب بعزله •

ولما اشتد الخلاف بين الوزارة والخديو دعت الوزارة الهيئة النيابية للاجتماع وتوسط سلطان باشا رئيس المجلس وجماعة من كبار النواب معه يريدون الوصول الى حل لهذا الخلاف • وكان

من الحلول التى قبلها الخديو أن يقال سامى البارودى من رياسة الوزارة وأن يحل محله مصطفى باشا فهمى . لكن مصطفى باشا أبى . وبينما المحادثات دائرة بين النواب والخديو والوزارة كانت البوارج الانكليزية والفرنسية قد وصلت الى المياه المصرية وأعقبتها الدولتان ببلاغ وجهه قنصلاهما فى ٢٥ مايو الى الخديو يطلبان فيه سقوط الوزارة بتمامها وخروج عرابى من القطر المصرى مع ضمان الدولتين رتبه ومرتباته ونياشينه واقامة على فهمى وعبد العال حلمى فى الأرياف واصدار الخديو بعد ذلك عفوا عاما عن جميع من كانت لهم يد فى المسألة .

وأبلغ الخديو وزراءه هذا الانذار ، فرفضوه بحجة أن ليس للدول شأن فى مخابرة مصر الا عن طريق الاستانة . على أن الخديو أظهر رضاه عن الانذار فاستقالت الوزارة محتجة وقبل الخديو استقالتها ودعا شريف باشا لتشكيل وزارة جديدة . لكن شريف باشا رأى الموقف لا يطاق فاعتذر كما اعتذر عمر باشا لطفى . وفى هذه الأثناء أوفد الباب العالى درويش باشا معتمدا سلطانيا لينظر فى الخلاف بين الخديو ووزرائه بل والعرابيين جميعا ، فان هؤلاء كانوا قد انتهوا الى ضرورة خلع الخديو وتولية البرنس حليم مكانه . وكانوا يطمعون فى نجاح هذه السياسة لعلمهم أن تركيا تؤيدها .

وفى انتظار حل المشاكل وتعيين وزارة جديدة وطنية تفاقم الخطب واضطرب حبل الأمن فاضطر الخديو الى أن يعين عرابى وحده ناظرا للحربية ليتولى أمر الأمن فى البلاد .

ولم يشعر الخديو من جانب المعتمد السلطانى بما يدل على

استعداد تركيا اذا اقتضت الحال للتدخل المسلح ولتأييده فى مركزه برغم العرابيين . لذلك قبل الموقف كما هو وعين وزارة اسماعيل راغب باشا على أن يظل عرابى وزيرا للحربية . وظل توفيق ووزراؤه فى العاصمة وظلت أساطيل الدول فى مياه الاسكندرية وظل الناس يتحدثون فيما يمكن أن تؤول اليه الامور فى زمن قريب . وكان أعجب المواقف يومئذ موقف تركيا . فقد اقترحت انكلترا وفرنسا أن ينعقد بالاستانة مؤتمر دولى للنظر فى حالة مصر واقرارها على صورة من الصور . لكن تركيا رفضت رفضا باتا بدعوى أن الحالة فى مصر عادية وان النظام القائم لا خوف عليه . وفيما الحديث بين الدول فى أمر المؤتمر وانعقـاده دائر وقعت فتنة الاسـكندرية فى ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ .

وليس يسيرا معرفة الأسـباب الحقيقية التى أدت الى هذه الفتنة : أهى كانت حركة فجائية نتيجة تكدس هذا الثغر بالسكان وتزايد الوافدين عليه بسبب الحال غير الطبيعية التى نشأت عن وجـود البوارج فى مياهه ؟ أم هى كانت بتدبير سابق من عرابى وأنصـاره كما يزعم بعض الكتاب الانكليز مؤيدين زعمهم بأن الحكومة تباطأت فى قمع الذين أثاروا الفتنة وبكثرة عـدد قتلى الأجانب على قتلى المصريين زيادة محسوسـة ؟ أم هى كانت على العكس من ذلك مدبرة من جانب الانكليز على ما يذهب اليه عرابى وأنصاره مؤيدين رأيهم بأن أمير الاسطول الانكليزى كان مأمورا بالمحافظة على أرواح الرعايا البريطانيين ومصالحهم على خلاف أمير الاسطول الفرنسى الذى كان مكلفا بالمظاهرة البحرية لتأييد سلطة الخديو . ومهما يكن من هذه الفروض فقد وقعت مذابح ١١ يونيو

وحكومة الخديو بالقاهرة فخف توفيق وعرابى والوزراء فى اليوم نفسه وعقدوا مجلسا عسكريا لتحقيق أسباب الفتنة وجعلوا على رأسه عمر باشـا لطفى محافظ الاسكندرية الذى اتهمه الانكليز بالتهاون فى قمعها ، وبلغوا من اتهامه أن انسحب المحامى الانكليزى الذى حضر تحقيق المجلس العسكرى بأمر القنصلية البريطانية ٠

وبقى الخديو وحكومته بالاسكندرية يريدون اعادة الأمن الى نصابه ٠ وكان توفيق يومئذ فى مركز لا يحسد عليه : فهو لم يكن يأمن جانب تركيا ، وكان يعتقد اعتقادا جازما أنها تعارضه وتؤيد المتمردين عليه رجاء الوصول يوما من الأيام الى خلعه واقامة حليم باشا مكانه ، وهو لم يكن يأمن العرابيين لما كان يعتقده من بغضهم اياه واتفاقهم مع السياسة التركية فى التخلص منه ، وهو مع اعتماده على تأييد فرنسا وانكلترا كان يخشى أن لايتخطى أمرهما التأييد المعنوى فاذا فوجئا بالأمر الواقع من عزله لم يقوما بعمل لتثبيته فى عرشه ٠ ثم هو لم يكن يثق حتى بالجراكسة من وزرائه ، لأنه شعر بالقوة المصرية تتغلب على كل شىء فى البلاد وتبتلعه ٠

وتجسم الشعور بهذه القوة القومية فى رأس عرابى وأعوانه حتى دفعهم الى تقوية حصون الاسكندرية استعدادا لدفع الغارة البحرية عليها ٠ ومع أن الدول كانت قد تخطت معارضـة تركيا فى عقد مؤتمر الاستانة لحل المسألة المصرية وانعقد المؤتمر فى العاصمة التركية فعلا برياسة لورد فرين سفير انكلترا لدى الباب العالى وكان طبيعيا أن يكف الجميع عن تعقيد المسائل فى مصر حتى يصدر المؤتمر قراره فان تحصين قـلاع الاسكندرية استمر ، كما أن الاميرال سيمور الانكليزى أبلغ الخديو بأنه مضطر اذا لم تقف

التحصينات الى ضرب قلاع الاسكندرية بالمدافع • وعلى الرغم من احتجاج ممثلى الدول على بلاغ الاميرال ومن انكار طلبة عصمت الاستمرار فى التحصينات ومن أن تسوية المسألة كانت ممكنة لو أن فرنسا شاركت فى الضغط المعنوى على الحكومة المصرية كى تنتظر قرار مؤتمر الاستانة فان الاميرال سيمور أصر على قراره وقررت وزارة فريسنيه انسحاب الأسطول الفرنسى الى بور سعيد •

ماذا يفعل توفيق ومقامه بسراى رأس التين يجعله معرضا لقنابل مدافع البوارج ؟ لقد طلب اليه المستر كلفن أن ينتقل الى بارجة أمير البحر الانكليزى لأن غرض الأسطول الانكليزى تأييد ملكه • لكن توفيق كان يعلم أن التجاءه وهو أمير هذه البلاد التى تطلق النار عليها الى أساطيل مهاجميها يعرضه لعزل تنفرد انكلترا بالاعتراض عليه بينا تشترك فرنسا والدول الأخرى مع تركيا فى تأييده لما كان لفرنسا من ضلع ظاهر مع العرابيين ومع حليم باشا • لذلك رأى الاستسلام للمقادير وقال لمستر كلفن ما مؤداه :

« انى لا أبرح مكانى ولو وقعت الواقعة وأطلقت المدافع على الاسـكندرية ، فان لى من رعيتى قوما أمنـاء لم يخونونى بل خدمونى بأمانة وصداقة فلا يصح أن أتركهم أوان الشدة لأنجو بنفسى ،ولا يليق بى كذلك أن أترك البلاد فى وقت الحرب فان فى ذلك عارا عظيما » واكتفى بالانتقال هو ودرويش باشا الى قصر الرمل بعيدا عن مرمى المدافع •

وفى صباح ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ أطلقت البوارج الانكليزية مدافعها على حصون الأسكندرية فجاوبت الحصون باطلاق مدافعها على أن الموقعة لم تدم لأكثر من الساعة الحادية عشرة قبل الظهر

اذ صمتت نيران الحصون ودك بعضها دكا وشعر العرابيون بأن ما توهموه من قوتهم على مقاومة البوارج الانكليزية لم يكن الا وهما . على أن ذلك لم يفت فى عضدهم ولم يوهن من عزيمتهم اذ اعتقدوا أنهم يستطيعون أن يعسكروا فى كفر الدوار ليعودوا بعد زمن الى مهاجمة الاسكندرية . وعلى ذلك قرر عرابى ومن معه الانسحاب من الثغر بعد أن أيقنوا من أن الخديو الذى رفض الالتجاء الى بوارج الانكليز قد سر لانتصارهم وأنه لذلك قد صار خصما ظاهرا للثائرين عليهم . وفيما كانت المدينة تحترق بفعل الجماهير الثائرة والعساكر المقيمة مع عرابى عاد الخديو من سراى الرمل حيث كان سجينا تحت أمر رجال عرابى الى سراى رأس التين حيث استقبله الجند الانكليز على بابها وحيث استقبله الأميرال سيمور وعدد من رجاله داخلها .

وكان فى الوقت متسع ما يزال لاخماد نار الفتنة فى مصر لو أن تركيا لم تكن متأثرة بسياسة فرنسا حريصة على تأييد الثائرين . فقد طلب اليها لورد دفرين ، بناء على تعليمات حكومته ، أن تعلن أن عرابى عاص وتؤيد سلطة الخديوى واستعدادها لارسال قوة لقمع العصيان واعادة النظام . لكن تركيا أبت أن تخطو هـذه الخطوة . وطلبت انكلترا الى فرنسا أن تشترك معها فى الدفاع عن قناة السويس ، فأعلن الساسة الفرنسيون أن قناة السويس بمأمن من أن يهدده مهدد . والواقع أن عرابى ومن معه لم يفكر أحد منهم فى تحصين بناحية القنال اعتمادا منهم على حيدته وعلى تأكيد المسيو دلسبس بأن أية قوة محاربة لن تستطيع خرق حياده . ورأت انكلترا بازاء ذلك كله أن الفرصة سانحة لأن تخطو خطوة جديدة

فى وادى النيل بعد خطوتها الأولى التى أتمها دزرائيلى فى سنة ١٨٧٥ بمشترى أسهم القناة التى كانت مملوكة لاسماعيل فقررت التدخل المسلح منفردة . ولم تعبأ بحيدة القناة بل ذهبت أساطيلها المقلة للجيش الذاهب الى مصر قاصدة بور سعيد والاسماعيلية فاحتلتهما من غير أية مقاومة ولا أى احتجاج . وعسكرت القوة الانكليزية يوم ٢٢ أغسطس فى الاسماعيلية . وفى هذا الظرف وبعد فوات الفرصة أعلنت تركيا عصيان عرابى وأيدت توفيقا فى عرشه . لكن توفيقا كان قد انضم الى السياسة الانكليزية وعزل عرابى من نظارة الحربية واعتبره ثائرا . وقامت فى مصر اذ ذاك حكومتان : حكومة توفيق يؤيدها فريق من المصريين وتؤيدها انكلترا ، وحكومة الثورة تخضع لها البلاد كلها . لكن هـذه الحكومة الثانية لم يطل أمرها . فقد انهزم عرابى وجنده فى موقعة التل الكبير يوم ١٢ سبتمبر ودخل الانكليز القاهرة فى الخامس عشر من هذا الشهر نفسه .

وعاد توفيق الى عاصمة ملكه فى ٢٥ سبتمبر سـنة ١٨٨٢ يصحبه الدوق أوف كنوت والجنرال ولسلى والسيرادورت مالت . وكان توفيق يظن أن قضاء انكلترا على الثورة باسم تأييد مركزه معناه عوده للحكم وتولى أمور البلاد على ما تجيزه الفرمانات . ولعله لم يخطر بباله أن انتصار انكلترا فى التل الكبير ودخول الجيوش الانكليزية الى عاصمة ملكه قد قدر له أن يكون معناه القضاء على سلطته ، بنقلها من يده الى يد هؤلاء الذين ثبتوه فى عرشه . ولعله لم يخطر بباله أن عوده الى مقر سلطانه محاطا بالأمير وبالقائد وبقنصل انكلترا سينتهى لاريب الى أن تكون الحوادث

العرابية آخر ما خبأ القدر لتوفيق من نشاط . ولئن كان عرابى سيحاكم وسينفى الى سيلان فان ولى عرش مصر لن يكون أعظم من عرابى سلطانا برغم مقامه فى قصوره وسط عاصمة ملكه .

فبرغم تبليغ اللورد دوفرين الباب العالى عقب موقعة التل الكبير أن الحكومة البريطانية تفكر فى سحب جنودها من مصر ما دام النظام قد استتب فيها فان حكومة جلالة الملكة رأت عقب انتصارها على الثوار أن يكون مصير الثوار بيدها لا بيد حكومة الخديو . أليست هى التى تغلبت عليهم وقهرتهم ؟ واذا كان الخديو وأنصاره يرون طبيعيا أن يقضى على عرابى وكل من معه بالاعدام جزاء اخفاقهم فى ثورتهم ، فان انكلترا تنظر للأمر نظرة أخرى . ولذلك أبلغ القنصل الانكليزى الخديو أن لا يتصرف فى أمر الثائرين قبل حضور اللورد دوفرين الى مصر ، وكانت حكومته قد انتدبته « لينصح الى حكومة الخديو بالوسائل الواجب اتباعها لاعادة سلطة سموه » . وكان أول ما صنعه لورد دوفرين أن طلب الافراج عن المئات الذين اكتظت بهم السجون باعتبارهم ثائرين عدا خمسة هم : عرابى وطلبه ومحمود سامى ومحمود فهمى وعلى فهمى . ومع أن القوانين التركية للمجالس العسكرية لم تكن تبيح حضور محام عن المتهمين فقد جاء محاميان انكليزيان هما مستر نابير ومستر برودلى . وبعد صـدور الحكم بالاعدام استبدله الخديو عملا بنصيحة قنصل انكلترا — ونصيحته عند توفيق أمر محترم — بالنفى المؤبد .

وكان لابد لانسحاب الجنود الانكليزية من أن تستريح انكلترا الى انتظام الجيش المصرى انتظاما تطمئن معه الى عدم تهديد الأمن

مرة أخرى ؛ وأن تطمئن الى شيء آخر هو أن لاتتعرض مصر لغزو دولة أخرى اياها غزوا يعرض قناة السويس الى الخطر .

وغير مرة أعلنت انكلترا استعدادها للجلاء عن مصر وسحب جنودها منها متى اطمأنت الى هذه الغايات . وهذه ثمان وأربعون سنة مضت منذ الاحتلال ولما تهتد الحكومة البريطانية — على الأقل — الى ما يطمئنها على أن لا تغزو مصر دولة أخرى أو أن تتعرض قناة السويس الدولية للخطر .

على أنها رأت فى ذلك التاريخ وبعد مشورة اللورد دفرين أن تنظيم الحكم فى البلاد على قاعدة العدل هو أقرب الوسائل لتحقيق الأغراض التى تريد أن تتحقق لتجلو عن وادى النيل . فأمرت ، استغفر الله ، فنصحت أن يلغى توفيق قانون مجلس النواب ويستبدل به قانون مجلس الشورى والجمعية العمومية وأخذت بيدها مقاليد مالية البلاد ونحت فرنسا قدر المستطاع عنها ودعت الى عقد مؤتمر لاستبدال نظام التصفية بنظام آخر ، وجعلت تتغلغل فى شؤون الحكم شيئا فشيئا حتى وضعت يدها على كل شيء وعلى توفيق من بين ما وضعت يدها عليه .

وسر توفيق بهذه الحال الجديدة واطمأن أشد الاطمئنان لها . بل لقد بلغ من اخلاصه لانكلترا أن كان لا يكتم على ممثلها سرا من أسرار وزارته . روى أحد الذين حضروا ذلك العصر أن رياض باشا اتفق مع زملائه مرة على أن يعقدوا مجلس وزارة لا يحضره المراقب الانكليزى كلما أرادوا النظر فى شؤون تعنى مصر وحدها . وأبلغ رئيس الوزارة توفيقا هذا الخبر . وما كان أشد دهشة رياض حتى نبهه قنصل انكلترا العام الى أنه كان

يعتقد فيه الصراحة ، وروى له ما أخبر هو به الخديو من قبل ٠

ولم يكن يدور بخاطر توفيق شيء من أمر جلاء الجنود البريطانية عن مصر برغم الحاح السياسة الفرنسية فيه بعد اذ رأت نفوذها في وادي النيل يتقلص ٠ وكيف تريد توفيقا أن يؤيد السياسة الفرنسية وقد كانت منضمة للعرابيين ضده في ظروف كثيرة ، وكانت تعطف على فكرة تعيين حليم باشا في منصب الخديوية ؟ ! واذن فليصنع الانكليز لتنظيم أمر البلاد ما يشاؤون٠ ليقرروا ثلاثة ملايين من الجنيهات تعويضا لمن أصابهم ضرر من جراء فتنة الاسكندرية ، وليوطدوا نظام الحكم الذي يرون توطيده في مصر ، وليوفدوا الى السودان ما يشاؤون من الجيوش لقمع ثورة المهدي ، وليقرروا الانسحاب من السودان واخلاءه فيأبى رئيس وزارته شريف باشا ويقبل نوبار الوزارة والانسحاب — ليصنعوا بمصر ما شاءوا وليعينوا من الوزراء من شاءوا فلن ينسى توفيق لهم فضل تثبيته على عرشه ولن يكون لهم الا أخلص المخلصين ٠

ولعل ما كتبه لورد كرومر عن توفيق وخلقه خير ما يوضح لنا مبلغ اطمئنان توفيق للحالة الجديدة ، حالة الاحتلال الانكليزي ٠

قال اللورد ما مؤداه :

« ما أحسب خير أصدقاء توفيق يذهبون الى أنه كان رجلا عظيما أو خديويا مثلا ٠ فالواقع انه لم يكن من العظمة في شيء ٠ ولقد كان مكتفيا بزوج واحدة فضرب بذلك مثلا صالحا لأهل بلاده ٠ وكان أبا صالحا نشيطا معنيا بحسن تربية أولاده ٠ وقد اشتهر بالتقوى ولكنه كان خلوا من أية ظاهرة للتعصب مما يصطبغ

به أتقياء « المسلمين » . ووصلت تقواه بينه وبين رعاياه المسلمين وكانت لذلك عاملا سياسيا له بعض الخطر . وكان بالقياس الى من حوله مستقيما وفيا . وكان كأكثر أهل بلاده يخاف المسؤولية ويجتهد ما استطاع ليلقى كل ما يقدر على القائه منها على أكتاف الآخرين . فكان يشكو من كثرة عـدد الاوربيين فى الحكومة المصرية فاذا قصـد اليه أوربى يلتمس منصبا أجابه بأنه يكون سعيدا لاجابة الطلب ولكن سلطة بريطانية تمنعه من السير بما يمليه عليه قلبه وكان عديم النشاط يعوزه الابتكار ، ولكنه كان اذا اضطر الى أن يقر قرارا أبدى فى غير قليل من الأحيان ما يدل على الكرامة وحسن التقدير وبعد النظر . وكان طيب القلب حتى يكاد فى بعض الاحايين يبدى من الاعتراف بالجميل عما قدم اليه من خدمة ما يندر أن يكون من صفات حاكم شرقى . وكان يظهر أعمق المقت لكل أنواع التحكم والارهاق والقسوة . ولم يكن أبدا مسئولا شخصيا عن عمل من هذه الأعمال ، وان كان تباطؤه واهماله قد أتاح ارتكاب كثير من الظلامات باسمه . ولم يكن متعلما تعليما عاليا . وقل أن قرأ كتابا . ولكنه كان يطلع على الصحف ويتحدث مع رجال من كل طراز ومكانة . وكان متوسطا فى ادراك الحوادث التى تلقى اليه وفى تتبع المناقشة التى تحدث أمامه . أما من حيث حدة الذكاء فربما كان فوق متوسط أهل بلاده .

« واذا لم يكن عظيما فى الرجال فهو لم يكن خديويا مثلا . فلو انه كان رجلا قوى الارادة سامي الخلق حاد الذكاء لوضع نفسه على رأس حركة الاصـلاح فى مصر ، ولظهرت سلطته ، ولما توقد غيرة من الانكليز الذين كانوا موظفين فى حكومته .

على أنه مع ذلك كانت له الفضيلة السلبية أنه لم يكن ملوثا برذائل الحاكم الشرقى . وهو اذا لم يكن قد قام بالفعل بشىء فى حركة اصلاح فكفاه انه كان مغتبطا لقيام آخرين بدله بهذه الحركة . وهو اذا لم يكن قد ساق غيره فى سبيل الخير فكفاه انه اتبع الغير فى هذا السبيل . وأشهد انى اقتنعت برأيه فى أحيان أكثر من التى اقتنع هو فيها برأيى عند وجود خلاف بيننا » .

وهذا الحكم يبين للقارىء السبب فى انا لم نقف بعد حوادث الثورة العرابية عند شىء من حياة توفيق ، فقد كانت حياة عادية لاتتخللها الحوادث لأنه لم يكن له فى الحوادث يد ولا تصريف . وبقى كذلك الى أن توفى فى سنة ١٨٩٢ غير محمود ولا مذموم .

* * *

والآن فهل على توفيق تبعة فى الحوادث الجسام التى حدثت أول أيام حكمه والتى أدت بمصر الى موقفها الحاضر ؟ هـذا ما لا يصعب الجواب عليه . فعلى توفيق التبعـة اذا كانت على انسان تبعة ضعف نفسه واضطرابه بين قوى لا سلطان له عليها . انما التبعة أكبر التبعة على الحوادث التى احاطت بتوفيق فكان لضعفه لا يملك تحويرها بما يتفق ومصلحة بلده . انما التبعة على تركيا ، وعلى فرنسا ، وعلى انكلترا ، وعلى عرابى . وماذا يستطيع ضعيف قصير النظر كتوفيق أن يصنع بين هذه القوى جميعا الا أن يترك نفسه يتقاذفه موج الحوادث ليصل بملكه وبلاده الى ما وصلا اليه .

محمد قدرى باشا

من الكتب ما ينبه ذكره ويعظم أثره بمقدار يجنى على ذكر المؤلف حتى ليكاد يعفى خبره . من هذا الطراز كتب ثلاثة ما يغيب اسم واحد منها عن ذاكرة محام ولا قاض ولا طالب حقوق ولا رجل من رجال الشرع الاسلامى . هذه الكتب الثلاثة هى : مرشد الحيران الى معرفة أحوال الانسان فى المعاملات الشرعية على مذهب الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان ، وكتاب الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية ، وكتاب قانون العدل والانصاف للقضاء فى مشكلات الأوقاف . بل ان معرفة هذه الكتب لا تقف عند رجال القانون والشرع ، بل تمتد كذلك الى عدد عظيم من سواد الناس . فقد نظمت ثلاثتها أحكام الشريعة على مذهب أبى حنيفة فى تقنين ذى مواد يفى بحاجة كل من يهمه الوقوف على هذه الأحكام اذ يجدها مبوبة مرتبة مدققة فى اختيار ألفاظها حتى تعنى مدلولاتها على صـــورة من التحديد الدقيق الذى يقضى به فن الفقه القانونى . وهذه الكتب الثلاثة هى الأولى والأخيرة فى بابها ولذلك نبه ذكرها وعظم أثرها وتناول الناس ما فيها بالدراسة ، فاذا سألت أكثرهم عن واضعها قيل لك هو قدرى باشا . لكن أكثر الناس لا يعلمون من أمر قدرى باشا الا اسمه ، والا أنه واضع هذه الكتب الثلاثة ، وقد يكون ذلك كافيا لتاريخه . فهذه الكتب الثلاثة هى فى الحق أثر كاف لتخليد واضعه . واذا كان نابليون قد جعل من قانونه

المدنى عنوان مجده واعتبر ما الى جانب ذلك من مجد النصر والظفر وحكمه العالم ثانويا ، فكتب قدرى باشا فى تقنين أحكام الشرع فى المعاملات والأوقاف والأحوال الشخصية عنوان مجد باق على الزمان .

لكن ، من كان قدرى باشا ؟ وماذا كان تاريخ حياته ؟ لا بد أنه كان فقيها عظيما من علماء الأزهر معهد دراسة الشريعة الاسلامية وموضع العناية بها . فالرجل الفذ الذى يقنن شريعة من الشرائع يجب أن يكون من أساطين رجال هذه الشريعة . فليس طبيعيا أن يخرج هذا المعهد الألوف من العلماء والفقهاء ثم يكون من يقنن الشرع غيرهم ! غير أن الواقع أن قدرى باشا لم يكن منهم ولم ينخرط فى سلكهم ، ولم ينضم الى زمرتهم . وكتبه الفقهية هذه ليست كل تواليفه وان كانت أبقاها وأخلدها . فقد كانت تربيته ودراسته مدنية بحتة . وكانت الوظائف التى تقلدها بعيدة عن أن تمس الأزهر الشريف أى مساس .

وقد ولد بملوى حوالى سنة ١٨٢١ من أب أناضولى هو قدرى أغا الذى كان من أعيان بلد وزير كوبرلى . وحين جاء الى مصر أقطعه والى مصر بعض العزب بمركز ملوى على طريقة الالتزام التى كانت معروفة يومئذ . فتزوج من مصرية أولدها ولده محمدا وأدخله مدرسة صغيرة بملوى ، حتى اذا أتم الدراسة بها بعث به الى القاهرة فى مدرسة الألسن حيث أتم بها دراسته وعين فيها مترجما مساعدا .

وكانت مدرسة الألسن هى المعهد الذى أسس لبث الثقافة الحديثة فى مصر . فقد أدرك أهل ذلك العصر ادراكا تاما أن

المدنية الغربية قوية التيار جارفته وان الحضارة الاسلامية التى يمثلها الأزهر أصبحت غير قادرة على الوقوف فى وجه هذا التيار ، كما انها كانت قد جمدت على تعاليم لا تقبل أن تطعم بالتعاليم الحديثة فلا يمكن معالجة التوفيق بين المذهبين . وكانت اللغات — أو الألسن على ماكانوا يسمونها يومئذ — هى موضع عناية مدرسة الألسن الكبرى . فكانت تدرس فيها اللغات التركية والفارسية والفرنسية والايطالية والانكليزية . وكانت العناية فيها باللغة العربية عناية فائقة يدل عليها ما وضـعه الذين تخرجوا منها وما ترجموه من كتب ومؤلفات كثيرة . قال قدرى باشا صاحب هـذه الترجمة فى كتابه (معلومات جغرافية) الذى نشر فى سنة ١٨٦٩ : « وقد ترجم تلاميذ هذه المدرسة أكثر من ألفى مجلد » وأتى بأسماء كثير ممن ترجموا والفنون التى ترجموا كتبها الغربية . وكان القصد من تعليم هذه (الألسن) والقيام من بعد ذلك بترجمة الكتب فى مختلف الفنون نقل الحضارة الغالبـة الى مصر ليتمكن أهلها من السير سيرة أهل أوربا . ولعل أكثر ما ترجم انما ترجم عن اللغة الفرنسية . فقد تأثرت مصر بالثورة الفرنسية الكبرى ، كما تأثرت بها دول أوربا المختلفة . وكان من أثر ذلك أن قام المغفور له محمد على باشا فيها بحركة تشبه الحركة التى قام بها نابليـون فى فرنسا ، وكان مرجوا أن تؤتى خير الثمرات لولا أن تألبت أوربا على مصر وحرمتها يومئذ ثمرات الظفر ، كما وقفت بعد ذلك عائقا فى سبيل تقـدمها تقدما يرفعهـا الى الصف الذى يجب أن تشغله بين أرقى أمم الأرض وأقواها .

عين قدرى باشا اذن مترجما مساعدا بمدرسة الألسن على أثر تمام دراسته بها . وكان له ميل خاص لدراسة علوم الفقه ولمقارنة الشريعة الاسلامية بالقوانين الأوربية . فكان لذلك يحضر بعض دروس الفقه بالأزهر وكان مكبا على مطالعة كتب الشرع منذ حداثة سنه . لكن آثاره فى ذلك لم تظهر الا بعد سنين طويلة . وبقيت الترجمة عمله الرسمى الذى كان يتقنه ايما اتقان . ولذلك نقل من مدرسة الألسن الى نظارة المالية مترجما لا مساعد مترجم .

ولما احتل ابراهيم باشا الشـام عين شريف باشا واليا لها . فأخذ هـذا الأخير قدرى باشا (وكان ما يزال قدرى أفندى) سكرتيرا له ، ثم سافرا الى الآستانة وعادا بعد ذلك الى مصر وظلا متلازمين حتى عين قدرى باشا أستاذا للغتين العربيـة والتركية فى مدرسة الأمير مصطفى فاضل باشا . ثم اختاره الخديو مربيا لولى العهد . ثم عين بالمعية فالمعارف فمجلس التجار بالاسكندرية فرئيسا لقلم ترجمة الخارجية .

وأثناء اشتغاله بالتدريس وضع عدة كتب فى موضوعات مختلفة . لكن أكثرها كان فى اللغة العربية وأجروميتها ومفرداتها ، وكان معاجم عربية — فرنسية . من ذلك الدر النفيس فى لغتى العرب والفرنسيس ويقع فى سبعمائة صفحة ، والدر المنتخب من لغات الفرنسيس والعثمانيين والعرب ، وأجرومية فى اللغـة العربية ، ومختصر الأجرومية الفرنساوية مترجمة الى العربية ، والمترادفات باللغة العربية والفرنساوية . هذا عدا بعض كتب فى التاريخ والجغرافيا ككتاب (معلومات جغرافية مصحوبة ببعض نبذ تاريخية لأهم

مدن مصر جمعت وترجمت بالعربية لفائدة الشبيبة المصرية) . وهذا الكتاب تم طبعه فى سنة ١٨٦٩ .

يدل كثير من هذه الكتب على مبلغ تضلع قدرى باشا فى اللغتين العربية والفرنسية وعلى مقدرته الفائقة فى الترجمة . لذلك كان طبيعيا أن يدعى للاشتراك فى التمهيد للعمل التشريعى العظيم الذى كانت الحكومة المصرية تفكر فيه والذى كان مقدمة لانتشار المحاكم المختلطة والمحاكم الأهلية . فقد كان القضاء المصرى فى ذلك العهد منوطا بالمجالس الملغاة التى كانت تحكم بالعرف وكانت تجمع من الرجال من قلت درايتهم بقواعد العدالة . واذ كانت مبادىء الثورة الفرنسية قد تسربت الى مصر من طريق الحملة الفرنسية فى سنة ١٧٩٨ ومن طريق الشبان المصريين الذين أوفدوا الى فرنسا ثم عادوا الى مصر ، فقد اتجهت الفكرة الى تعريب القوانين الفرنسية التى وضعت أيام نابليون ، وعهدت الحكومة الى جماعة من أفاضل المترجمين المصريين بهذه المهمة . فعرب القانون المدنى الفرنسى رفاعة بك رافع وعبد الله بك رئيس قلم الترجمة وأحمد أفندى حلمى وعبد السلام أفندى أحمد . أما قانون المرافعات فعربه أبو السعود أفندى وحسن أفندى فهمى أحد مترجمى وزارة الخارجية ، وعرب قدرى باشا قانون العقوبات ، وعرب صالح مجدى بك قانون تحقيق الجنايات . وجمعت هذه القوانين كلها وطبعت بالمطبعة الأميرية فى سنة ١٢٨٣ هـ .

واذ كان ميل قدرى باشا للفقه والتشريع يرجع الى أيام الدراسة ، على ما قدمنا ، فقد صادف ذلك العمل هذا الميل ودفع

بصاحبه الى التفكير فى تقنين أحكام الشريعة الاسلامية . وزاده امعانا فى هذا التفكير أن عهد اليه بالاشتراك فى ترجمة قوانين المحاكم المختلطة الى اللغة العربية مع اللجنة التى أنشئت فى وزارة الحقانية للقيام بهذا العمل تمهيدا لوضع تشريع جديد للمحاكم الأهلية التى أزمع انشاؤها من يومئذ . ولما كان التشريع للمصريين يقتضى التوفيق بين أحكام القانون المختلط الجديد الذى أخذ عن القانون الفرنسى وبين أحكام الشريعة الاسلامية التى كان عليها القضاء الى يومئذ ، فقد اشتغل قدرى باشا بهذه المقارنات ، فوضع كتابا لم ينشر بعد وما تزال نسخته المخطوطة فى دار الكتب المصرية عن (تطبيق ما وجد فى القانون المدنى — الفرنسى — موافقا لمذهب أبى حنيفة) . وجاء فى مقدمته أنه (بيان المسائل الشرعية التى وجدت فى القانون المدنى مناسبة وموافقة لمذهب الأمام الأعظم أبى حنيفة النعمان) .

هذه الترجمة لقانون العقوبات الفرنسى ولقوانين المحاكم المختلطة وهذه البحوث المتصلة فى المقارنات بين أحكام الشرع والقانون المدنى الفرنسى مضافة الى ميله الأصيل ، جعل من قدرى باشا فقيها فى القانون . ولقد نقل من رياسة قلم ترجمة الخارجية مستشارا بمحكمة الاستئناف المختلطة ، وظل فى منصبه هذا الى أن عين وزيرا للحقانية فى أول عهد المغفور له محمد توفيق باشا ، ثم استقال مع الوزارة وعاد بعد ذلك وزيرا للمعارف ، ثم انتقل وزيرا للحقانية من جديد . وعمل فى منصبه هـذا على وضع القوانين للمحاكم الأهلية التى أريد انشاؤها ، واشترك بنفسه فى وضع القانون المدنى

وقانون تحقيق الجنايات والقانون التجارى . وفيما كان لا يزال ناظرا للحقانية صدرت لائحة ترتيب المحاكم الأهلية ، ثم أحيل الى المعاش ، وصــدرت القوانين التى اشــتغل فى وضعها أيام كان فخرى باشا ناظرا للحقانية .

كان طبيعيا اذا أن ينصرف قدرى باشا فى الشطر التالى من حياته عن الاشتغال بما شغل به فى الشطر الأول — من ترجمة ونحو وصرف — الى العمل فى القانون والتشريع . وكان قدرى باشا من طراز الذين يتوفرون بكل قوتهم على العمل ولا يملونه . ولذلك وجه كل همه الى تقنين مذهب أبى حنيفة بوضع الكتب الثلاثة التى ما يزال اسمه مقرونا بها : مرشد الحيران فى المعاملات ، والأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية ، وقانون العدل والانصاف فى القضاء على مشكلات الأوقاف . وقد ظلت هذه الكتب كلها مخطوطة الى حين وفاته فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٦ ولم تطبع الا بعد الوفاة بسنوات طويلة . وهى مع ذلك التى خلدت ذكره وما تزال سبب مجده ، هى هذا الجهد العظيم الذى لم يضطلع به من رجال الشرع الاسلامى أحد فاضطلع هو به وأداه على خير وجوهه . واقتران اسمه بها دليل على أنها أثر خالد حقا .

فلقد كان فى أعماله الأخرى ما يكفى ليجعل منه واحدا من رجالات مصر وفى مقدمتهم . كان يكفى اقتران اسمه بلائحة ترتيب المحاكم الأهلية وصدورها . وكان يكفى أنه تقلد الوزارة ثلاث مرات فى حياته . وكانت تكفى كتبه الأخرى . لكن مناصب الحكومة واقتران الذكر بقانون من القوانين أو عمل عام ناب فيه صاحب

الذكر عن الحكومة لا يخلد اسم صاحب المنصب الا على أنه اسم لا أكثر ، اسم من هذه الأسماء التى قد تصل الى المناصب بالرياء أو الخديعة أو غير هذين من الأسباب الكثيرة الوضيعة التى يعتبرها بعض الناس حلية لهم وسلما يرتقون به درجات الحياة ، اسم مكون من حروف هجائية لا من أعمال جليلة ، اسم جف على نقائص الحياة يلاشيها الموت ولا نصيب له من خير يبقى على الحياة أثره . فأما هذه الكتب الثلاثة التى لم تظهر الا بعد موت مصنفها فقد أعادت اسمه الى الحياة متألقا شديد الاشراق سقطت من حوله حياة المادة وضعفها وبقيت له حياة الروح المتصلة بالكون من أزله الى أبده .

ويقول الذين عرفوا قدرى باشا أيام حياته أنه مع اكبابه على العمل أشد الاكباب لم يكن من المتجهمين للحياة العابسين فى وجهها، بل كان ظريفا غاية الظرف ، وكان يتقن الضرب على العود ، وكان لا يأبى أن يجلس من اخوانه خريجى مدرسة الالسن فى حفلة طرب يسمعهم من أنغام عوده مايهون على النفس أعباء العمل . وانك لتجد أولئك الذين وهبتهم الطبيعة من قدرتها مايجعلهم قوة عاملة ذات أثر خالد فى العالم أحرص الناس على أن ينالوا من جوانب الطبيعة الباسمة حظا يعينهم على أداء الواجب العظيم الذى فرض الوجود عليهم أداءه ، والذى يقتضيهم من الجهد ما ينوءون به لولا هذا الحظ القليل . وما كان لأحد أن يأخذهم بذلك ، وهو ، أيا كان لونه ، ليس الا رياضة لنفوسهم وأعصابهم أن يبهظها الجهد أو يأتى عليها الملال . واذا أبهظ الجهد قوى الأفذاذ الذين يقيمون العالم وحضارته فقد آن للملايين الذين يعيشون فى كنف مواهب هؤلاء

وينعمون بعملهم أن تتحطم سعادتهم وأن تهدم حضارتهم .

وكان من قسوة القدر على قدرى باشا أن كف بصره وأن انطفأ نور عينيه ، وكانتا قبل ذلك ذواتى جمال وحدة . وقد سافر الى النمسا أملا فى معالجة نفسه من هذا المرض ، ولم يمنعه عدم نجاحه فى هذا من متابعة عمله الذى أخرج للناس فى تقنين الفقه الشرعى كتبه الثلاثة .

وتوفى ، فأحدثت وفاته فراغا فى عالم النهضة القومية . ولكن هذه النهضة كانت حين وفاته فى منحدر أدى بها الى وقوف تيار النشاط العظيم الذى قام به هو وزملاؤه . فمن قبل سنة ١٨٨٦ كانت مصر قد أصيبت فى مطامعها فى الحرية بضربة لا تقل قسوة عما أصيبت به على أثر انتصارات محمد على باشا على تركيا . وكانت أوربا هى صاحبة الضربة الأولى وصاحبة الضربة الثانية .

ولن تزال كتب قدرى باشا الثلاثة عنوان مجد لا يقل عظمة عن قانون نابليون . ولئن ينس الناس من حياة قدرى باشا كل شىء فلن ينسوا هذه الكتب الثلاثة وهى كافية لتقيم مجد رجال لا مجد رجل واحد .

بطرس باشا غالى

لعلك ان طلبت مثلا أعلى بين بلاد العالم لشعب وديع هادىء لا ترى خيرا من مصر محققة لهذا المثل . ثم لعلك ان طلبت مثلا أعلى لشعب طموح لاتفتأ أحشاؤه تضطرب بأسباب الثورة على الحاضر تطلعا الى الكمال والى العظمة والمجد ، لا ترى خيرا من شعب مصر محققا لهذا المثل . فقل أن عرفت مصر وسائل العنف فى السعى الى أغراضها . ولم يقع أن ذلت مصر واستكانت ويئست من تحقيق هذه الأغراض . ولهذا الظاهر من التناقض فى صورة الحياة المصرية أثر كبير فى قدر رجال مصر والآخذين بها لتحقيق مطامعها . فهى أبدا فى نضال مع أمم غيرها تريد قهرها واذلالها . وهى أبدا لا تذل لقاهر وان كانت ظروفها وكان تاريخها قد ألجأها الى ستر ثورتها الدائمة تحت ظاهر من الهدوء والسكينة . ولذلك كان حتما بحكم هذه الظروف أن ينشأ فيها الرجل المحرك للعواطف يستنهضها وللهمم يحفزها ، ولنشاط الجماهير يدفعه الى الغاية السامية التى تطمع مصر بحق فيها ، وأن ينشأ الى جانب هذا الرجل رجل آخر هو السياسى الذى يعمل لتلافى الاصطدام بين اندفاعات الشعب وبين القوى الغالبة فى مصر اصطداما عجز الكل حتى اليوم عن تقدير نتائجه : أهو ينتهى الى تحطيم قوة الغالبين وقيام مصر الى جانبهم قوية اليد كما أنها قوية النفس ، أم هو ينتهى الى تحطيم أمل النفس المصرية فى بلوغ المكانة التى تطمع فيها ؟ واذا تحطم أمل أمة فترت أجيالا بعد

أجيال عن بعثه واستعادته ، حتى يكون ظرف جديد يعين على هذا البعث ويدفع الى نفس الأمة الأمل حارا قويا ينبض به قلبها ثم يندفق ثورة قوية تخلع النفس وتحطم القيود .

وكان هذان الرجلان ، رجل الدعوة الى المثل الأعلى ورجل السياسة والسلم، خصمين فى أكثر الظروف. وكانت الجماهير بطبيعتها نصيرة أبدا للمثل الأعلى لأنه غذاؤها فى الحياة بل هو حياتها بالذات. أما السياسى الذى يزن القوى ويفاضلها ويعمل للوصول الى خير ماءمكن أن تصل اليه بلاده بالحوادث اللاحقة هى التى تحكم عليه أو له . ولقد كان بطرس باشا غالى سياسيا ، وكان من أكثر المصريين اتصالا بحوادث عصره من ناحيتها السياسية . فلنجعل للحوادث وحدها الحكم عليه ، ولتكن كلمة التاريخ كلمة حق وانصاف .

* * *

ولد بطرس غالى بالقاهرة فى ١٢ مايو سنة ١٨٤٦ وتلقى دراسته الأولى فى مدرسة حارة السقايين التى أنشأها الأنبا كيرلس الرابع الملقب عند الأقباط بأبى الاصلاح . وبعد ثمانى سنوات أمضاها فى هذه المدرسة انتقل الى مدرسة مصطفى فاضل باشا ، وكان له من الصلة بهـا أن والده غالى بك نيروز كان يشتغل فى دائرة مصطفى فاضل . فلما تخرج منها اشتغل مدرسا بمدرسة حارة السقايين وظل مع ذلك يتلقى علوم الترجمة التى أنشأها المرحوم رفاعة باشا .

وكان فى أثناء دراســته مثلا للذكاء ولقوة الذاكرة المنقطعة النظـير : كان يكفيه أن يقرأ مايدرس له مرتين أو ثلاث مرات ليستظهره استظهارا تاما . ويسرت له قوة ذاكرته العلم باللغات

المختلفة . فقد أتقن العربية والفرنسية والتركية والفارسية . وهاتان اللغتان الأخيرتان أتقنهما على أحد تجار خان الخليلى ، اذ كان يتلقى عليه مقابل دفع (شبرقته) له . ثم انه تعلم اللغة القبطية بعد الثلاثين من سنه لمناسبة تدل ، الى جانب قوة الذاكرة ، على قوة فى الارادة امتاز بها . ذلك انه سافر الى انكلترا فقابله أحـد العلماء العارفين باللغة القبطية . ولما علم أنه قبطى كلمه بها فلم يجبه ، ولكنه لم يلبث بعد أن عاد الى مصر أن أكب على دراستها . فلم تمض ستة أشهر حتى كتب لصاحبه العالم الانكليزى خطابا بها .

وأعانه فى الحياة الى جانب ذكائه وقوة ذاكرته ومضاء ارادته صحة متينة كان يدل عليها طول قامته وعضله المفتول . كما كان بريق عينيه بريقا عجيبا يدل على ذكائه وحيلته . لذلك لم يكد يتخطى أوليات الشباب حتى عرفه أولو الأمر يومئذ وعهد اليه بأعمال ذات خطر ومسؤولية . فقد دخل فى مسابقة حين كان مدرسا بمدرسة حارة السقايين انتقل بها الى وظيفة كاتب بمجلس تجار الاسكندرية الذى حلت المحكمة المختلطة بعد ذلك محله . وجعل يرتقى من وظيفته هذه حتى صار رئيس كتاب المجلس الذى حكم سنة ١٨٧٣ فى قضية ضد مصلحة أحد المحسوبين على اسماعيل باشا المفتش . واذا كان مجلس التجار تابعا لنظارة الداخلية ، فقد أوصل المفتش الأمر الى ناظرها شريف باشا وأبلغه أن بطرس غالى كان صاحب اليـد فى اصدار ذلك الحكم الجائر . فدعا الناظر بطرس اليه فأعجبته مناقشته كما أعجب بمعرفته للغات ، ولذلك نقله من عمله وعينه رئيسا لكتاب

نظارة الحقانية التى كلف شريف بانشائها استعدادا لتطبيق نظام الاصلاح القضائى الجديد .

وكانت سنة ١٨٧٤ سنة نشاط كبير فى الحقانية بسبب التحضير لانشاء المحاكم المختلطة . وكان المغفور له محمد قدرى باشا مشتغلا بترجمة قوانين هذه المحاكم الى اللغة العربية . فانضم اليه بطرس وعنى واياه بتعريب التشريع الذى ما يزال أكثره ساريا فى مصر الى الوقت الحاضر .

وأتاح له الاشتغال فى التحضير للمحاكم المختلطة التعرف الى رئيس النظار نوبار باشا ، فكان لاتصاله به ذا أثر كبير فى تكوينه السياسى . وما فتىء هذا الاتصال بينهما وثيقا مستمرا داعيا الى ثقة نوبار بباشكاتب الحقانية ، حتى كان هو أول من اختاره ليكون ناظرا للخارجية فى وزارته التى ألفها سنة ١٨٩٥ بعد أن اختاره رياض باشا قبل ذلك ومنذ سنة ١٨٩٣ ليكون ناظرا للمالية .

ويرجع اختيار رياض باشا اياه لوزارة المالية ، الى سبب خاص : ذلك أنه لما انتهت الحكومة المصرية من انشاء المحاكم المختلطة فى سنة ١٨٧٥ كانت على أبواب الضائقة المالية التى جرتها اليها الاستدانة الفادحة منذ أول حكم المغفور له اسماعيل باشا فى سنة ١٨٦٣ . ففى سنة ١٨٧٦ صدر القانون بتأليف صندوق الدين وبتعيين المراقبين الماليين . لكن هذا القانون لم يخفف من وطأة الديون شيئا ولم يرفع من الضغط على دافعى الضرائب وارهاقهم بأقسى وسائل الارهاق وأبعدها عن كل معانى الانسانية ، ثم استيلاء صندوق الدين على كل ما كان يحصل ، حتى اضطرت الحكومة الى عدم دفع مرتبات

الموظفين عاجمل أحد الانكليز الموظفين فيها يومئذ يكتب فى مذكراته أنه قضى يومين لم يدخل فمه فيها طعام لاعوازه الى كل ما يسد به رمقه . واذ كان الدائنون الأجانب مع ذلك مصرين على اقتضاء مصر كل تعهدات ولى نعمتها ، فقد انتهوا الى الاتفاق على تشكيل لجنة للفحص ثم لتصفية ديون مصر . وعين رياض باشـا نائبا عن الحكومة المصرية فى اللجنة المذكورة وعين بطرس بك غالى السكرتير العام لنظارة الحقانية مساعدا ثم عين رياض رئيسا للجنة وعهد الى بطرس بالنيابة عن الحكومة . وفى ذلك الظرف الدقيق اضطر الى أن يدرس من مباحث اللجنة ومن الشؤون المالية ما مكنه من أن يضع تقريرا عن نظام الضرائب فى مصر كان بعد ذلك مرجعا ينقل عنه وحجة يعتمد عليها .

ولما انتهت الحوادث التى تلت تقرير لجنة المالية الى اقصاء المغفور له اسماعيل باشـا عن العرش فخلفه توفيق فيه كانت الحكومة قد بدأت تفكر فى الغاء المجالس القضائية القديمة وفى انشاء نظام قضائى جديد هو النظام القائم الآن . واذ كان بطرس ممن عملوا فى التشريع للقضاء المختلط فـكان طبيعيا أن يكون على رأس الذين يعملون للتشريع للقضاء الأهلى . لذلك عين فى سنة ١٨٨١ وكيلا للحقانية وألقى عليه عبء تنفيذ النظام القضائى الجديد .

والى يومئذ كانت مناصب الحكم فى أعمال الدولة لا يليها الا المسلمون . فأما الأقباط فكانوا يلون وظائف انجاز أعمال الحكومة . فكانت المناصب الكتابية وما اليها مفتوحة وحدها أمامهم . فأما القضاء وادارة الأعمال العامة فكانت وقفا على أبناء الأغلبية الدينية

فى البلاد . ويسير تفسير هذا التقسيم فى ذلك الظرف الذى كان الحكم فيه للأتراك والذى كان الحاكم فيه تابعا لدولة الخلافة الاسلامية . على أن بطرس غالى رأى فى ذلك منافاة لروح الزمن ، وبخاصة فى عصر بدأت مصر تنقل فيه النظم الأوربية بانشاء المحاكم المختلطة وبخضوع المصريين لقضاء جماعة لا يختلفون عنهم فى الدين فقط ، بل فى الجنسية وفى اللغة أيضا . لهذا عين حين وجوده فى الحقانية عددا من الأقباط فى وظائف القضاء . ولعل هذا التصرف وما اليه من مثله هو مادعا جماعة من الذين خاصموه أثناء حياته لاتهامه بالتحيز لأهل طائفته .

وبقى فى وكالة الحقانية حتى عين ناظرا للمالية فى سنة ١٨٩٣ . على أن أحوال مصر السياسية تغيرت فى هذه الفترة تغيرا كبيرا كان لبطرس بك غالى رأى فيه معروف . ذلك أنه لما حدثت الثورة العرابية وانتهت الى تدخل الانكليز وهزيمة العرابيين فى التل الكبير وتشاورهم فى الأمر كان من رأى بطرس أن يلتمسوا عفو الخديو وأن يركنوا اليه . وقد أوفده القوم يومئذ بعريضة الى الخديو توفيق فيها هذا المعنى . ومع أنه لم يظهر له عمل مباشر فى الثورة ، مما يدل على أنه لم يكن من المطمئنين اليها ، فان التجاء العرابيين اليه يدل على أنه كان موضع عناية الخديو توفيق وعطفه كما يدل من جهة أخرى على أن ذكاءه وفطنته السياسية كانا موضع تقدير الذين التجأوا اليه ورأوا فيه خير وسيط للتفاهم بينهم وبين الحاكم الذى ثاروا عليه .

وحياة بطرس باشا كانت كلها بعد ذلك حياة وساطة سياسية

لم تكن الحاجة اليها ماسة أيام حكم توفيق لما كان بينه وبين الانكليز من تمام التفاهم ، ولكنها كانت ضرورية وكانت منتجة أيام حكم الخديو عباس الذى كان يثق به ويطمئن اليه فى حل الخلاف الكثير الحدوث بينه وبين لورد كرومر قنصل انجلترا الجنرال فى مصر .

ولعل الحوادث التى مرت بمصر وشهدها بطرس باشا قبل أن يصل الى منصب الوزارة كانت ذات أثر كبير فى توجيه سياسته وزيرا . فقد حضر نائبا عن الحكومة المصرية فى لجنة التصفية ووقف على ميول الأجانب وعلى أطماعهم ، ثم رأى جهود اسماعيل للوقوف فى وجه تدخلهم باسم مصلحة الدائنين تنتهى الى اقصائه عن العرش . ثم انه حضر وشهد تطورات الثورة العرابية وما آلت اليه من تشتيت الثوار والحكم على زعمائهم بالاعدام واستبدال ذلك الحكم بالنفي . وكان بعد ذلك على اتصال بالمؤتمرات والمحادثات التى حصلت بقصد جلاء الجيوش الانجليزية عن مصر ، وما كان من وعود الانجليز فى ذلك وتدخلهم برغم هذه الوعود فى الشؤون المصرية ووضعهم يدهم على الادارة المصرية . ثم كانت بعد ذلك حادثة فرمان الخديو عباس ووقوف انجلترا فى وجه تركيا باسم الدفاع عن حقوق مصر ، كما كانت حادثة الحدود واعتذار الخديو عباس رغم اعتزازه بملكه الشاب للقائد كتشنر . وبطرس باشا كان على ذكائه وقوة ارادته وسعة حيلته رجل سلم وعمل مطمئن ، مما جعله بعيدا عن الحركة العرابية الى أن جاء دور السلم والوساطة ، كما كان من طائفة الاقلية الدينية فى وقت كانت النعرة الدينية فيه متغلبة على كل نعرة أخرى . أضف الى هذا كله اتصاله بنوبار وتكوين عقله تكوينا سياسيا

لا تكوين زعامة شعبية مقصور غرضها على الدعوة للمثل الأعلى هذه الظروف كلها تفسر لك سياسته من بعد ارتقائه الى منصب وزارة المالية فى سنة ١٨٩٣ وانتقاله الى وزارة الخارجية بعد ذلك وبقائه فيها حتى مع تقلده رياسة الوزارة فى سنة ١٩٠٨ برغم ما جرت به سنة الوزارات المصرية من تقلد رئيس الوزراء لوزارة الداخلية .

وتشهد ظروف تقلده الوزارة بأنه كان ، برغم ما قدمنا من ميله للسلم وللحيلة ، موضع ثقة الخديو الشاب عباس . فلقد كانت أول وزارة اختير بطرس لها وزارة فخرى باشا التى أحلها عباس محل وزارة مصطفى فهمى فى سنة ١٨٩٣ رغم لورد كرومر والتى لم تبق لذلك فى مناصب الحكم غير يوم واحد . ثم انه حل بعد ذلك محل ثقته أن رأى فيه خير وسيط يحل المشكلات التى كانت كثيرة الحدوث بينه وبين لورد كرومر . على أن عمله فى وزارة المالية وفى وزارة الخارجية ظل عمل موظف أمين كفء حريص على بقاء المساواة فى المعاملة بين المصريين جميعا من غير تمييز بينهم بسبب الجنس أو الدين من غير أن يبرز ليكون محلا لحكم التاريخ حتى كانت سنة ١٨٩٩ اذ وقع مع انكلترا فى ١٩ يناير اتفاقية السودان التى كانت بعض ما حاربه به خصومه فى حياته وبعض ما اتخذه قاتله ابراهيم ناصف الوردانى حجة له فى اقدامه على ارتكاب جريمة القتل السياسى ، والتى ما تزال موضع حنق المصريين عليها ونظر كثيرين منهم لها على أنها عمل من أعمال خيانة الوطن .

وقد نعجب اذ نرى بطرس غالى لم يكن فى سنة ١٨٩٩ الا ناظرا

للخارجية متضامنا مع سائر زملائه النظار فى سياسة الدولة العامة يحمل وحده وزر هذه الاتفاقية . فاخلاء السودان فى سنة ١٨٨٤ بأمر انكلترا واستعادة فتحه بعد ذلك بأمر انكلترا أيضا لم يكن من عمل نظارة الخارجية وحدها ، بل كان من عمل مجلس النظارة كله . وقد كان بطرس وزير المالية فى سنة ١٨٩٣ مع فخرى ثم مع رياض باشا الذى ألف الوزارة حلا للاشكال بين الخديو ولورد كرومر ، ثم انتقل وزيرا للخارجية لما شكل نوبار الوزارة فى سنة ١٨٩٤ وظل فى منصبه بعد استقاله نوبار وحين شكل مصطفى باشا فهمى الوزارة من جديد . وفى هـذه الأثناء كانت الأعمال لاستعادة السودان جارية حتى سقطت الخرطوم وأم درمان وتمت استعادة السودان فى سنة ١٨٩٨ ، فهل يسأل وزير الخارجية وحده اذا هو وقع بعد ذلك اتفاقا باسم حكومته !.

كان خصومه يقولون : ولكنه المسئول الأول والمباشر ، فهو الذى وقع باسمه وبيده . ثم انه فضلا عن ذلك كان أكثر من كل الوزراء الذين معه مسئولية لأنه كان أقواهم وأذكاهم وأقدرهم . بل لعله هو الذى أقنعهم بالقبول . وماذا تريد من مصطفى فهمى والذين كانوا معه وهم كانوا مثل الاستكانة والضعف . لقد كان بطرس هو العنصر القوى الوحيد فيهم ، فهولذلك مسئول دونهم . ثم لنقل الحق أيضا : ان بطرس قبطى وكان للأقباط زعيما ، والأقباط كانوا يومئذ وفى نظر دعاة الحركة الوطنية المصرية متهمين بممالأة الانكليز على بلادهم . فبطرس اذن قد وقع اتفاقية السودان ممالأة للانكليز وتفريطا فى حقوق بلاده .

كذلك كان يقول خصوم بطرس . وكذلك ما يزال البعض يحسب ، ولو فى دخيلة نفسه ، حرصا على وحدة الأمة المقدسة فى الأيام الحاضرة . لكن التاريخ حكما آخر تجب الجاهرة به احقاقا للحق ؛ فمصر يوم اتفاقيـــة السودان كانت تابعة لتركيا وكانت لا تستطيع أن تمضى اتفاقا تنقص به من سلطتها أو سيادتها على أى جزء من الأجزاء التابعة لها ، أو التى كانت تابعة لها وعادت اليها . وقد أبلغت الحكومة المصرية حكومة الباب العالى ان انكلترا تريد أن تتفق مع مصر اتفاقا مقصورا على ادارة السودان ، لتتمكن بذلك من الغاء الامتيازات الأجنبية فيه ولتستطيع بما تبيحه لها الشركة فى الادارة أن تسهر على أملاكها الافريقية من غير أن يضر ذلك حقوق مصر فى السودان باعتباره ولاية منها تابعة لحكم الخديو . وبالرغم من تكرار الكتابة فى هذا الأمر الى الحكومة التركية فانها لم تحرك ساكنا ولم تشر بنصيحة ولم تظهر مجرد استعدادها لتعضيد مصر اذا هى وقفت بازاء انكلترا موقفا خاصا . وعلى ذلك ألفت مصر نفسها وحيدة بازاء انكلترا مضطرة أن تحل معها هذه العقدة بعد أن كانت فرنسا قد ضربت قبيل ذلك فى حادثة فاشودة بما قطع كل رجاء فى مداخلتها كما انقطع الرجاء فى مداخلة غيرها من الدول . مع هذا لم يخرج اتفاق يناير سنة ١٨٩٩ السودان من ولاية صاحب عرش مصر ولم يجعل انكلترا شريكة فيه . بل هو اتفاق مقصور على ادارة السودان بنصه وبتفسير لورد كرومر وغير لورد كرومر من كتاب الانكليز وساستهم اياه وبتنفيذه فى المدة التى تلت عقده . فقد كان حاكم السودان العام ، برغم أنه حاكم عسكرى فى بلاد

خاضعة للحكم العرفى ، لاينفذ أمرا ولا ينشر قانونا الا بعد أن يبعث به الى مجلس النظار فى القــاهرة وبعد أن يرد المجلس اليه الأمر أو القانون أو الارادة السنية كما هى أو منقحة بمــا تراه الوزارة المصرية . فاذا كان قد حــدث بعــد ذلك أن استفادت السلطة الانكليزية من ضعف الوزارات التى وليت الحكم فى مصر وأن مدت ادعاءاتها الى أكثر مما يبيحه اتفاق سنة ١٨٩٩ ، فليس الذى وقع الاتفاق المذكور فى الظروف التى أشرنا اليها مسئولا عن شىء منها .

هذا هو حكم التاريخ ، وهو الحق فى أمر اتفاقية السودان وموقف بطرس باشا غالى منها . على أن ما تلاها من نشاط الحركة الوطنية بزعامة المغفور له مصطفى باشا كامل ومن طعنها على المعاهدة واتخاذها ذريعة للهجوم والمقاومة ، جعل الوزارة المصرية أشد ميلا للتفاهم مع الانكليز تفاهما يخفف من حدة هذه الحركة ان كان ذلك مستطاعا ، ويقف فى وجه طغيانها على النظام وعلى الأمن اذا خشى منها عليها ، ويعطى لاتفاقية السودان معنى غير معناها الأول يخول انكلترا فيه سلطانا لم يقصد الاتفاق تخويلها اياه .

وكانت الحركة الوطنية فى ذلك الحين متجهة الى الاستفادة من خلاف الدول ، معتمدة على ما يمكن أن يكون لتدخل فرنسا من قيمة فى تحرير مصر . وبرغم فشل مرشان عند فاشودة وانسحابه وتضعضع سلطان فرنسا لهذا السبب ، فقد ظلت أنظار مصطفى كامل ورجال الحزب الوطنى متجهة صوب باريس حتى سنة ١٩٠٤ حين عقد الاتفاق الودى الذى التزمت به فرنسا ألا تعترض انكلترا فى مصر . فلما تم هذا الاتفاق شعر المصريون جميعا بازدياد مركز

انكلترا فى مصر قوة . وكان النظار المصريون المتصلون بالسلطة الانكليزية فى مصر بسبب مراكزهم أكثر من غيرهم شعورا بهذه القوة بل ايمانا بها واستعدادا لتقديم القرابين لتهدئة ثوائر غضبها .

وفى هذه الظروف بلغ سلطان انكلترا فى مصر أوج قوته . فلم يكن أمر ما ، بالغة ما بلغت تفاهته ، يبرم أو ينقض من غير اقرارهم عن طريق موظفيهم الذين احتلوا كل مناصب الدولة الرئيسية والذين كانت لهم الكلمة النافذة على الموظفين المصريين مهما يكن منصب الموظف الانكليزى صغيرا ومنصب الموظف المصرى كبيرا . كان تلغراف جرانفل ، الذى يقرر أن مشورة انكلترا واجبة الاتباع فى مصر ، لا يقف عندما تبديه الدولة المحتلة عن طريق عميدها من رأى ، بل يمتد الى المستشار الانكليزى والى مفتش الداخلية والى ملاحظ الطرق والى كل انكليزى أيا كانت مكانته . وبازاء هـذا السلطان الانكليزى النافذ فى مصر كانت الحركة الوطنية المصرية تنمو وتقوى ، وكانت الثورة النفسية لشعب مصر الوادع الذى لا يقبل مذلة ولا خضوعا قد ملأت النفوس حتى كادت تفيض عنها . وكمظهر لهذا التنافر بين السلطة الحاكمة من ناحية والشعب المصرى من ناحية أخرى ، وقعت حادثة دنشواى باصطدام جماعة من الضباط الانكليز الذين كانوا يصيدون الحمام أثناء ذهابهم من القاهرة الى الاسكندرية مع أهل قرية دنشواى فى يونيو سنة ١٩٠٦ اصطداما انتهى الى موت الكابتن بول الانكليزى ، والى تأليف المحكمة المخصوصة برياسة بطرس باشـا غالى الذى كان وزيرا للحقانية بالنيابة لغياب وزير الحقانية بالأجازة ، والى صدور تنفيذ ذلك الحكم

الجائر الذى يعتبر مثلا من أمثلة البربرية والوحشية فى أشد عصور الانسانية ظلاما ، والذى أعدم بموجبه أربعة وجلد ثمانية أمام أنظار أهل دنشواى المفجوعين فى أهلهم وعائليهم ، عـدا الذين زجوا منهم فى غيابات السجون .

وكانت رياسة بطرس باشا للمحكمة المخصوصة التى أصدرت الحكم مما أخذ به وليم عليه ، ولكن دون لومه ومؤاخذته على اتفاقية السودان . ويقول المدافعون عن بطرس باشا فى هذه المسألة : ان حكم دنشواى كان حكما سياسيا أملته السلطة الانكليزية التى أمرت بارسال المشانق قبل أن يصدر ، اذ أرادت أن تضرب مثل صرامة وحزم — وانه كان صادرا من أغلبية انكليزية لأعضاء المحكمة ، فلم يكن للأقلية الموجودة فيها ، بحكم القانون ، بد من قراره وتوقيعه . وبطرس باشا كان رئيسا للمحكمة المخصوصة بحكم القانون الذى ألقى بهذه الرياسة الى ناظر الحقانية ، فكان لا مفر له من الخضوع لرأى أغلبية الهيئة التى يرأسها والتى أصدرت ذلك الحكم الجائر .

وهذا الدفاع على ظاهره من الوجاهة لا ينهض حجة لتبرير عمل بطرس باشا الا اذا كان هو معتقدا عدالة الحكم الذى أصـدره وانسانية تنفيذه مما لا يصدق على رجل كان له من عواطف الخير والانسانية ما كان لبطرس . ذلك بأن الرجل الذى يجلس رئيسا لهيئة قضائية يعهد اليها بتطبيق العدل يجب ألا يخضع لصوت غير صوت الضمير ولاعتبار غير اعتبار العدل المجرد من كل هوى . فأما ان كانت المحكمة المخصوصة ليست هيئة قضائية وكانت صورة هزلية لعدل لا وجود له وانما تملى السياسة أحكامه ، فكان حريا برجل له

ما كان لبطرس من دهاء ومقدرة أن يصل من تخفيف الجور الى أقل حدوده وألا يرضى هذا التنفيذ الذى بعث الى قلب الانسانية جمعاء رعشة اشمئزاز وتقزز واستفز فى نفسها أشد المقت لعمل لا يمكن أن يكون من الانسانيـــة المهـــذبة ولا من الانسانيـــة المتوحشة فى شىء .

وكان حكم دنشواى خاتمة سيئة لحياة سياسى ماهر هو لورد كرومر . فعلى أثر صدوره وتنفيذه بدأت مكانة انكلترا ، كأمة مدنية ونظام ، تتزعزع فى نفوس المصريين على اختلاف طبقاتهم . وبعد أن كانت الوكالة البريطانية معتبرة ملجأ العدالة فى مصر وكانت ألوف العرائض والشكاوى ترفع اليها طلبا للنصفة من ظلم الحكام بل من حيف القضاء ، تراجع المتظلمون مذعورين أن فتحت أشباح المشانق والمشنوقين والمجالد والمجلودين عيونهم على منظر بشع يتردد الانسان فى التحديق به بل يولى منه فرارا ويمتلىء منه رعبا . لذلك لم تطق الوزارة الانجليزية أن تؤيد عميدها فى مصر فاضطر الى الاستقالة فى مارس سنة ١٩٠٧ كما اضطرت الحكومة البريطانية الى الموافقة على العفو ، بفضل جهاد مصطفى كامل ، عن مسجونى الدنشويين .

وخلف السير الدون غورست لورد كرومر كعميد لانكلترا فى مصر ، وأراد أن يسلك فيها سياسة أخرى هى التقرب الى الخديو الذى كان مؤيدا حتى يومئذ لمصطفى كامل وللحركة الوطنية . وربما خيل الى السير غورست يومئذ أن الخديو كان قديرا على توجيه حركة مصطفى كامل وجهة أخرى مادام هو الذى خلق هذه الحركة

وغذاها ، متناسيا أن الزعيم الشعبي مرتبط دائما بالمبادىء والمثل العليا التى نادى بها ولو اعتقد عدم امكان تنفيذها . أو لعله قصد بسياسة الاتفاق مع الخديو الى ما حدث بعدها من انفصال الحزب الوطنى عن عباس الثانى ووقوفه منه موقف العداوة الصريحة فى بعض الظروف . على كل حال فقد خلقت سياسة جورست فى مصر جوا جديدا ووجهت الأنظار الى نواح لم تكن تتجه اليها طويلا من قبل .

ومما اتجهت اليه الأنظار يومئذ اتجاها خاصا المطالبة بالدستور وتقرير سيادة الأمة . فقد تألف حزب الأمة وجعلت الجريدة ، وعلى رأسها الأستاذ لطفى بك السيد ، يدعون الى الدستور بكل ما لديهم من قوة ، ويدللون على فساد نظام مجلس الشورى فسادا بينا . واذ كان حزب الأمة يعبر عن الرأى المعتدل فى مصر فلم يكن فى مقدور الحكومة ألا تستمع له فى هذا الشأن . لكن وزارة مصطفى فهمى كانت قد سلخت فى دست الأحكام ثلاث عشرة سنة منفذة لسياسة خاصة لاتتفق مع السياسة الجديدة التى جاء بها السير جورست ولا تتفق مع تطور المطامع المصرية . لذلك استقالت فى سنة ١٩٠٨ وعهد الخديو الى بطرس باشا بتشكيل الوزارة الجديدة . فشكلها ، وكانت فاتحة أعماله فيها أن قررت الحكومة علنية جلسات مجلس الشورى وحضور الوزارة المجلس لمناقشة أعماله وللاجابة على ما يوجه اليها من الأسئلة ، وأن عينت البرنس حسين كامل (المغفور له السلطان حسين) رئيسا للمجلس زيادة لهيبته واحترامه . لكن هذه الخطوة الأولى كانت دون ما تطلب

الأمة بمراحل ، فلم تخفف لذلك من المطـالبة بالدستور بل زادتها قوة واندفاعا . واذ كان بطرس يميل الى تحقيق هذا المطلب فقد سعى سعيه لدى معتمـد انكلترا كى يضع نظاما يقـرب مصر من الحكم الذاتى .

وكان السير جورست لما يصل أمام الرأى العام البريطانى الى شيء من مثل مكانة لورد كرومر . لذلك رأى أن حركة الصحافة حركة عنيفة فى مصر قد تحول بينه وبين موافقة الحكومة البريطانية على طلب الحكومة المصرية ، كما رأى أن حالة الأمن ليست كذلك مما يؤيده عنـد وزارة خارجيته . لذلك طلب أن يبعث قانون الصحافة الذى سن فى سنة ١٨٨٢ مبيحا للادارة حق انذار الصحف وتعطيلها ، وأن يوضع قانون النفى الادارى لارهاب الجنـاة . والظاهر أن حرص بطرس باشا على تحقيق خطوة جديدة فى سبيل الحكم الذاتى كان شديدا . وكثيرا ما يلجأ السياسى الشديد الحرص على تحقيق غاية معينة يراها ذات خطر فى حياة أمته ، الى قبول أشياء لا يقبلها غيره ، ما دام يعتقدها أشياء مؤقتة قليلا ضررها الى جانب الغاية العظيمة المرجوة . لذلك لجأ بطرس بازاء رفض زميليه سعد زغلول ومحمد سعيد لطلب المعتمد البريطانى بعث قانون الصحافة واصدار قانون النفى الادارى ، الى وساطة الخـديو عندهما ، فأوفد سموه من رجاله من أقنعوهما . فصدر القانونان فى سنة ١٩٠٩ فأحدث صدورهما فى البـلاد دويا هائلا ووقفت الصحافة ووقف الرأى العـام يندبان الحرية المضـاعة بغير ثمن الا ارضاء المطامع الانكليزية فى حرصها على قهر مصر واذلالها .

وامتدت هذه الضجة الى تناول مسألة كانت تتناول الوقت بعد الوقت فى الصحف ، ولكنها تنوولت هذه المرة بحدة لم يسبق لها نظير ؛ ذلك أن الصحافة القبطية فى مصر كانت تدافع دائما عن بطرس باشا وكانت تتهم الصحافة الاسلامية بالتعصب الدينى فى مهاجمتها اياه . وكانت النعرة الدينية قوية فى ذلك الحين كما قدمنا . لذلك كانت العصبية الدينية تدفع الكتاب الى حدود غير معقولة ولكن لها نظائرها حتى فى أشد الأمم تحضرا . وأقرب هذه النظائر ما لا يزال يبدو الوقت بعد الوقت فى صحافة الأمم المسيحية خاصا باليهود . وكانت بعض الصحف الاسلامية من جانبها لا تنى عن مجاراة الصحف القبطية فى هذا المضمار وسبقها . على أن ما وقفنا عليه من مصادر مختلفة أكثرها اسلامى يقنعنا بأن بطرس باشا لم يكن متعصبا لأبناء طائفته تعصب عداوة لأغلبية البلاد الدينية . يؤيد ذلك أنه لما أنشأ الجمعية الخيرية القبطية فى سنة ١٨٨١ كان من بين الخطباء يوم افتتاحها الأستاذ الشيخ محمد عبده والشيخ محمد النجار وعبد الله نديم وغيرهم ، وأنه كان بعد ذلك عظيم الوفاء لكثير من أصدقائه المسلمين متصل البر بكثير من العائلات الاسلامية . من ذلك أنه كان أول من ذهب الى المغفور له الشيخ سليم البشرى على أثر اقالة الخديو اياه من مشيخة الأزهر يسأله مايستطيع أن يقدمه له من خدمة . وكان كثيرا ما يقضى حاجات أفراد من المسلمين من غير أن تكون له بهم كبير معرفة ، كما كان يصلهم صلة أبناء طائفته . على أن بره بأبناء طائفته أمر طبيعى . وخير ما سمعنا عنه فى هذا أنه كان يتوافى للأقباط جميعا كما كان يتوافى لأفراد من المسلمين ،

وأنه هو الذى صنع الطائفة القبطية فرفعها من مستواها الضعيف الذى كانت فيه الى مستوى أسمى منه بكثير . فالجمعيات القبطية والمدارس القبطية والمنشآت الخيرية القبطية يرجع الفضل فى أكثرها له هو أكثر مما يرجع لأى شخص آخر ، كما يرجع الفضل له فى فتح أبواب الوظائف العامة للأقباط أسوة بالمسلمين .

واستمر يتابع ، بالاتفاق مع المعتمد الانكليزى ، وضع النظام الجديد للهيئة النيابية المصرية . وقبل أن يتمه كى يصدر القانون به طلبت شركة قناة السويس من الحكومة المصرية مد امتيازها أربعين سنة أخرى بعد سنة ١٨٦٩ . وكانت الحكومة المصرية يومئذ مستعدة لقبول الطلب . لكن حركة الرأى العام المصرى فى هذا الشأن كانت قوية اضطر أولو الأمر معها أن يعرضوا المشروع على الجمعية العمومية المصرية وأن يعدوا بأن يكون رأيها فيه قطعيا . وفى أثناء نظر هذا المشروع بالجمعية وفى فرصة هياج الرأى العام وتوتر أعصابه ، فكر ابراهيم ناصف الوردانى فى قتل بطرس معتبرا اياه خائنا لوطنه بسبب توقيعه اتفاقية السودان ورياسته محكمة دنشواى روت « الجريدة » الصادرة فى ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ وصفا للحادث ما نصه : « بقى — الباشا — كذلك حتى كان يوم أمس نزل كعادته فى جماعة من الموظفين ، وعند باب نظارة الحقانية صافحهم وانصرف ومعه النائب العمومى ، فما كاد يضع رجله على سلم عربته حتى أصابه الرصاص المتعاقب من غدارة شاب لعب الشباب برأسه وتصور ما تصور وتجسمت فى نفسه الخيالات فلم ترعه هيبة الوزير ولا وقار الشيخ ولا خوف العقاب ... أصابه الرصاص فى العنق والكتف

. والبطن فخر صريعا فحمل الى أودة ناظر الحقانية ثم الى مستشفى الدكتور ملتون . وهناك زاره سمو الخديو وجميع الوزراء والسير جورست والأمراء واعيان الأمة وكلهم يرجون له الشفاء العاجل . فلما كانت الساعة السادسة عملت له عملية جراحية لاخراج الرصاصة الباقية ، ولكن كانت ، مع الأسف ، قد نسفت الأمعاء ونفذت فى صدر المعدة » .

وقضى رحمه الله فى الساعة الثامنة والربع من صبيحة يوم ٢١ فبراير سنة ١٩١٠ ودفن فى اليوم التالى فى مشهد مهيب . واليوم ترقد رفاته فى كنيسته القائمة على جانب شارع الملكة نازلى الذى كان من قبل شارع عباس .

* * *

هذه حياة بطرس غالى . والقارىء يرى كيف كانت حياة سياسى عظيم ومحسن كبير . ولئن كان قد أخطأ التقدير فى بعض مواقفه فهو لم يقصد يوما الى غير خدمة بلاده . ولذلك كانت آخر كلمة فاه بها حين احتضاره « يعلم الله انى ما أردت غير الخير لبلادى » . وكانت كلمة حق .

مصطفى كامل باشا

فى عصر يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ بينما أنا جالس مع أحد زملائى طلبة مدرسة الحقوق الخديوية اذ ذاك على باب داره ، جاز الطريق أمامنا رجل يمتط جوادا ، فلما كان بأزائنا وقف برهة فحيانا وقال : «أبقى الله حياتكم ، الباشا توفى» . وكان زميلى من المتشيعين للحزب الوطنى المتطرفين فى تشيعهم . فلما سمع قول الناعى سأله فى لهفة : مصطفى باشا كامل ؟ فأجابه الرجل منطلقا جواده : نعم ! ولكم طول البقاء ! . وتركنا أنا وصاحبى واجمين من هول الخبر وان كان حديث الباشا ومرضه والخوف على حياته بعض ما تواتر فى ذلك الحين . وبعد زمن قصير تركت صاحبى عائدا الى بيتى فألفيت على الناس فى الشوارع والحوانيت من أثر الذهول ما يدل على أن نعى الباشا اليهم مس من قلوبهم أدق أوتار الحزن والألم . ولم يستقر بى المقام فى البيت دقائق حتى جاء زميل يبلغنى الخبر ويعلن الى ما قررته المدارس كلها من الاشتراك فى تشييع جنازة الزعيم العظيم : وكان يوم ١١ فبراير يوم حداد عام فى العاصمة وفى مصر كلها لم يشغل الناس شىء فيه غير جنازة الزعيم الشاب . فالمدارس والهيئات الوطنية كلها كانت تفكر فى تنظيم الجنازة ، وأهل الريف كانوا يفدون من أطراف البلاد للاشتراك فيها ، والحكومة كانت تعد وسائل الأمن والنظام ، والأجانب الذين رأوا العاصمة جللت بالسواد ورأوا أهلها اتشحوا بأسباب الحداد كانوا يفكرون فى العمق

الذى تغلغل اليه الروح الوطنى من سويداء نفس هذه الأمة . فلما سار النعش يحمله على أعناقهم أهل دنشواى الذين حكمت المحكمة المخصوصة عليهم ، ثم كان لسعى مصطفى كامل أكبر الأثر فى العفو عنهم ، صمت كل ما فى المدينة ولم يبق بها أثر لحياة الا فى مشهد وداع هذا الراحل رحلة الأبد . قال المرحوم قاسم أمين فى كلماته التى نشرت بعد موته ، أى بعد شهرين اثنين من وفاة مصطفى كامل:

« ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق : المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى .

« رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزورا مخنوقا ودهشة عصبية بادية فى الأيدى وفى الأصوات . كان الحزن على جميع الوجوه . حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط بشىء من الدهشة والذهول . ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة . منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة .

« ولكن هذا الاخاء فى الشعور بقى مكتوما فى النفوس لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز بروزا واضحا حتى يراه كل انسان .

« أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب (اللواء) فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل صدى دويها الى جميع أنحاء القطر .

« هذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذى يبتسم فى

وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرســل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو المستقبل » .

ولم يكن عجيبا أن يكتب قاسم أمين على هدوء نفسه وحسن تقديره هذا الذى كتب . ولم يكن عجيبا أن يحرك مصر من أقصاها الى أقصاها الحزن لوفاة الزعيم الشاب . فقد جاء به القدر فى فترة من فترات حياة هذا الوطن حين بدأت الأمة تنسى مظالم الماضى أيام حكم اسماعيل وتشعر بشدة وطأة الحكم البريطانى الذى قام على أساس من المصالح المادية وحدها فلم يعن الا بتخفيف الأعباء المالية ناسيا كل اعتبار غير تخفيض الضرائب . ليخيم على البلاد الجهل ، وليكون الغــرض الأسمى من التعليم خلق الموظفين ، وليشعر المصريون بافتقارهم للحاكم البريطانى ولضعفهم أمامه ، فذلك كله هين ويسير مادامت الضرائب المرهقة ومادامت السخرية والكرباج قد ألغيت . فى هذه الفترة التى شعرت فيها الأمة بالحاجة المعنوية للعزة القومية وللكرامة الانسانية ، بعث القدر مصطفى بشيرا بهذه الحاجات السامية رفيع الصوت عالى الكلمة طلق اللسان قوى الجنان حلو الأسلوب يتغنى لقومه بما تشعر به نفوسهم فى غور أعماقها . فكان طبيعيا أن يلتف الظمأى حول هذا الورد من الكلام السائغ يسمعون عنده الأناشيد التى تطرب لها نفوسهم وتهتز لها قلوبهم ويجد فيها شعورهم الحبيس منفذا ومتنفسا . ليكن ذلك الكلام غير ذى غناء ، ولتبق القوة الغاشمة قديرة على أن تسير فى طريقها ، ترفع من شأن المصالح المادية على حساب حاجات النفس المعنوية ، فلن يغير ذلك من قيمة هذا الذى يشدو باسم الوطن ومن محبــة

الناس له شيئا . ألست ترى الى الجمع الحافل من العمال يسد جوعه على مائدة ذى المال جزاء كدحه طول نهاره ، ثم ما يلبث أن يذهب لسماع الشاعر أو المغنى يروى عنده ظمأ روحه . وهو لهذا المغنى أشد حبا منه لمن يمسك عليه حياته المادية ، لأنه يحس فى الشاعر معنى انسانيا ، فى حين أن سعيه لدى المالك وجزاءه من سعيه لا يجزيه الا الابقاء على حياته الحيوانية البحتة .

لذلك كان جزاء وفاقا أن تحزن مصر على شاعر الوطنية العظيم مصطفى كامل . وكان حقا أن يرى قاسم أمين فى وحدة هذا الشعور بفقد الزعيم الشاب الذى كرس حياته ليتغنى باسم مصر وليعلن أنه وهبها حياته ، وحدة فى الأمل الكبير بمستقبل زاهر .

* * *

ولد مصطفى كامل فى سنة ١٨٧٤ ، أى فى السنة التى ولد فيها الخديو عباس حلمى الثانى . وقد بعث به أبوه على أفندى محمد ، وكان مهندسا ، الى مدرسة أم عباس ، فمدرسة القربية الابتدائيتين. حيث تلقى دراسته الأولى . وفى أواخر أيامه بهما توفى أبوه وكفله أخوه حسين واصف باشا وزير الأشغال السابق ، وبعد الدراسة الابتدائية التحق بالمدرسة التجهيزية — الخديوية الآن — لتلقى دراسته الثانوية . وفيها ظهر جريئا أكثر من زملائه جميعا . وجرأته هى التى جعلته دون سائر اخوانه يذهب بنفسه فيقابل ناظر المعارف اذ ذاك على باشا مبارك يشكو له حيف نظام الامتحان حيث أدى الى رسوبه ورسوب زملائه . واعجاب ناظر المعارف بهذه الجرأة هو الذى جعله يعدل عن هذا النظام فيؤدى ذلك الى نجاح مصطفى

وكثيرين من زملائه . فلما أتم دراسته الثانوية التحق بمدرسة الحقوق الخديوية فى العام المدرسى ١٨٩١—١٨٩٢ . ومن ذلك التاريخ بدأ ينشر رســائل ومقالات فى الصحف ، كما أنه ، على مايذكر مؤرخوه ومن بينهم مدام جوليت آدم ، ارتبط بالخديو السابق عباس حلمى الثانى برابطة كانت ذات أثر مباشر فى حياته كلها بعد ذلك .

ولم يكن مصطفى كامل هو وحده الشاب الذى اصطفاه عباس الثانى ، ولا كان هو وحده الذى أثر ارتباطه به فى حياته ، بل لقد اصطفى كثيرين من الشبان يومئذ ممن توسم فيهم الذكاء والاقدام فعاونهم فى دراستهم وعاونهم بعد الدراسة ، وأوفدهم الى أوربا لمهمات سياسية يؤيد بها سلطته ومركزه كحاكم مصر الشرعى . وسياسة عباس الثانى كانت معارضة تمام المعارضة لسياسة الانكليز ، فانه ما لبث أن تبوأ عرش أبيه وجده حتى وجــد ندا له فى قصر الدوبارة لورد كرومر معتمد بريطانيا صاحبة السلطان الفعلى فى البلاد بقوتها وبجيش احتلالها وباستئثارها بكل المناصب الرئيسية فى الحكومة . وهو ما لبث أن تبوأ عرش أبيه وجده وأراد ، مدفوعا بحماسة الشباب ، أن يظهر للناس حقه وسلطانه حتى صدمته حادثة الحدود التى اضطر معها الى الاعتذار عن ملاحظته التى أبداها للقائد كتشنر حين استعراضه الجيش المصرى بالسودان . وكان المتقدمون فى السن من المصريين الذين شهدوا عهد اسماعيل ومظالم حكومته والذين رأوا حركة عرابى واشتركوا أو لم يشتركوا فيها وشهدوا فشلها وتغلب سلطان الانكليز عليها وعلى فرنسا وانفرادهم دونها

بأمر مصر — كان هؤلاء المتقدمون فى السن أشد الناس ترددا فى مشاركة الأمير الشاب ، الذى اعتلى العرش فى الثامنة عشرة من عمره ، مطامعه ومطامحه ، فلم يكن يستطيع الاعتماد الا على الذين لم يهون عليهم ظلم اسماعيل استبداد الانكليز والذين لم يضعف الجهل أو البله فى نفوسهم معنى الحرية . وكان مصطفى كامل بين هؤلاء بل كان فى مقدمتهم . فقد جمع الى الشباب اقداما جاوز حدود الاقدام مع نشاط عصبى لايهدأ الا أن يهد المرض صاحبه ويقعده عن حركته الدائمة . وهو لذلك لم يقنع بدراسة الحقوق وبكتابة المقالات فى الصحف بل أنشأ ، ومايزال فى أول سنى طلب الحقوق ، مجلة أسماها المدرسة ، صدر أول أعدادها فى ١٨ فبراير سنة ١٨٩٢ وجعل نفسه بها زعيما لزملائه فى الدرس يلقى عليهم النصائح ويرشدهم الى الواجب ويقدم لهم مختلف المعلومات التى يرشده اليها اختباره الشاب فى بطون الكتب والنشرات الدورية .

وفى يونية سنة ١٨٩٢ سافر لأول مرة الى فرنسا ليؤدى امتحان الحقوق الأول بباريس . وكان طبيعيا أن تأخذ بلبه الغض حضارة الغرب وأن تؤثر فى أعصابه الحساسة مظاهر الحياة الناشطة والحرية المنظمة . وكانت فرنسا يومئذ قد أفاقت من كبوة سنة ١٨٧٠ حين قهرتها المانيا ، وجعلت تذكر فى حسرة تدليها من الصف الأول فى تصريف سياسة العالم . والشعور بالألم يحفزه الاحساس ويفيض على اللسان الشكوى والطموح والأمل . وقد تأثر مصطفى كامل بهذا أيضا كما تأثر بالحضارة وبالحرية . وزاده تأثرا معاودته الحضور للامتحان فى سنة ١٨٩٤ بباريس وفى أواخر هذه السنة بتولوز

حيث نال اجازة الحقوق . ومن ذلك اليوم انفتحت أمام خياله الشاب آفاق الحياة وآمالها . ولعل مما وجه هذه الآمال وجهتها ما وقع له مصادفة من مقابلة الكولونيل بارنج شقيق لورد كرومر ومادار بينهما من حديث كان له فى العالم السياسى قيمة وترتبت عليه حملة صحفية اشترك هو فيها فحالفه الفوز فاتجهت اليه الأنظار فرسم له القدر بذلك طريق حياته . فقد نشرت جريدة الأهرام الصادرة فى ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥ مقالا عنوانه (حديث ذو شأن) موقعا بامضاء مصطفى كامل حاويا لما دار بين المصرى الشاب وبين الضابط الانجليزى من مناقشة أفضى فيها الضابط بكل سياسة انجلترا فى مصر مؤيدة بالدليل القاطع الذى لايعرف حجة ولاجدلا : دليل قوة السيف والمدفع . وأفضى فيها المصرى الشاب بحجة مصر وحقها وباعتمادها لنيل هذا الحق على قوته وفى ذاته وعلى أوربا التى لا تنظر الى انكلترا فى وادى النيل بعين مطمئنة . ولعل هذه الفقرة من أقوال مصطفى كامل تفسر نشاطه فى المستقبل وتفسر السياسة التى اتبعها الى سنة ١٩٠٤ حين تم الاتفاق الودى بين فرنسا وانكلترا اتفاقا انضمت اليه ألمانيا والنمسا . قال مصطفى : « ان لمصر أن تأمل من أوربا نجاتها وخلاصها ..... ولنا أوربا بأسرها التى تناديها صوالحها العدة بأن تنصرنا نصرة لتلك الصوالح التى سعيتم من يوم احتلالكم البلاد فى تقويض أركانها » .

وربما كان للخديو ومصطفى كامل ولكثير من المصريين يومئذ العذر فى اعتمادهم على أوربا والتجائهم الى بعض دولها لمناوأة البعض الآخر . فلم تكن سياسة أوربا الاستعمارية قد استقرت

يومئذ على أساس ارتضته دولها الكبرى واطمأنت معه كل واحدة منها الى أنها نالت من الغنيمة الحظ الذى يكفيها ، والتى تكفى قواها للدفاع عنه ولاستغلاله وامتصاص دمه . بل كانت المنافسات ما تزال على أشدها بين انكلترا وفرنسا . وكانت ألمانيـا الناشئة متطلعة الى مثل الامبراطورية البريطانية . وكانت النمسا تنظر الى ما ضيها بين الوجل اذ تراه يرتجف . وكانت سياسة الباب العالى فى الاستانة قائمة على الاستفادة من هذه المنافسات الدولية . فلم لا تقوم سياسة مصر على هذه القاعدة أيضا ؟ ولم لا تستفيد مصر من تطلع هذه الدول جميعا اليها لتتخلص منها جميعا ولتصل الى نوع من الحيدة يكفل لها ولو الاستقلال الداخلى الواسع النطاق الذى وصل اليه اسماعيل باشا ؟ .

والواقع أن فرنسا كانت ما تزال دامية الجرح لفشل سياستها بمصر بعد احجامها عن الاشتراك مع انكلترا فى التدخل المسلح سنة ١٨٨٢ . وكان ألمها أشد لأن هذه الضربة كانت فى حكم القاضية على ما نالته فى وادى النيل من نفوذ منذ حملة نابليون فى سنة ١٨٧٩ ، ومنذ اصطفائها محمد على وسعيد من بعده ، ومنذ قيامها بحفر قناة السويس ونشر الثقافة الفرنسية فى بلاد الفراعنة . وزاد الجرح ايلاما أن الفشل لم يقف عند مصر بل تناول نفوذ فرنسا فى الشرق الأقصى بسبب تغلب انكلترا عليها فى الهنـد وفى غير الهنـد من الممتلكات .

وقد أراد الخديو مستترا وأراد مصطفى كامل أن يستفيد من هذه السياسة غاية الاستفادة . وكانت القاعدة التى رسمت أن

تطالب الدول الأوربية انكلترا بتنفيذ وعدها بالجلاء عن مصر ، وأن تدفع الدول الأوربية الى هذه المطالبة ببيان ماتقوم به انكلترا فى وادي النيل من أعمال تدل على قصدها البقاء فيه . وكان حديث مصطفى كامل مع كابتن بارنبج خطوة أولى وخطوة قوية فى هذا السبيل . ولم تمض على هذه الخطوة أسابيع حتى استصدرت انكلترا من الحكومة المصرية دكريتو بتأليف محكمة مخصوصة تحاكم المصريين الذين يعتدون على جنود جيش الاحتلال أو ضباطه . وانتهز مصطفى كامل الفرصة للاستفادة من هذا الحادث أيضا . ثم كان أن جاء مسيو دلونكل عضو مجلس النواب الفرنسى الى مصر ، فى ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ . ولعله وحده ، بل لعل الحكومة الفرنسية وحدها لم يكونا السبب فى حضوره . وقد استقبله مصطفى كامل بالاسكندرية وظل معه يصل بينه وبين المصريين من الطبقات المختلفة حتى غادر مصر عائدا الى بلاده فى ١٣ ابريل من ذلك العام . وفى يوم ١١ ابريل أولم دلنكل للصحفيين بالاسكندرية وخطبهم فرد عليه مصطفى كامل شاكرا اياه وشاكرا فرنسا منتظرا منها معونة مصر وتأييدها .

ويذكر المرحوم على بك فهمى كامل فى السيرة التى وضعها لأخيه أنه بعد أيام من ذلك وساعة سفر على مع الأورطة البيادة الأولى أسر اليه مصطفى بأنه مسافر الى باريس . وقد دهش على لهذا السفر المفاجىء على غير ميعاد وبلا سبب . وربما دهش له لسبب آخر حين ذكر له أخوه أن سفره انما تدعو اليه « المسألة المصرية » لما يقتضيه هذا السفر وهذه المسألة والدعوة لها من طائل النفقة .

وسافر مصطفى الى باريس . والحق أنه قام بالدعوة فيها بطريقة تدل على مهارة لاتتاح لفرد ، بل تدبرها جماعة ، وعلى نشاط لايؤتاه كثيرون . فذكر بديا أنه موفد من قبل الحزب الوطنى المصرى . والحزب الوطنى على ما نعرفه نحن اليوم وعلى ما خلفه مصطفى كامل فى سنة ١٩٠٨ لم يكن له وجود فى سنة ١٨٩٥ . لكن الحزب الوطنى هو الاسم الذى كان يطلق على العرابيين . واذن فهو يذكر الفرنسيين بهذا الحزب الذى تغلب عليه الانكليز وحدهم حين تنحى الفرنسيون عن وادى النيل .

ثم انه جعل أساس دعوته فضلا عن ذلاقة لسانه لوحة فنية بديعة لم يذكر لنا مؤرخوه من الذى نقشها ومن الذى أمر بنقشها ، وتمثل هذه اللوحة فرنسا واقفة فى قوس نصر قام على نصب رفيع يجرى النيل من تحته ، وقد قامت مصر على شاطئه مقيدة يحرسها جندى بريطانى ، وتقدم جماعة من المصريين الى فرنسا يستنجدونها لتفك أسار وطنهم . ونقش على اللوحة بالعربية وبالفرنسية هذه الأبيات :

أفرنسا يامن رفعت البلايا — عن شعوب تهزها ذكراك
انصرى مصر ان مصر بسوء — واحفظى النيل من مهاوى الهلاك
وانشرى فى الورى الحقائق حتى — تجتلى الخير أمة تهواك

ومن هذه اللوحة طبعت ألوف وزعت فى أنحاء العالم ونشرت فى كل صحيفة بعد أن قدمها مصطفى كامل بعريضة الى رئيس مجلس النواب الفرنسى نيابة عن المجلس . ومما جاء فى هذه العريضة قوله : « جاءت الأمة المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة — فرنسا — التى حررت عدة من الأمم ، فهل تجاب الى استغاثتها وتضرعها ؟

وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها فى العالم الاسلامى الواثق بها ؟ على أن ذكر اسم مصر عندما تكون حرة مستقلة بجانب الأمم العديدة التى حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها .. فلتحى فرنسا محررة الأمم » .

كان لهذا العمل الذى قام به مصطفى كامل نيابة عما سماه الحزب الوطنى ضجةكبيرة فى العالم لفتت اليه الأنظار من كل صوب وجعلت الصحف فى مختلف الدول تهتف باسمه ، خلا الصحف الانكليزية التى تناولت هذا العمل بالتقريع وعزته الى مقامات خاصة فىمصر . وشد هذا النجاح الأول من عزيمة مصطفى كامل ومكن له من الاتصال بكبار الساسة وما يزال فى مقتبل شبابه . وزاده جرأة واقداما فجعل يطوف عواصم أوربا يتحدث فيها الى الصحفيين والساسة مذكرا اياهم بوعود انكلترا بالجلاء عن مصر وبمصالح دولهم فى أن يتم هذا الجلاء . ثم عاد الى باريس فنشر فيها رسالة عن أخطار الاحتلال الانكليزى لمصر . وفى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٩٥ كتب الى لورد سالسبرى ردا على خطاب كان الوزير الانكليزى قد ألقاه فى جلد هول عن سياسة أوربا نحو تركيا. وفى خطابه دافع مصطفى كامل عن المسلمين وعن دولة الخلافة . وفى ٣ يناير سنة ١٨٩٦ كتب الى المستر جلادستون يطلب اليه ، رغم وجوده بعيدا عن الحكم ، تصريحا فى شأن مصر . فأجابه جلادستون بخطاب وردت فيـه العبارة المأثورة : « وافى زمن الجلاء فيما أعلم منذ سنين » . وعاد بعد ذلك الى مصر حيث أقام بها حتى أغسطس اذ شد رحاله الى أوربا من جديد. وأثناء مقامه بمصر ألقى خطابه الأول بالاسكندرية

كما كثر المتصلون به من المصريين . وفى هذه الفترة أيضا نشرت له جريدة الاكلير الفرنسية التى تصدر بباريس حديثا عن الحملة المصرية الانكليزية الى السودان معتبرا اياها وسيلة الى اطالة أمد الاحتلال الانكليزى اطالة لا نهاية لها . وفىهذه الفترة أيضا اتصل علنا بالخديو اتصالا زاد العلاقات بين لورد كرومر وعباس توترا . ثم سافر فى أول أغسطس الى باريس حيث استمر هناك فى نشر الدعوة لمصر على أمل أن يحمل فرنسا وغيرها من دول أوربا علىالتدخل لمصلحتها . وفى هذه المرة كان يذكر الخديو عباس وميوله نحو مصر وأن « خطته هى انتظار الظروف ليستعد أحسن استعداد للوثوب والنزال لاسترداد حقوق البلاد المهضومة » . ولم يغفل ذكر المسلمين والخليفة ، وبعد أن قام بنشر الدعوة فى باريس سافر الى برلين ومنها الى فينا فالآستانة حيث وصلها فى أواخر أكتوبر وقابل فيها جلالة السلطان . قال فى كتاب له الى أخيه على فهمى كامل : « وكان جلالته ، كما أبلغنى الباشكاتب ، يود الانعام على برتبة أو نيشان ولكنى أظهرت عدم رغبتى فى شىء من ذلك حتى لا تروج بضاعة الأعداء ضدى ويتهمنى أبناء الوطن العزيز بالعمل حبا فى الظهور وفى مثل هذه الألقاب الكاذبة » .

وكذلك جعل من أوربا ميدان نشاطه السياسى فكان يقضى فيها معظم شهور السنة متنقلا بين عواصمها متحدثا الى رجال الصحافة والسياسة فيها داعيا اياهم ليستوفوا انكلترا وعودها بالجلاء عن مصر متحدثا عن المصريين تارة وعن المسلمين طورا ، كل ذلك فى لهجة أدنى الى الاعتدال وان وصفها الانكليز بالتطرف . وقد بقيت

من أساليبه فى الدعاية السياسية اذ ذاك تلغرافات الاحتجاج على ضرب الاسكندرية وغير ضرب الاسكندرية من الحوادث التى أدت الى الاحتلال البريطانى لمصر . لكن السياسة الانكليزية من جانبها كانت جادة فى السعى لتحقيق ما أفضى به الكولونيل بارنج الى مصطفى كامل مما نشره فى يناير سنة ١٨٩٥ • فكانت الحملة لاسترداد السودان واسترداده بالفعل وعقد اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ وفتور الدول وفى مقدمتها فرنسا عن القيام بأى سعى جدى لمناوأة انكلترا فى مصر . ولكن ذلك لم يفت فى عضد مصطفى كامل ولم يضعف من نشاطه واقدامه وان يكن قد دعاه أو دعا الذين يعمل معهم للتفكير فى وسائل أخرى . وكان الالتجاء الى الباب العالى بعض هذه الوسائل .

ولعل التفكير فى هذا الالتجاء كان من أثر انتصار الدولة العلية فى الحرب البلقانية . وفى هذه الأثناء كثر تردد مصطفى كامل على الآستانة وازداد اعجاب السلطان عبد الحميد به فأنعم عليه فى سنة ١٨٩٩ برتبة المتمايز ثم بالرتبة الأولى ، وذلك فى ظرف شهرين اثنين كما أنعم عليه برتبة الباشوية بعد ذلك بسنين قلائل •

ولم يكن فى مقدور تركيا أن تقاوم انكلترا فى مصر أكثر مما تقاومها أية دولة من الدول الأوربية . وهذه الظروف مجتمعة دعت مصطفى كامل والذين يعمل معهم ليروا عقم سياسة الاقتصار على نشر الدعوة فى أوربا وحدها والاعتماد على الدول لاجلاء انكلترا عن مصر ، وليفكروا فى استنهاض الشعب المصرى نفسه بالتعليم وبدعوته لتقدير عزته القومية وكرامته الوطنية . وبهذه الفكرة

تأسست مدرسة مصطفى كامل فى سنة ١٨٩٩ وصدرت جريدة اللواء فى ٢ يناير سنة ١٩٠٠ . ومن ذلك الحين قامت سياسة مصطفى على أساس من توثيق عرى روابط مصر بتركيا باعتبارها الدولة المتبوعة من جهة والدولة الاسلامية القوية التى يمكن أن تتجه الشعوب الاسلامية لها بالرجاء من جهة أخرى . أما فيما يتعلق بسائر الدول الأوربية فقد ضعف رجاؤه فيها وان ظل مستمسكا منه بخيوط لعلها كانت بقية ذلك الأمل القوى القديم الذى جعله يرفع صوته عاليا خمس سنوات تباعا فى عواصم أوربا ، أو لعلها الحرص الطبيعى فى الانسان على ألا ينكر شيئا من ماضيه . أما سياسته فى استنهاض الشعب المصرى فكانت تقوم على غرس الكراهية فى نفوس المصريين للانكليز وحكمهم مصر وملء النفس المصرية بالايمان بحق الوطن وبالتفانى فى محبته والاخلاص له وبالأمل دائما فى ثمرة السعى الصالح لفائدته .

وعجيب مع ذلك كله ، ومع أن مصطفى كامل كان ذكيا جريئا ، ومع أنه أمضى ما أمضى من السنين فى أوربا ، ومع اعجابه بالمدنية الأوربية اعجابا تكرر ذكره فى كتبه ورسائله — عجيب مع ذلك أنه كان رجعيا فى دعوته الاجتماعية . فلقد ظهر كتاب المرحوم قاسم أمين عن تحرير المرأة فى سنة ١٨٩٩ . وكان منطقيا أن يلقى التأييد الحار من جريدة الزعيم الشاب أول ظهورها فى يناير سنة ١٩٠٠ . لكن الأمر كان على نقيض ذلك . فقد كان اللواء خصما لدودا لقاسم أمين ولأفكاره وكان ميدانا لأشد المطاعن عليه . وظل اللواء كذلك فى شأن الاصلاحات الاجتماعية كلها محافظا بل رجعيا مستمسكا بالقديم

أشد الاستمساك . ولئن جاز لنا أن نعلل خصومته لقاسم أمين بما لقيه قاسم من تجهم الخديو له تجهما حرم عليه وهو مستشار بمحكمة الاستئناف أن يدخل القصر فان تعليل رجعية اللواء فى الشؤون الاجتماعية قد يبدو عسيرا الا اذا كانت العلة هى بعينها التى دفعت الأمير ورجاله للوقوف فى وجه قاسم وأفكاره . هذه العلة فى رأينا هى تمليق الشعب فيما هو عزيز عليه من عادات وأوهام لاستغلاله فى الغايات السياسية التى يريد الأمراء والملوك استغلاله فيها . وتلك هى علة تمليق الأمراء والملوك والدعاة السياسيين لرجال الدين لأنهم حفظة هذه العادات والأوهام . فلو أن عباسا أو لو أن مصطفى كامل عضد قاسما فى رأيه فى تحرير المرأة لأدى ذلك الى فتور الشعب عنهم وتردده فى اتباعهم . ولو أن عباسا أو لو أن مصطفى كامل أراد أن يهز أوهام السواد فى الناحية التى تعرض الشيخ محمد عبده لهزها لفتر الشعب كذلك وتردد . والداعية السياسى تاجر يزن الأمور والحقائق بنتائجها لا بقيمتها الصحيحة ولا بما تحتويه . وما دام غرس كراهية الاحتلال البريطانى فى نفوس المصريين وملء قلوبهم بالايمان الوطنى يعوق سبيل الدعوة للاصلاح الاجتماعى فليكن الداعية السياسى وليكن الأمير محافظا بل رجعيا بل عدوا ظاهرا محاربا لكل فكرة حرة .

ونجحت دعوة مصطفى كامل أعظم نجاح . ذلك بأن نفوس الشباب فى مصر كانت متعطشة الى نغمة جديدة تحيي فيها الأمل بحياة عزيزة . وكانت هذه النغمة قد اختفت منذ الحوادث العرابية الى أن جاء مصطفى كامل . وبرغم وجود كثيرين من ذوى مقدرة لا تقل عن مقدرته وذوى تفكير أنضج من تفكيره ، فلم يكن أحد

منهم فى اقدامه ولم تكن حميـــة الشباب ملتهبة فى نفس التهابها فى نفسه . وعاون على نجاحه أسلوب جديد فى الخطابة لم يكن مألوفا من قبل ، هو الأسلوب الوجدانى الذى امتازت به خطابات الثورة الفرنساوية . هذا الأسلوب المعتمد على الجمل الضخمة التى تندفع بها المجاميع من غير روية عادة الى الغاية التى يريدها الزعماء : « لا معنى للحياة مـــع اليـــأس ، ولا معنى لليأس مع الحيـــاة » « بلادى بلادى ، لك حبى وفؤداى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنـــانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة الا بك يامصر » « لو انتقل قلبى من الشمال الى اليمين ... الخ » بهذا الأسلوب الوجدانى وبقوته الخطابية النادرة المثال وبمخاطبته شعور الشبيبة وباستنهاضه همتها وبأناشيده عن الوطن ومحبته وارتقائه ، بذلك كله استطاع الزعيم الشاب أن ينهض بأعباء دعوته مؤيدا من الخديو عباس وأصدقائه بادىء الأمر ، شاعرا بقوته بعد ذلك ، ممليا ارادته على الذين كانوا يملون من قبل عليه ارادتهم ، مستأثرا بكل أمـــر وبكل رأى ، مطاعا من كل أنصاره وأتباعه الذين لم يتسام واحد منهم ليتطلع الى مثل مكانته ، متقدما دائما الى الأمام يتبعة شباب الأمة كلها ، رافعا بذلك عـــلم النهضة مرددا نشيد الأمل فى المجد والعظمة بصوت تهتز له الأفئدة وتخفق له الجوانح فلا تعرف الخطر ولا تأبه له ولا تشعر باقترابه بل ولا بوقوعه .

وبازاء هـــذه الحركة الوطنية المتدفقة حرارة وايمانا لم يكن لانجلترا الا أن تضاعف المجهود لبلوغ غاياتها السياسية فى مصر .

ولم يكن لورد كرومر ممثلها فى مصر يومئذ بالرجل الذى يستهان به . فحارب هذه الحركة وطعنها من جانبين . واتهمها بالتعصب الاسلامى ليستثير أوربا المسيحية . واتهمها بالعداوة للأجانب ليؤلب الدول فى صف انجلترا . وما أيسر ما تصدق الأذن الأوربية كلمة التعصب الاســلامى وعداوة المصريين المسلمين للأجانب المسيحيين . لذلك أنفق مصطفى كامل كثيرا من جهوده فى مصر وفى أوربا لنفى التهمتين ، وكان من ذلك أن أنشأ جريدتين فى مصر احــداهما فرنسية والأخرى انكليزية . على أن انكلترا لم تقف من مجهوداتها عند هذا الحد . بل واصلت المسعى السياسى حتى عقدت الاتفاق الودى مع فرنسا فى ٨ يناير سنة ١٩٠٤ وبه حصلت على اطلاق يدها فى مصر على ألا تغير نظام مصر السياسى . وأقرت ألمانيا والنمسا هذا الاتفاق ، فأقرت الدول الثلاث بذلك معاهدة السودان التى عقدت فى سنة ١٨٩٩ . وبهذا الاتفاق الودى انهار ركن من أهم أركان سياسة مصطفى كامل ، بل انهار مجهوده منذ سنة ١٨٩٥ الى ســنة ١٩٠٠ حين كان كل عمله التجوال فى عواصم أوربا لاستفزاز دولها كى يقتضوا انكلترا تنفيذ وعودها بالجلاء عن وادى النيل .

والواقع أن هذا الحادث صدم المصريين يومئذ صدمة قوية . فرنسا هذه التى طالما علقت مصر عليها الآمال ، فرنسا التى رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراها ، فرنسا محررة الأمم ومعلنة حقوق الانسان والمنادية بالحرية والأخاء والمساواة ، هى التى تمضى الاتفاق الودى تؤيد به سياسة الاستعمار فتترك انكلترا تطلق يدها فى مصر

مقابل ترك انكلترا اياها تطلق يدها فى مراكش !! ياالخيبة الأمل ! وأين اذن محل الرجاء .

لكن « لا معنى للحياة مع اليأس ، ولا معنى لليأس مع الحياة » ! فلنجاهد . واستمر مصطفى كامل فى جهاده ، وما يزال له فى دولة الخلافة بعض الرجاء وما تزال دعوة الشعوب الاسلامية للالتفاف حول دولة الخلافة كوسيلة لتحررها محور دعوته . فلما كانت أوائل سنة ١٩٠٦ حدث ما زعزع من رجاء مصر فى الدولة العلية هى الأخرى . ذلك أن أعادت تركيا الخلاف الذى أحدثته حين تبوأ عباس عرش أبيه فى سنة ١٨٩٢ بأن أرادت أن تخرج شبه جزيرة سينا من الأراضى المصرية ، فوقفت انكلترا وأصرت على أن تكون حدود مصر هى المبينة فى الفرمان الذى أصدره السلطان لاسماعيل باشا فى سنة ١٨٧٣ . وقد قبلت تركيا ذلك فى تلغراف أرسله الباب العالى فى ٨ يناير سنة ١٨٩٥ . لكنها أرادت أن تفسر هذا التلغراف فى سنة ١٩٠٦ تفسيرا خاصا فتجعل حدود مصر تنحدر من رفح الى السويس فالى العقبة . فوقفت انكلترا مرة أخرى . ولما احتلت القوة التركية طابة ، وهى قرية على مقربة من العقبة داخلة ضمن الحدود المصرية ، خاطب السير ادوارد جراى وزير الخارجيـــة البريطانية اذ ذاك سفير تركيا فى لندرة بما معناه : ان قوات الامبراطورية على استعداد لتأييد مركز انكلترا فى مصر . وقد استمرت المشادة فى هذا الموضوع بين تركيا وانكلترا زمنا وقف أثناءه مصطفى كامل بجانب تركيا يدافع عن مطالب دولة الخلافة جهد طاقته على أن تركيا انتهت آخر الأمر بالتسليم بمطالب انكلترا ، فكانت هزيمة مسقطة لكل

أمل فى معونة تركيا . وكذلك تداعى الركن الثانى من أركان الدعوة التى كان مصطفى كامل قائما بها .

ولقد كان من شأن تداعى هذه الأركان واحدا بعد واحد أن يكشف عما تستره هذه السياسة من الخيال . على أن حادثا جديدا وقف فيه مصطفى كامل موقف المدافع عن العدالة والانسانية بمعناها الصحيح ستر ما انكشف من فساد الاعتماد على أوربا وعلى الباب العالى . ذلك هو حادث دنشواى . فقد خرج جماعة من الضباط والعساكر الانكليز من القاهرة قاصدين الاسكندرية فمروا فى طريقهم بقرية دنشواى فنزلوا لصيد الحمام بأجرانها . واعترضهم الأهالى وحدث تصادم انتهى بجرح أربعة من المصريين بينهم امرأة وباصابة بعض الضباط الانكليز اصابة فر من جرائها أحدهم الكابتن بول فأصابته ضربة شمس مات متأثرا بها . وعلى أثر هذا الحادث عقدت المحكمة المخصوصة التى شكلت بديكريتو سنة ١٨٩٥ لتنظر فى هذه القضية وحكمت على أربعة من الأهالى بالاعدام وثمانية بالجلد وآخرين بالأشغال الشاقة ، وتفذ هذا الحكم بطريقة همجية لا عهد للانسانية بها منذ عصورها المظلمة . فقد نصبت المشانق التى أرسلت الى قرية دنشواى قبل صدور حكم المحكمة أمام منازل الأهالى مباشرة ونصبت الى جانبها آلات الجلد . وغداة صدور الحكم نفذ على صورة يقشعر من هولها البدن . فكان كل محكوم عليه بالاعدام يعلق فى المشنقة ويبقى معلقا أمام أنظار أهله وأبنائه الى أن يجلدوا اثنين من المحكوم عليهم بالجلد وكان هؤلاء يجلدون بكرابيج ذات ثمانية ألسن معقود طرف كل لسان منها بقطعة من الرصاص . ومن

حول المشانق والمجالد وفوق أسطح المنازل وقف الناس من أهل هؤلاء التعساء وذويهم يشهدون جلودهم تشوى بالكرابيج وجثثهم فارقتها أرواحها معلقة فى المشانق ، ومستشار الداخلية الانكليزى واقف يحافظ على النظام لهذا المشهد الذى أبدعته انكلترا فى مطلع القرن العشرين . ما أشدها وحشية وما أنعمها حضارة ! هنا يجب أن يرتفع الصوت عاليا دفاعا عن الرحمة وعن الانسانية وعن العدالة وعن كل المعانى التى جاهدت الانسانية أجيالا وقرونا لتثبيتها فى النفوس . وأى صوت أرفع من صوت مصطفى كامل ، وأى أسلوب وجدانى كأسلوبه ! وهذه الدعاية السياسية التى فشلت بازاء قوة انكلترا فى أوربا وفى مصر لابد أن تنجح اذا استغلت لكشف هذا الظلم وللاستفادة منه لتحريك النفوس . وقد نجح مصطفى كامل فى هذا أكبر نجاح . والحق أنه لم يرتكب فى التاريخ الحديث فظاعة تعدل فظاعة تنفيذ حكم دنشواى ، ولم تثر حادثة من الحوادث الشعور القومى فى مصر ما أثارته هذه الحادثة . ولقد صدق مصطفى كامل اذ قال : ان عشرات السنين كانت أقصر من أن تحيي شعور الشعب كما أحياه هذا الحادث . لذلك ظل يكتب ويخطب فى مصر وفى انكلترا بيانا لبشاعة هذا الظلم الذى بلغ من بشاعته أن اضطر لورد كرومر الى اعتزال منصبه فى مصر مع اعتراف الكل له بأنه من أقدر الساسة البريطانيين وأعظمهم أثرا فى حياة الامبراطورية .

على أن المصريين كانوا قد رأوا فشل السياسة الأولى التى جروا عليها : سياسة الاعتماد على فرنسا ثم على أوربا ثم على الباب العالى ،

وقدر جماعة منهم أن لابد من الأخذ بسياسة أخرى هى اعداد الأمة بأدوات الاستقلال من علم وخلق وغرس الايمان بنفسها فى نفسها لا لمجرد كراهية الانكليز ولا حبا فى الباب العالى ومقام الخلافة السامى ، ولكن حبا فى الاستقلال والحرية لذاتهما . وكان لطفى بك السيد وزير المعارف السابق لسان الذين فكروا هذا التفكير والذين اعتزموا لبث دعوتهم اصدار جريدة « الجريدة » . على أن نفس مصطفى كامل لم تطاوعه ليرى فى ميدان الخدمة السياسية العامة من يرى غير رأيه . لذلك هاجم « الجريدة » قبل صدورها وهو من أعرف الناس بصديقه لطفى السيد وبالذين كانوا على رأيه . ولعل هذا الخلق فى الزعيم الشاب هو الذى دعاه أن يبعث من أوربا على أثر اعلان المرحومين سعد زغلول باشا وقاسم بك أمين تشكيل لجنة لتأسيس جامعة مصرية أهلية محتجا على عملهم بأنه سبقهم الى الفكرة فيجب أن يكون تنفيذها تحت رعايته .

وخلف سير الدون جورست لورد كرومر كمعتمد لانكلترا فى مصر ، فجرى مع الخديو على سياسة غير سياسة المشادة والنزاع التى كانت سائدة بين عابدين وقصر الدوبارة الى ذلك التاريخ ، وطمع الخديو فى أن ينال من وراء هذا الاتفاق مع معتمد بريطانيا سلطة لعل السعى لها هو الذى دفع به لاصطفائه من اصطفى من الشبان ليعملوا باسم مصر كى يخليها الانكليز فتبقى السلطة فيها محصورة فى يد حفيد اسماعيل . وغير ذلك من الخديو على مصطفى كامل . وذلك شأن الملوك . يصطفون من يصطفونه مادام لهم فى ذلك مأرب خاص فاذا انقضى المأرب انصرفوا عنه وأنكروه . ثم ان مصطفى رأى

دعوة لطفى السيد الى الاستقلال التام أبعد مدى من الدعوة الى جلاء انكلترا وبقاء مصر تابعة لتركيا . لذلك قال فى الخطبة البديعة التى ألف بها الحزب الوطنى وألقاها فى تياترو زيزينيا بالاسكندرية مانصه : « فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها . وأننا اذا خطبنا الود لأمة أو لدولة فانما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون » . ومع هذه الكلمة الصريحة فى المطالبة بالاستقلال والحرص عليه كانت الفقرة الأولى من برنامج الحزب الوطنى هى استقلال مصر الداخلى وفاقا لمعاهدة لندره فى سنة ١٨٤٠ . ولعل ذلك انما نص عليه تفاديا من معارضة القانون والتعرض لتهمة التآمر لقلب النظام الذى كان موجودا .

ولم يوهن فتور العلاقات بين مصطفى كامل والخديو ولا الخلاف بينه وبين الأحزاب المصرية الأخرى من همته العالية فى الدفاع عن منكوبى دنشواى . وقد كلل مسعاه بالنجاح فصدر الأمر العالى بالعفو عنهم فى عيد جلوس الخديو الذى تلا هذه الحوادث أى فى ٨ يناير سنة ١٩٠٨ .

* * *

بعد ذلك بشهر واحد كان مصطفى كامل على سرير المرض ينتظر الموت فى ثبات وصبر ، والأمة من حوله يخفق قلبها فرقا على هذا الابن البار الذى أذكى ضرام الوطنية فى شبيبتها . فلما كان يوم ١٠ فبراير طبق الموت جفنى الزعيم الشاب وما يزال فى مقتبل عمره ،

ولما يبلغ الخامسة والثلاثين . لكن هذه السنوات الثلاث عشرة التى جاهد فيها مصطفى (من ١٨٩٥ — الى ١٩٠٨) هى فى الواقع حياة طويلة ، لأنها حياة جليلة بنشاطها وبأعمالها ، جليلة بايمانهـا وسعيها . وفى عصر ذلك اليوم بينا أنا جالس مع زميل لى من طلبة الحقوق مر بنا من نعى الزعيم لنا . وفى اليوم التالى خفق قلب مصر من أقصاها الى أقصاها حزنا عليه وجزعا ألا يخلفه من يكون مثله ذكاء ومقدرة وقوة ايمان .

وودع مصطفى هذا العالم وقد عمل لوطنه فى عشر سنوات مالم يعمله غيره فى عشرات السنين ، بل مالم تعمله أجيال بأسرها . لذلك بقيت ذكراه تحييها مصر كل عام . ومن حيت ذكراهم فأولئك لهم الخلد طى ضمير الدهر وكفى بذلك جزاء موفورا .

قاسم بك أمين(*)

كلما ذكر اسم قاسم أمين ذكر معه تحرير المرأة فى مصر . فأول صيحة ارتفعت لهذا التحرير هى صيحة قاسم فى كتابيه : « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » . وعلى أثر هذه الصيحة قام جدل عظيم فى الموضوع ما تزال حواشيه باقية الى يومنا هذا . مع ذلك ، ومع أن قاسما لم يمت الا من عشرين سنة ، فلو انه بعث اليوم ورأى من آثار دعوته هذا التعليم الاجبارى للبنين والبنات ، وهذه النهضة النسوية العظيمة فى مختلف جوانب الحياة ، وهذه الحرية النسبية التى تتمتع بها المرأة ، وهذا الاصلاح فى التشريع للأحوال الشخصية ما تم منه وما يوشك أن يتم ، اذن لأخـذته الدهشة ، ثم لانقلبت دهشته اغتباطا أى اغتباط بهذه الآثار ، ثم لعقب سروره أسف على ما اضطر اليه فى كتبه من محافظة ألزمه اياها روح عصره الجامد . ثم لترك ميدان المرأة وتحريرها يسير فى طريقه الطبيعى، ولفكر فى ميدان آخر من ميادين الاصلاح الاجتماعى الخطير الذى تحتاج مصر اليوم اليه أشد الحاجة . ولعل الأدب القومى وخلقه وتوطيده والارتفاع به الى سماوات الانتاج الذاتى الخصيب يكون بعض الميادين التى يصرف اليها بطل الجامعة المصرية منذ تأسيسها وأحد واضعى أسس هذا الأدب القومى فى كتبه الثلاثة كل مايكون لديه بعد بعثه من نشاط وجهد .

* اقرأ عن قاسم أمين أيضا فى « أوقات الفراغ » من ص ٩٦ـ١٤٨

ذلك بأن روح قاسم كانت روح أديب ، كانت الروح العصبية الحساسة الثائرة التى لاتعرف الطمأنينة ولا تستريح الى السكون ، وكانت الروح المشوقة التىلاتعرف الانزواء فىكن للبحث والتنقيب حيث تنسى نفسها وتستبدل بكنها ما فى حياة الكون وحركته من نشاط وجمال . بلكانت عيونه الواسعة تريد أن ترى جدة الوجود الدائمة تتكرر مناظرها فتطبع على صفحات نفسه وحيا والهاما أكثر مما تؤدى اليها المباحث الجافة منطقا وجدلا . وكانت هذه المناظر تذكى شعوره الحساس بجمال الحياة ، وتدعوه الى الحرص على متاعه بها وعلى دعوته غيره لهذا المتاع . وذلك لايؤتاه الا رجل فن جميل لايقف عند التلذذ لنفسه بنعم الحياة ، بل يعبر لغيره عن معانى هذه النعم ! وكما يعبر الموسيقار بالنغم والمصور بالنقش والمثال بالنحت والشاعر بالوزن ، كذلك الكاتب الأديب يجد فى وصف ما فى الحياة من مختلف ألوان الجمال ما يعبر عن شعوره به ومايدعو غيره اليه . وحياة قاسم كانتكلها متجهة الىهذه الدعوة . وكانت متجهة اليها بقوة آخذة بنفسه متغلبة عليه حالة منه محل الايمان بها ايمانا صادقا .

ولد قاسم مصريا يجرى فى عروقه دم كردى ، أورثه اياه جده الأمير الكردى . وولد فى أسرة متوسطة اليسار لم يفسدها ترف الاكثار ولم تجن عليها آثار الحاجة . وتربى منــذ نشأته تربية أمثاله ، ثم سافر الىفرنسا حيث درس الحقوق وعاد فىسنة ١٨٨٥ . وليس فى ظروف صباه شىء غير عادى الا أنه كان جم الحظ من الحياء مما ألزمه العكوف على نفسه وعلى درسه . وليس فى حياته بعد ذلك شىء من المجازفات التى تجذب لأصحابها أنظار الجماهير ،

بل ظل منذ أتم دراسته الى أن عاجلته منيته سـنة ١٩٠٨ وهو فى ريعان قوته قاضيا ثم مستشارا بمحكمة الاستئناف . لكنه كان مع حيائه الجم عيوفا يحترم نفسه وكرامته كما يحترم الغير وحريته، فلم يجرب عليه أحد ضعة ولا ضعفا . ولعل أقدس ما كان يجله من مظاهر الحرية حرية الرأى . وتلك ظاهرة كثيرا ما تلقاها فى ذوى الحياء . فهم مع احترامهم لغيرهم ولحريته ومع مبالغتهم فى هـذا الاحترام الى حد يهون معه عليهم أحيانا أن يتحملوا سوء استعمال الغير لهذه الحرية الى حـد يضايقهم ، تراهم اذا أراد مريد حبس رأيهم أو محاربته توترت كل أعصابهم وانتفضوا انتفاضة الليث تبدو أنيابه ومخالبه ووقفوا مستميتين يذودون عن رأيهم ويستهينون فى سبيل ذلك بالمال والجاه وبالحرية والحياة . وذلك سر نجاحهم دائما . على أنهم لذلك لا يصدرون عن الرأى الا بعد تمحيصه وتقليبه على مختلف وجوهه والاقتناع به اقتناعا يحل منهم مكان الايمان . وهذا ما عبر عنه قاسم فى مقدمة كتابه « تحرير المرأة » حين قال : « هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة كنت فى خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها ، حتى اذا تجردت من كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضع الفكر منى ، وصارت تشغلنى بورودها وتنبهنى الى مزاياها وتنبهنى بالحاجة اليها ، فرأيت أن لا مناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر » .

وهذا الخلق فيه هو الذى جعله منذ عودته من دراسة الحقوق بفرنسا الى خاتمة حياته قاضيا ممتازا . فهو لم يقض يوما لينال حظوة عند أحد أو ليصفق الجمهور له . ولم يكن من بين القضاة

الذين قال عنهم : « أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل . » ولم يتقيد فى قضـائه بآراء الفقهاء أو أحكام المحاكم مما يعتبره أكثر القضاة حجة لامحيد عنها . بل لم يتقيد بنص القانون اذا لم يصادف هذا النص مكان الاقتناع منه . وهذا هو ما جعله ميالا للرأفة فى قضائه نافرا أشد النفور من حكم الاعدام . فقد كان يرى « أن العفو هو الوسيلة الوحيدة التى ربما تنفع لاصلاح الذنب » و « أن معـاقبة الشر بالشر اضـافة شر الى شر » و « أن التسامح والعفو عن كل شىء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد فى اصـلاح فاعله » و « أن الخطيئة هى الشىء المعتاد الذى لا محل للاستغراب منه والحال الطبيعية الملازمة لغريزة الانسان » . فاذا كانت الجماعة لم توفق بعد لادراك هذه الأفكار وكانت قوانينها التى وكل اليـه تطبيقها كقاض ما تزال تجرى على سنة القصاص والانتقام وما تزال دموية متوحشـة ، فلا أقل من أن يتحاشى الاعدام وهو أشد ما فيها وحشية ، وهو العقوبة الوحيدة التى لا سبيل لعلاجها اذا ظهر خطأ القاضى أو ثابت الجماعة الى رشدها ورأت تعديل أساس عقوباتها بجعل العقوبة للاصلاح لا للقصاص أو أخذت بمذهب العفو والتسامح .

وكذلك كان رأيه فى قضائه المدنى : لم يكن يتقيد بالاجراءات اذا رأى العدالة توشك أن تهدر لأن واحدا من هذه الاجراءات لم يراع المراعاة الواجبة . ثم كان أشـد القضاة ميلا لمصـالحة المتخاصمين ولا حلال التسامح محل النضال والحسنى مكان الشر والسوء . وهو فى هذا كـكثير من القضاة والمفكرين الذين أحدثوا بأحكامهم جديدا فى العدالة وفى التشريع والذين خطوا بنصوص

القوانين الى معان تتفق مع الرقى الانسانى الذى يصمدون اليه ويودون لو يتحقق . وأنت اذ تقرأ أحكامه تشعر فيها بهذه المعانى التى ربما خيل الى رجال القضاء بالمهنة أنها الى الأدب والخيال أقرب منها الى النصوص المقدسة ، والتى كانت مع ذلك وسيلة التطور التشريعى فى سبيل بلوغ العدالة منازل الكمال .

وهذه الآراء المتقدمة التى اعتنقها قاسم فى نظره الى الانسان وفى تحليله نفسيته ، وهذه الأعصاب الثائرة التى تهتز لكل ما فى الحياة من جمال وترجو لو يستمتع الناس به ، وتربية قاسم فى وسط فرنسا الحر الذى كان متأثرا بالثورة الكبرى وبثورات سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ وسـنة ١٨٧٠ ، ذلك كله هو الذى دفعه ليعلن رأيه فى تحرير المرأة مع علمه بما يثيره اعلان هذا الرأى عليه من حملات شعواء . فقد شـعر قاسم بما شعر به كثيرون من الشبان الذى درسوا فى أوربا من ألم لما يرونه حين مقارنة الوسط الذى كانوا فيه بالوسط الذى عادوا اليه . بل لعل هذه الحال على حد تعبير الاستاذ لطفى بك السيد « اعترته على نوع أشد مناسب لمقدار اطماعه الواسعة ومداركه القوية ومشاعره الرقيقة . وربما استحالت هذه الحال بمساعدة ما به من الوقار الجنسى الى ملكة ينم عليها سكونه واطراقه ويفسرها كثير من كلماته الى حد يجعل المرء يراه متطيرا أكثر منه متفائلا » . وكثيرون ممن تعتريهم هـذه الحال يثورون ثم ما يلبثون أن يهدأوا اذ يرون أنفسهم عاجزين عن أن يهزوا الوسط الذى هم فيه أو يبدعوا فيه جديدا . ولعل قاسما حدثته نفسه غير مرة بالسكوت والاكتفاء بجاهه العريض وبمنصبه العظيم . ولعله كان يصف نفسه أيضا حين كان يقول عن الشيخ

محمد عبده : « كم من مرة سمعته يؤكد أنه صمم على ألا يتداخل فى شيء من هذا القبيل ، ثم رأيته فى الغد منغمسا فيه أكثر مما كان ذلك لأنه ، بعكس ما يراه عمـوم المصريين فى أنفسهم ، كان عنده أمل لا يزعزعه شيء فى اصلاح أمته ، كان عنده اعتقاد متين بأن البذرة الطيبة متى ألقيت فى أرض بلادنا الخصبة نبتت وأزهرت وأثمرت كما نبتت وأزهرت وأثمرت بذور الفساد فيها . لهذا كان يلقى بملء يديه كل ما جمعه فى حياته من الأفكار الصالحة والعواطف الشريفة والتعاليم المفيدة ، كأنه كان يشعر أن حياته ليست طويلة فكان يجعل يبـذل جميـع ما كان عنـده [1] » وكذلك لم يسـتطع هو أن يسمع لداعى الطمأنينة الى منصبه وجاهه بعد ما رأى أن لامناص من ابراز دعوته من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر .

وفى ظننا أن الدعوة الى تحرير المرأة من رق الجهـل ورق الحجاب لم تكن كل برنامج قاسم الاجتماعى ، وانما كانت حلقة منه هى أعسر حلقاته وأعقدها . ذلك بأنه لم يقصر عليها كل جهد حياته ، بل اشتغل منذ سنة ١٩٠٦ بالدعوة لانشاء الجامعـة مع صديقه سعد زغلول وشغل بهذه الجامعة وبتوطيد أركانها الى أن وافته منيته بعد ماأعد كل العدة لافتتاحها وقبيل هذا الافتتاح بأشهر معدودة . وتدل كلماته على أن برنامجه كان أوسع من مجرد تأسيس الجامعة وتركها تسير حسب ما توجهها الرياح ، وعلى أنه كان يريد أن يجعل من الجامعة خطوة لبرنامج أوسع نطاقا يتناول ثورة فى اللغة والأدب كالثورة التى أحدثها كتاباه فى تعليم المرأة وفى رفع الحجاب .

---

(١) تأبين الشيخ محمد عبده .

ومن نافلة القول تكرار الكلام عن برنامجه فى تحرير المرأة ٠ فقد تناولَ الكتاب هذا البرنامج بالشرح والتحليل منذ أكثر من عشرين ســنة ٠ وكل ما يمكن لقارىء كتابيه « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » أن يقف عنده اليوم فى شأن برنامجه ما اضطر اليه من تحفظ يجعل أهل هذا الجيل يرون صيحة قاسم التى كانت يوم ظهرت قوية مرعبة أن هزت أركان عادات أهل عصره لا تزيد اليوم على أنها صورة للآراء والعادات المتداولة ، ونسخة من آلاف ما يكتب من نوعها وما يزيد أكثر الاحيان فى تقدمها وسبقها ٠

ومعنى هذا أن دعوة قاسم آتت كل ثمرها فصارت بعض عقائد الناس وآرائهم ٠ واذا كان شىء مما دعا اليه كتنظيم تعدد الأزواج وكجعل الطلاق باذن القاضى ما يزال موضع النظر ، فان الرجاء منعقد بتمامه عما قريب ، كما أنه لم يبق من يعترضه الا الجامدون والذين فى قلوبهم مرض ٠ على أن كتــابى تحرير المرأة والمرأة الجــديدة ليسا مقصورين على الدعوة الى تعليم المرأة وازالة الحجاب ، بل فيهما مذهب جديد فى التفكير والكتابة لم يكن معروفا من قبل قاسم ولم يسبقه اليه أحد ، فيهما شىء من « لروماتتسم » الغربى ومن تحليــل الطبيعة الانسانية فى أرق عواطفهــا وأدق وجداناتها ٠ فقد كان قاسم ينظر الى عاطفة الحب نظرة عبــادة وتقديس ، وكان يقول « ان العــارف يعتبر العثور على الحب الشريف أكبر السعادات فى هذه الدنيا ٠ واذا كان المال زينة الحياة فالحب هو الحياة بعينها » [1] وكان يراه غذاء روحيا لاغنى لنفس عنه فى جميع أدوار حياته ٠ وعنده أن « كل عشق شريف ٠ فان كان

(١) تحرير المرأة ٠

بين شريفين زاد فى قيمتهما ورفع من قدرهما • وان كان بين وضيعين أكسبهما شرفا وقتيا حتى اذا زال العشق سقطت قيمتهما وانحطت مرتبتهما ورجعا الى أصلهما » • ورجل ذلك نظره للحياة أدنى الى تغليب حكم العاطفة والى اعتبارها الهادى والمرشد الأول فى الحياة • وانك اذ تقرأ فى كتابيه ما كان صادرا عنه هو غير متأثر بجدله مع غيره أو ببحوثه الفقهية التى التجأ اليها لتبرير مذهبه بازاء الشريعة الاسلامية ، اذ ذاك ترى العاطفة الحية الحساسة • عاطفة المحبة والرحمة والتسامح والسلام هى السائدة فى كل نواحى الكتاب ، وهى مقدمة كل أسبابه ونتائجه • وهل الحياة الا محبة ورحمة وتسامح وسلام ؟ وهل فى الحياة أجمل من المحبة والرحمة والتسامح والسلام ؟ وقاسم يريد بالناس أن يستمتعوا بجمال الحياة وبالحياة كلها استمتاعا كاملا • وهو لا يريد هذا على أنه مجرد دعوة لمثل أسمى قد تصل الانسانية اليه وقد لا تصل ، ولكنه يريده حقيقة تتم • وهو يريده لنفسه بمقدار ما يريده للناس ، وأكثر مما يريده للناس • وأنت ترى هذا فى كلماته التى لم تنشر للناس الا بعد موته والتى كان يرصد فيها أفكاره الخاصة لنفسه • ترى فى هذه الكلمات مبلغ ايمانه بالجمال وبالحب وبالفن الجميل • وترى مبلغ ألمه لعـدم تقدير بنى وطنه بدائع الطبيعة وتصوير رجال الفن لهذه البدائع • قال : « وصلنا قصر اللوفر وكنا أربعة من المصريين لنمتع النظر بأبدع ما جادت به قرائح أعاظم الرجال فى العالم • فبعد أن تجولنا فى غرفتين جلس أحدنا على أحـد الكراسى قائلا : أنا اكتفيت بما رأيت وها أنا ذا منتظركم هنا • وقال الثانى : أتبعكما لأنى أحب المشى وأعتبر هذه الزيارة رياضـة

لجسمى ، وسار معنا شاخصا أمامه لا يلتفت الى اليمين ولا الى اليسار وما زال كذلك حتى وصلنا قاعة المصاغ والحلى ، وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر الى الذهب ثم صاح : « هذا ألطف ما فى هذه الدار » ووصلنا الى تمثال الهة الجمال الفريدة فى العالم أجمع فسألت دليلنا : ماذا تساوى هذه الصورة اذا بيعت ؟ فقال : انها تساوى ثروة أغنى رجل فى العالم ، تساوى كل ما يملكه الانسان ، تساوى ما يقدره لها حائزها ويطلبه ثمنا لها اذ لا حد لقيمتها »

ومثال الجمال عند قاسم مجسم فى المرأة . واذا كانت الموسيقى وكان التصوير وكان التمثيل وكان كل مظهر من مظاهر الفنون الجميلة محببا اليه فان مصدر الوحى الذى تصدر عنه هذه الآثار جميعا هو المرأة ، هى التى تجعل للطبيعة وما فيها جمالا لأن عيونها تقع عليها ، وهى تلهم الرجال هذا الجمال لأنها تحب الزهر وعطره والنسيم وأرجه والقمرى وشدوه ولأنها تحب كل جميل . وقد لا ترى ذلك واضحا صريحا فى كتب قاسم ، ولكنك تراه واضحا فى عباراته الملتهبة عن العشق والحب . وفيما قدمنا من عباراته فى تحرير المرأة وفى الكلمات ما ينهض دليلا على رأينا . وأكثر منه فى الدلالة قوله : « كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامى فى صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل » وقوله : « الحب احساس عميق يستولى على النفس كلها ويجعلها محتاجة الى الاختلاط بنفس أخرى احتياجا ضروريا كاحتياج العليل الى الشمس والغريق الى الهواء ، نار تلهب القلب لا يطفئها البعد ولا يبردها القرب بل يزيدها اشتعالا ... نظرة فى عيون محبوبته تملأ قلبه فرحا وتجعله يتخيل أنه ماش فى طريق مفروش بالورد أو راكب سحابة

وطائر فى المرتفعات العالية ، فوق فوق قريب السماء » وهو : وذلك ايمانه الصحيح : قد رأى أن المرأة التى تستطيع أن تلهم الرجل كل هذه المعانى السامية وأن تفيض على الفنان بالوحى وعلى غير الفنان بأسباب السعادة التى تحبب اليه الحياة والعمل فيها ليست هى المرأة الجاهلة المحجوبة . لذلك دعا دعوته لتحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لتكون مبعث السعادة للناس جميعا .

* * *

لكن هذا الوحى والالهام لا يكون الا اذا استعد الرجال لتلقيه . واذا كان لدعوة قاسم أن تنجح فى ميدان تحرير المرأة وأن تجعل من المصرية مثلما كانت أخت رينان أو زوجة جون ستوارت ميل أو شبيهاتهما من النساء اللواتى أوحين الى النوابغ ما غير وجه التاريخ ، فلا بد من اعداد الرجال لتلقى هذا الالهام السامى ولابرازه فيما يجب أن يبرز فيه من قوة . وذلك لم يكن ممكنا والتعليم العالى ، كما كان يومئذ ، مقصور على أن يعد موظفين للحكومة وللأعمال الحرة ممن لا يرون العلم الا وسيلة للكسب « ويعملون على مبدأ — اكسب كثيرا واتعب قليلا — وليس فيهم العامل المحب لعلمه أو فنه والعاشق الذى تحتل شهوة العمل كل قلبه وتتمدد فيه وتملؤه برمته » . أمثال هؤلاء لا يوحى اليهم جمال العالم فكرة جديدة ولا يرتجون من الحياة الا اعتزازا بمنصب أو بمال طائل يحصلونه . وهؤلاء لا يمكن أن تنهض أمة بهم لترقى الى سبيل الكمال . فأما الفئة التى « تطلب العلم حبا للحقيقة وشوقا الى اكتشاف المجهول ، الفئة التى يكون مبدؤها التعلم للتعلم والتى تحس جمال الحياة فى مختلف مظاهره ، الفئة التى ترى

فى المرأة الجميلة المهذبة معوانا على النهوض بالجماعة — هذه الفئة لاتكون الا حين توجد الجامعة وحين يوجد التعليم الجامعى . وهذه الفكرة هى الأساس الذى دعا قاسما للتعاون مع صديقه سعد زغلول ومع أركان نهضة مصر ليؤسسوا الجامعة المصرية التى استظلت لجنتها برياسة سعد باشا زغلول حتى ترك منصبه كمستشار فى الاستئناف وعين وزيرا للمعارف فحل محله قاسم أمين فى رياسة اللجنة الى أن عاجلته المنية .

وقد ظل قاسم عاملا مع أصحابه مجدا يستنهض الهمم ويجمع الأموال ويهىء كل أسباب نجاح الجامعة . وقد بين فكرته عنها فى خطاب ألقاه بمنزل المغفور له حسن باشا زايد بالمنوفية لمناسبة وقفه خمسين فدانا للجامعة قال فيه : « ان الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيرا ولا تعلن عن نفسها . عاش آباؤنا وعملوا على قدر طاقتهم وخدموا بلادهم وحاربوا الأمم وفتحوا البلاد ولم نسمع أنهم كانوا يفتخرون بحب وطنهم ، فيحسن بنا أن نقتدى بهم فنهجر القول ونعتمد على العمل ...

« نحن لا يمكننا أن نكتفى الآن بأن يكون طلب العلم فى مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو الالتحاق بوظيفة ، بل نطمع فى أن نرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حبا للحقيقة وشوقا الى اكتشاف المجهول ، فئة يكون مبدؤها التعلم للتعلم . نود أن نرى من أبناء مصر ، كما نرى فى البلاد الأخرى ، عالما يحيط بكل العلم الانسانى واختصاصيا أتقن فرعا مخصوصا من العلم ووقف نفسه على الالمام بجميع ما يتعلق به ، وفيلسوفا اكتسب شهرة عامة ، وكاتبا ذاع صيته فى العالم ، وعالما يرجع اليه فى حل المشكلات ويحتج برأيه .

أمثال هؤلاء هم قادة الرأى العام عند الأمم الأخرى والمرشدون الى طريق نجاحها ، والمدبرون لحركة تقدمها . فاذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون .

« ان عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم ذاته هو عيب عظيم فينا يجب أن نفكر فى ازالته . وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التى غفلت عن تربية احساسنا وأهملت تربية قلوبنا فأصبحنا ماديين لانهتم الا بالنتائج فى جميع أمورنا ، حتى فى الأشياء التى بطبيعتها يجب أن تكون بعيدة عن الفوائد كعلاقات الأقارب والأصحاب .

« ان الارتقاء فى الانسان تابع على الخصوص لاحساسه ، وان أكثر الناس استعدادا للكمال هم أصحاب الاحساس الذين تهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث ، وتبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغا عظيما فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة . أولئك هم السعداء الأشقياء الذين يتمتعون ويتألمون . أولئك هم السابقون فى ميدان الحياة ، تراهم فى الصف الأول مخاطرين بأنفسهم يتنافسون فى مصادمة كل صعوبة . من بينهم تنتخب القدرة الحكيمة خيرهم وتوحى اليه أسرارها فيصير شاعرا بليغا أو عالما حكيما أو وليا طاهرا أو نبيا كريما .

« ولى أمل عظيم أن انشاء الجامعة المصرية يكون سببا فى ظهور شبيبة هذا الجيل وما يليه على أحسن مثال » .

كان أول أمل لقاسم من انشاء الجامعة اذن هو الأمل العلمى البحت . هو تكوين فئة للبحث وراء الحقيقة شوقا اليها وحرصا على كشف ما يحيط بهذا العالم من الأسرار . وهذه الحقيقة لايصل اليها أولئك المشغولون بأسباب الرزق العاكفون على السعى لها

والدأب فى سبيلها . وانما تصل اليها بيئة علمية يتصل الطالب فيها بالاستاذ اتصال دراسة واتصال بحث . اتصال تعليم واتصال تضامن فى زيادة ثروة الانسانية العلمية . هذه الثروة النورانية التى تضىء ما حولها لتهتك حجب الجهل وما يجره وراءه من جمود وتعصب ونفاق ، والتى تهدى الانسانية سبيل السعادة بما تكشف لها من جمال الوجود . ولعل أكبر رجاء قاسم كان أن يتناول هذا البحث آداب مصر بغية الوصول الي تركيز أدب قومي صالح يجدد الأدب العربى الذى كان متداولا الى عصره . وقد كانت لقاسم فى تجديد اللغة والأدب آراء لا تقل تقدما عن آرائه فى مسألة المرأة وتحريرها . وكان يرى « أن اللغة العربية مرت عليها القرون الطويلة وهى واقفة فى مكانها لا تتقدم خطوة الى الأمام بينا أخذت اللغات الأوربية تتحول وترتقى كلما تقدم أهلها فى الأدب والعلوم حتى أصبحت النموذج المطلوب فى السهولة والايضاح والدقة والحركة والرشاقة ، وصارت أنفس جوهرة فى تاج التمدن الحديث » . وفى كلماته كثير عما كان يراه من أوجه النقص فى اللغة ووسائل علاج هذا النقص قال : « لم أر بين جميع من عرفتهم شخصا يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن . أليس هذا برهانا كافيا على وجوب اصلاح اللغة العربية ... لى رأى فى الاعراب أذكره هنا بوجه الاجمال وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل . بهذه الطريقة ، وهى طريقة جميع اللغات الافرنكية واللغة التركية أيضا ، يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال الخ . بدون أن يترتب عليه اخلال باللغة اذ تبقى مفرداتها كما هى » .

ولم يكن جزعه على الأدب بأقل من نفوره من جمود اللغة .

فكم نعى على الكتاب والشعراء اقتصارهم على « تكرار أفكار الغير التى حفظوها كما يحفظ الأطفال القرآن » ٠وكم أسف على الفتور العقلى الذى يجعلك : « اذا اجتمعتْ فى اليوم بعشرين رجلا من معارفك تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الأول ولا تجد فى الجريدة التى تقرؤها أو تسمع من الصاحب الذى تقابله فكرة غريبة أو تعبيرا جديدا أو أسلوبا مبتدعا ، لا تجد النابغة الذى يدهشك ويجذبك بعجائب جنونه » وكم استهجن الاساليب التى تقتصر على المحسنات اللفظية ودعا الى جدة تخرج بالكاتبين من ذلك النوع البالى الذى لا يعرف البحث والتحليل والتسمع على النفس والمشاعر ووصف بدائع الطبيعة مكتفيا بالعبارات المحفوظة التى توارثوها عن كتاب العرب أيام مجدهم ٠ وانك لتجد فيما خلف قاسم صورة من هـذا الأدب الجديد الذى يدعو اليه والذى غزا ميدان التحرير والكتابة فأصبح أدب هـذا العصر الحاضر ٠ ولئن كنا ما نزال نرجو للأساليب الجديدة ثروة وقوة فان فضلا كبيرا يرجع لقاسم فى هذه الجدة التى دعا اليها والتى كان يرجو أن تبدع فيها الجامعة التى جاهد فى انشائها والتى قامت بعد موته قـوة تقربها من المثل الأعلى الذى يرجوه ٠

واختطف الموت فجأة قاسما وما يزال فى ربيع قوته ٠ مات بالسكتة القلبية بعد أمسية قدم فيها طالبات رومانيات فى نادى المدارس العليا ٠ مات وهو فى ميدان هذا الجهاد الشاق الذى خاض غماره وحمل أعباءه بقوة وعزيمة لم يتطرق اليهما كلال ٠ فقد وقف الرأى العام فى وجهه على أثر نشر كتاب تحرير المرأة ٠ ولم يكن هذا الرأى العام مقصورا على السواد ولا على الجامدين ٠ بل

ساير هؤلاء كثيرون ممن يزعمون أنهم يفهمون الرأى واحترامه والحرية وقداستها ، بل ممن كانوا مقتنعين بصواب رأى قاسم . وبلغ الأمر أن حرم قصر عابدين عليه . ولم يثبطه شيء من هذا ولم يبال بذم الناس « بل وجد فيه نوعا من حماسة الغضب منبها لأعصابه منشطا لقواه مغريا اياه بالاستمرار والثبات » . ورد على خصومه بكتاب « المرأة الجديدة » ثم قام بالمجهود العظيم الذى قام به فى انشاء الجامعة . وكان فى ابان ذلك كله ساكن النفس مطمئن الضمير ، محبا للحياة وجمالها ، غير بخيل على نفسه بحظ من ذلك يناله فى رفق ما كان بعيدا عن مصر ، فاذا عاد اليها اقتصر على أصدقائه القليلين الذين كانوا « يخففون عليه حمل الحياة ويرغبونه فى بقائها » .

مات فجأة فى ليـل ٢٣ ابريل سـنة ١٩٠٨ فأثار خبر وفاته فى نفوس الناس جميعا ، أصدقائه وخصومه ، رنة حزن وأسى ، واجتمع لتشييع رفاته كل ذوى الرأى فى مصر . وكانت جنازته مظهرا صامتا لاجلال الوطن وتقديره العاملين من رجاله . وغادر هذا العالم تاركا وراءه ذكرا باقيا هو ذكر الصدق والاخلاص لبلاده لم يبتغ عليهما فى حياته أجرا من جاه أو نشب ، فكان أجره عليهما الخلود بعد موته فى ضمير الأجيال المتعاقبة . ذلك بأنه رفع لواء الحرية الصحيحة والعدل فى أسمى معانيه ، وبعث الى الروح المصرية حيـاة جديدة تكفل لهـا بلوغ ما ترجوه بين جمـاعة الامم المتحضرة .

وفى يقيننا أن مجهود قاسم من أبقى المجهودات على الحياة ، وأن الصحائف المعدودة التى كتبها ستظل أبدا موضع اجـلال العصور واحترامها .

اسماعيل باشا صبرى

لم تمض على وفاة المغفور له اسماعيل صبرى باشا غير سنوات قليلة ومع ذلك فقد بدأ الناس لا يذكرون عنه الا انه كان شاعرا مجيدا . فأما أنه كان وكيلا للحقانية فى آخر أيامه ، وأنه درج قبل ذلك فى وظائف الحكومة المختلفة حتى بلغ هذا المنصب ، فهذا ما يسحب النسيان عليه ذيله رويدا رويدا ، وهذا ما يعتبر الجانب القليل الخطر من حياته . ولا عجب فى ذلك . فلقد كان الشعر هو الجانب المنير من روح اسماعيل صبرى والذى يجعله أحد رجال التاريخ الحديث . والناس لا يذكرون من الكبراء الا مواضع عظمتهم الحقة ، المواضع التى تتصل فيها نفوسهم بنفس الانسانية كلها اتصالا تتأثر به النفس الانسـانية تأثرا باقيا على الأجيال فى تعاقبها . فأما هذا العمل اليومى الذى يقوم به كل منا ويستطيع غيره أن يحل محله فيه ، فأما هذا الجانب من الحياة الذى يتكرر فيه الفرد من غير أن تظهر له شخصية خاصة ممتازة ، فأما النيابة والقضـاء ووكالة محكمة الاستئناف ومنصب النائب العمومى ووكالة الحقانية مما تقلب فيه اسماعيل صبرى ، فتلك المراكز على خطرها وجلالها وما تخلعه على صاحبها فى حياته من جاه ومقام عظيم ، انما يتصل صاحبها بالجيل الذى يعيش فيه الا أن يمتاز فى أعمال هذه المناصب امتيازا يترك أثرا تتناقله الأجيال . ولم يترك اسماعيل صبرى فى هذه الناحية من حياته ذلك الأثر . لذلك كان

له من جاهها مدى حياته ما يكون لغـيره . فأما ما بقى له فذلك الضياء النفسانى الذى يتجلى فى شعره القليل ، والذى يعتبر على قلته آية فى الجمال تهتز لها نفوس كل الأجيال ، والذى يبقى من أجله اسم اسماعيل صبرى على الزمان ، لانه — على حـد قول الاستاذ على الجارم فى مرثيته اياه — :

لم يمت من يزول من عالم الحس   وتأبى آثـاره أن يزولا

* * *

ولد المرحوم اسماعيل صبرى فى ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤ ودخل مدرسة المبتديان التجهيزية فمدرسة الادارة . وفى سـنة ١٨٧٣ التحق بالارسالية المصرية لفرنسا فنال أجازة الحقوق فى سنة ١٨٧٨. وهذه الأجازة هى التى فتحت أمامه أبواب السلك القضائى من مساعد نيابة لدى المحاكم المختلطة الى وكيل وزارة الحقانية . على أن الجانب النفسى الاقوى منه لم يكن الجانب التشريعى أو الجانب القضائى ، بل كان جانب تجاوب الأوزان والأنغام والشعر . وكثيراً ما رأيت رجالا يكونون دون غيرهم من أهل حرفهم فى الكفاية والمقدرة ، ولكنهم يمتازون بجانب آخر لهم فيه نبوغ . هؤلاء يحجب فيهم جانب النبوغ الجانب الآخر ويجعله يبدو ضعيفا . بل كثيرا ما يجنى جانب النبوغ على الجانب العملى للحياة ، لما يكره النبوغ عليه من وهبته الطبيعية اياه من مجهود مستمر وحياة خاصة؛ فاذا الجانب العملى يكاد ينسى الا ما تمليه عليه الملكات الممتازة من قوة واقتدار .

ولم يكن لجانب النبوغ الشـعرى فى اسماعيل صبرى تاريخ

صبرى فكان منذ أول حياته شاعرا مقلا ، وكان ، على ما يظهر من قديم معروف . وقد عبر شوقى فى رثائه اياه عن ذلك بقوله :

ان فاته نسب « الرضى » فربما
جريا لغـــاية سـؤدد وطراف
شرف العصاميين صـنع نفوسهم
من ذا يقيس بهـم بنى الاشراف
قـل للمشـير الى أبيه وجـده
أعلمت للقمرين من أســلاف

وكثيرا ما كانت المواهب الممتازة لاترجع الى تاريخ قـديم معروف ، بل كثيرا ما رأيت هذه المواهب الممتازة تتجلى فى أشخاص لا تلمح فى تاريخهم أية مقدمة لها . وهى قد تجلت فى نفس اسماعيل صبرى مذ كان فى السادسة عشرة من عمره ، وقبل أن يختط طريقه الى السلك القضائى . فقد نشرت له مجلة روضة المدارس وما يزال فى هذه السن مقطوعات شعرية تلمح خلالها روح الشاعر ، وان كانت فى ذلك الحين قد كانت متأثرة أشد التأثر بأغراض الشعر فى عصر اسماعيل من مدح الامراء وذوى السـلطان . وروضة المدارس كانت يومئذ مجلة أدبية تعمل لاحياء اللغة العربية والشعر العربى .

ولما سـافر فى الازسالية وأقام بمدينة اكس أتيح له الاطلاع على الأدب والشعر الفرنسى . ويدل شعره فى السنوات الأخيرة على انه تأثر بهذا الشعر كثيرا وانه انطبع منه فى نفسه حظ غيره ضئيل . على انه لم يستطع فى أول أمره أن ينقل الى الشعر العربى روحا غربية مثلما فعل شوقى مثلا . فأنت ترى فى شعر صبا شوقى الشىء الكثير المتأثر تأثرا باديا بحياة شوقى فى أوربا . أما اسماعيل

شعره ، لا يتأثر تأثرا سريعا . ولكن ما يؤثر فيه يبقى عالقا بنفسه حتى يكون له مظهره ولو بعد حين .

والظاهر أن التقاء الحياتين الشرقية والغربية والشعرين الشرقى والغربى فى نفس اسماعيل صبرى ، أحدث أثرا عميقا امتزج مع غريزة حياته . فقد كان رجلا رقيقا كل الرقة دمث الأخلاق حاضر البديهة ، اجتمع له كل ما يعرف من صفات « ابن البلد » وظرفه . وانك لتسمع ما يرويه عنه أصحابه من ذلك الشيء الكثير : فكان اذا سئم انسانا من الناس ولم تطاوعه نفسه الرقيقة على الاغلاظ له فى القول ، طلب الى صديقه حافظ ابراهيم ان يوقع بينه وبين هذا الثقيل حتى لا يضطر لمقابلته أو التحدث اليه . وكان كثير التندر ، حتى لقد تحكم عليه النكتة فلا يرى بأسا من أن يقول : انه لو نزل كتاب مقدس فى القطب الشمالى لوعد الله عباده النار أعدها للمتقين . وكان ظرفه وخفة روحه وسرعة بديهته يلهمانه فى كثير من المواقف ما لا يلهم المنطق . اعترف أمامه متهم بجريمة القتل . فلما خلا مع زملائه للمداولة ورأى أن العقوبة هى الاعدام، ذكر لهم أنه يشك فى اعتراف هذا الرجل لأنه لا يرى فى سيماه معنى شجاعة يمتاز به على سواه من أمثاله . وجيء بالرجل الى غرفة المداولة وقال هو له : أتدرى أن اعترافك هذا يجعلنا نحكم عليك بالاعدام . فكان جواب الرجل : لكن العمدة لم يقل لى هذا ، بل قال لى حين دفع لى الجنيهين انى سيعفى عنى لأنى كنت فى السجن حين ارتكاب الحادثة . وتبين فعلا أن الرجل كان فى السجن فلم يكن له فى الحادثة يد . وقضى ببراءته .

الى جانب هذه الصفات التى يمتاز بها « ابن البلد » المصرى

مما تأثرت به نفس اسماعيل صبرى الشاعرة بمخالطتها الوسط المصرى ، كان رجل اجتماع بالمعنى الافرنجى الصرف ، أى رجل دنيا اذا أردت ترجمة العبارة الفرنسية homme de monde ترجمة حرفية . وكان له أصدقاء كثيرون جدا من الجاليات الاوربية المقيمة بالقاهرة . وكان يغشى اجتماعات من يختارهم من أهل هذه الجاليات بمقدار ما يغشى اجتماعات الظرفاء وأولاد البلد .

على أنه مع كل هذه الوداعة والظرف، ومع ما كان يسيل به خلقه من رقة كان أبيا لا يقيم على ضيم . ذكر لى بعض أصدقائه الذين عرفوه طوال حياته انه برغم ما تقلب فيه من كبرى مناصب الحكومة كان المصرى الوحيد الذى لم يقابل لورد كرومر ولم يدخل الوكالة البريطانية فى مصر . وانه حدث بينه وبين رياض باشا ، وكان رئيس النظار ، جفاء لحكم أصدره ماسا ببعض المحسوبين على رياض باشا . فلما جاء فى أحد المواسم الى عابدين ومثل بين يدى الخديو توفيق ثم خرج من لدنه الى رياض باشا مهنئا اياه كرئيس حكومة أوقفه رياض باشا ولم يأذن له بالجلوس . وكان ابن رياض باشا واقفا عند باب الحجرة التى يجلس فيها أبوه ، فقال اسماعيل صبرى مخاطبا الابن بمسمع من الأب : قل لأبيك يحترم الناس كى يحترموه . وروى عثمان باشا مرتضى فى حفلة تأبين اسماعيل صبرى أن أحد قناصل الدول الأجنبية طلب اليه ، وكان محافظا للاسكندرية ، أن يشيع جنازة غنى من أهل جاليته ترك ثروة طائلة كسبها فى مصر وأوصى بها كلها لبلاده . فكان جواب المحافظ أن اعتذر ، لأن المحتفل بجنازته لم يفكر فى مصر التى أثرى فيها ، فليس يطلب الى مصرى أن يفكر فى مجاملته حيا أو ميتا .

دعة وظرف ورقة وحسن معاشرة واباء ، اجتمعت كلها فى نفس شاعر التقت فيه الحياتان الشرقية والغربية وألهمتها الطبيعة ذوق الجمال ، وبخاصة ما كان منه متعلقا بالنغم الشعرى — فماذا ترى يكون أثر ذلك كله فى شعره ؟ فأما الرقة فقد تنفست فى شعر صبرى غزلا بالمرأة وهياما بجمالها أيا كانت هذه المرأة . وأنت ترى من ذلك شيئا غير قليل حين تذهب الى مراجعة شعر صبرى الغنائى . لكنك تراه ماثلا بصورة حلوة جميلة آخذة باللب فى قصيدته البديعة (تمثال جمال) وبخاصة فى هذه الأبيات منها يخاطب المرأة الجميلة أو كما سماها « لواء الحسن » :

ان هـذا الحسن كالماء الذى — فيه للأنفس رى وشفاء
لا تذودى بعضنا عن ورده — دون بعض ، واعدلى بين الظماء
ساعفى آمال أنضاء الهوى — بقبول من سجاياك رخاء
وتجلى واجعلى قوم الهوى — تحت عرش الشمس بالحكم سواء
أقبلى نستقبل الدنيا وما — ضمنته من معدات الهناء
واسفرى ، تلك حلى ما خلقت — لتوارى بلثام أو خباء
واخطرى بين الندامى يحلفوا — أن روضا راح فى النادى وجاء
وانطقى ، ينثر اذا حدثتنا — ناثر الدر علينا ما نشاء
وابسمى ، من كان هذا ثغره — يملأ الدنيا ابتساما وازدهاء
أنت روحانية لا تدعى — أن هـذا الحسن من طين وماء
وانزعى عن جسمك الثوب يبن — للملا تكوين سكان السماء
وأرى الدنيا جناحى ملك — خلف تمثال مصوغ من سناء

وتراه كذلك فى هذه الأبيات يخاطب بها امرأة لا ندرى أية واحدة هى من ألوية الحسن التى تزدحم عادة فى نفس ذوى الظرف

والرقة ممن لا تحتمل نفوسهم طغيان الحب المستبد يذعن له الفؤاد والقلب والنفس والجوارح جميعا اذعان خضوع وايمان واستسلام وهو مع ذلك باذعانه راض وببذله سعيد :

زينبي الندى وسيلى فى جوانبه لطفا يعم رعايا اللطف رياه
ريحانة أنت فى صحراء مجدبة من الرياحين حيانا بها الله
انغاب ساقى الطلا أو صد لاحرج هذا جمالك يغنينا محياه

لعلك تلمح فيما نقلنا من هاتين القصيدتين — أو المقطوعتين ان شئت — شيئا غير الغزل بجمال المرأة من غير تقيد بامرأة معينة . ولعلك تلمح فيها من الموسيقى أكثر مما اعتدت أن تلمح فيما تستمع اليه من شعر غير اسماعيل صبرى . وانك لواجد هذه النغمة الموسيقية الحلوة الرقيقة فى أكثر شعره ان لم يكن فى شعره جميعا . بل انك لواجدها حتى فى القصائد التى يكلف الشاعر نفسه أن يكون حماسيا فيها كقصيدة فرعون وقومه . بل انك لواجدها حتى فيما يتكلف فيه الحكمة كقصيدة الساعة وما نظمه عن نجم هالى . وذلك طبيعى وقد كان أسماعيل صبرى مشغوفا بالغناء طول حياته الى غير حد حتى كانت الحياة عنده قطعة من الموسيقى ، أو قل كان خير ما فى الحياة عنده قطعة من الموسيقى . وكان سمعه أكرم حواسه عليه . أليس فى رثائه يقول حافظ ابراهيم :

لقد كنت أغشاه فى داره وناديه فيها زها وازدهر
وأعرض شعرى على مسمع لطيف يحس نبو الوتر

والحق أن اسماعيل صبرى لم يولع فى حياته بشىء ولعه بالغناء ، ولم يجاهد وهو فى مناصب القضاء لترقية شىء فى مصر أكثر من جهاده لترقية الغناء . كان ذلك شأنه منذ عهد المغفور له الخديو

اسماعيل باشا ، أى منذ أن نشأ يقول الشعر الى أن مات . وكان لا يقف من شعره الغنائى عند الشعر العربى بل كان يختلط بالمغنين ورجال الموسيقى وكان يضع لهم أدوارا باللغة المصرية . وكان لذلك موضع محبة رجال الفن الموسقيين والمغنين واحترامهم .

ولقد كان له فى هذا الباب فضل كبير : رفع الأدوار الغنائية من درك كانت فيه فجعلها ذات معان رقيقة تمثل عواطف طاهرة وميولا سامية . وأدواره (قدك أمير الأغصان) و (الفجر لاح قوموا ياتجار النوم) وغيرهما لا تزال من أفضل الأدوار المصرية التى تغنى الى وقتنا الحاضر . وقد عرفه الناس جميعا بذلك حتى كان حجة يرجع اليه . روى لى أحمد شوقى بك حادثة غاية فى اللطف : تلك أنه كان عنده وهو يشغل منصب النائب العمومى يوما وكانت مصر تموج أفكار أهلها بحادث سياسى وقع فيها . وفيما هما جالسان يتحدثان دخل حاجب ومعه مظروف حكومى كبير فقطع ذلك حديثهما وانتظر أن يجدا فيه اشارة الى الحادث السياسى وما يجب اتخاذه من الاجراءات بازائه . فلما فض اسماعيل باشا المظروف وقرأ ما بداخله هز رأسه مبتسما . ذلك أن على باشا شريف رئيس مجلس الشورى يومئذ قد بعث فى هذا الظرف بدور غنائى وهو يطلب الى النائب العمومى اصلاحه . ولهذه المناسبة قص اسماعيل باشا صبرى حادثا وقع فى قرطبة حين كانت الدولة الاسلامية على وشك الزوال منها ، وكانت طرقها تجرى دما لاقتتال الناس فيها . ذلك أن فتاة أطلت من نافذتها منادية صديقة لها فى نافذة مقابلة تطلب اليها وترا تصلح به عودها . وكذلك يطلب رئيس مجلس الشورى الى النائب العام أن يصلح

له دورا غنائيا بينما تموج البلاد بحادث سياسي لاتعرف نتائجه .

ولهذا الولع بالنغمة وبالغناء ترى الكثير من شعر اسماعيل صبرى صالحا لأن يكون صوتا يغنى فيه . اسمع الى قوله يخاطب سيدة تدعى الكسندرا :

اتشرى الدر ياسمية أسكنـ ـدر لافض عقـده من فيك
وأميطى عن الحقيقـة مايحـ ـجب عنا جمالهـا من شكوك

وقوله :

أقصرفؤادى فما الذكرى بنافعة ولا بشافعـة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا
هلا أخذت لهذا اليوم أهبته من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا
لهفى عليك قضيت العمر مقتحما فى الوصل ناراً وفى الهجران نيرانا

وغير ذلك مما يغنى فيه من شعر اسماعيل صبرى كثير .

أنت لا تستطيع أن تطلب الى شاعر بلغ من الرقة ما بلغ اسماعيل صبرى وشغف بالغناء شغفه أن يكون ممن يجاهدون الحياة يحاولون اخضاعها لرأيهم أو أن يكون قوى الايمان مما فى الحياة بشىء . فالمرأة وجمالها والغناء وألحانه والموسيقى وأنغامها صور يطرب لها الحس وينطبع طـربه فى النفس فيدعوها الى الطمأنينة للحيـاة والاستهتار بما يشغل الناس أنفسهم فيها من شؤون ، والتوفر على المتاع بهذا الطرب والحرص على استدامته والفزع لذلك من الموت . ويذكر الذين عرفوا اسماعيل صبرى معرفة صحيحة أنه كان كذلك . لكنك مع ذلك ترى فى شعره نزعات تكاد تكون صوفية . وترى الى جانب ذلك شيئا من التبرم بالحياة ومن ايثار الموت واستعجاله . أليس يذكر بتغزل عمر بن الفارض شيخ الصوفية فى الذات الآلهية قول اسماعيل صبرى :

يارب أهلنى بفضلك واكفنى … شـطط العقول وفتنة الأفكار
ومر الوجود يشف عنك لكى أرى … غضب اللطيف ورحمـة الجبار
ياعالم الأسرار حسبى محنـة … علمى بأنك عالم الأســرار
أخلق برحمتك التى تسع الورى … ألا تضـيق بأعظـم الأوزار

أو ليست الحكمة كل الحكمة فى قوله :

أواه لو عقـل الشـباب … وآه لو قـدر المشـيب

أو لم يقل الفلكيون أن نجم هـالى المذنب الذى مر بالأرض فى سنة ١٩١٠ كان سيحرق الأرض ويقيم القيامة فابتهج اسماعيل لذلك وقال :

أنت نعم النذير يانجم « هالى » … زلزل السـهل والرواسى ذعرا
ان يكن فى عينك الموت فاقذفـ … ـه شواظا على الخـلائق طرا
أغدا تستوى الأنوف فلا ينظر … قوم قوما على الأرض شزرا
أغـدا يصـبح الصراع عناقا … فى الهيولى ويصبح العبد حرا
ان يكن كل ما يقولون فاصدع … بالذى قد أمرت حييت عشرا

بل ألم يدع صبرى الموت كما دعاه فوست مستعجلا اياه كى ينقذه من عذاب الدنيا حين قال :

ياموت خذ ما أبقت الأ … يام والســاعات منى
بينى وبينك خطـوة … ان تخطها فرجت عنى

فكيف مع هذا كله يكون بشا للحياة طروبا بما فيها فزعا من الموت ومن العدم ؟ وكيف مع هذه الحكم التى نراها فى شعره يكون كل شغله بجمال المحسوسات من منظور ومسموع ؟ هذا اعتراض يرد للذهن لأول وهلة . لكن الشـاعر لا يكون شاعر حـكمة ولا شاعرا نفسانيا لمجرد ذكره خواطر فلسفية وعتها ذاكرته أكثر

مما اهتزت لها نفسه . ثم هو لا يكون برما بالحياة مؤثرا الموت لبعض أبيات قد تدفعه الى قولها شؤون خاصة . فالبيتان الأخيران اللذان رويناهما انما قالهما اسماعيل صبرى — فى رواية بعض من عرفوه — لما كان يلقى فى حياته العائلية من أسباب الشكوى . وأما ذلك التصوف الذى نراه فى الأبيات الأولى فليس الا مظهرا لما وعت الذاكرة راجع نفس الشاعر فى ساعات تغص فيهما النفس بنعيم الحيــاة حين يفيض عنها فيضا يجعلها تستغفر وتتوب برهة لتعود الى نعيم الحيــاة وفيضه بعد ذلك مباشرة . فأما الشــاعر النفسانى فهو الذى يحس فى أعماق نفسه بمعان قوية تظهر فى شعره ولو تحدث عن ظواهر تعدها أنت وأعدها أنا تافهة فى الحياة . من ذلك كثير من شعر أبى العلاء المعرى . ومنه كثير من شعر الافرنج . كنت أعيد منذ بضعة أيام قراءة قصيدة (موت الذئب) لألفرد دفينى وأستعيد منها المعانى القوية التى تجيش فى نفس الشاعر الفرنسى وتتجلى فى كل قصائده . مثل هذا الشاعر النفسانى ان كان دينيا يرى فى جمال المرأة وفى تجاوب الموسيقى وفى ألحان الغناء معانى دينية . وهو يرى هذه المعانى الدينية فى موت طفل وفى موت ذئب كما يراه فى الحب وفى كل صورة من صور الحياة ولون من ألوانها . وان كان شــاعر عاطفة أو شاعر فلسفة تجلت العاطفة والفلسفة فى شعره كله . فاذا رأيت له شعرا لا يعمره الجانب النفسى القوى من جوانب حسه أو شعوره أو تفكيره كان لك أن تحكم بأن ما اختزنته الذاكرة مما لم يؤثر فى النفس أثرا عميقا هو مبعث هذا الشعر . وما تختزنه الذاكرة مما ينظمه الشاعر ليس هو المعبر عن نظرته للحياة وتقديره لما فيها .

كان اسماعيل صبرى اذن متأثرا بما تتأثر به العين والأذن من صور الحياة وألوانها . وكان هذا هو الذى يوقع على وتر عاطفته أنغام شعره . وكان شعره لذلك جميل اللفظ غاية الجمال . وكان تأثره هذا يجعله معنيا بالجمال اللفظى أكثر من كل شاعر سواه . وانك لتجد أمامك فيما نقلنا لك هنا من شعره مظهر ذلك واضحا جليا . فرب فكرة عادية أو صورة تمر أمامك كل يوم تجدها فى هذا الشعر فاذا بها قد اكتست رونقا وبهاء ما كان لها أن تكتسيها لو أن شاعرا آخر هو الذى صاغها . والظاهر أن هذه النزعة القوية عند اسماعيل صبرى كانت ذات أثر كبير فى الشعر العربى فى هذا العصر . فحافظ ابراهيم لا يأبى أن يدعو اسماعيل صبرى أستاذه وأستاذ شوقى . وشوقى لا يأبى أن يعترف بأن هذه النظرة التى كان ينظر بها اسماعيل الى الشعر أثرت فيه هو تأثيرا غير قليل . ولم ينشأ من الشعراء فى العهد الأخير من كانت له فى الشعر نفسية خاصة تخالف نفسية اسماعيل صبرى لتطبع الجيل الجديد كما طبع هو بطابعه جيله .

ولا أستطيع أن أختم هذا البحث المعجل عن اسماعيل صبرى من غير أن أضع أمام القارىء ابياتا ارتجلها تسيل رقة وتعبر أرق تعبير عن هذه النفسية التى كانت ترى العاطفة كما كانت ترى كل ما فى الحياة حسا منظورا أو مسموعا ، ارتجلها يوم دفن ابن صغير للمرحوم الشيخ على يوسف فقال :

يا مالىء العين نورا والفؤاد هوى

والبيت أنسا ، تمهل أيهـا القمر

لا تخل أفقك يخلفك الظـلام به
والزم مكانك لا يحلل به الكدر
فى الحى قلبان باتا يانعيمهما
وفيهما ، اذ قضيت ، النار تستعر
وأعين أربع تبكى عليك أسى
ومن بكاء الثكالى السيل والمطر
قد كنت ريحانة فى البيت واحدة
يروح فيه ويغـدو نفحها العطـر
ما كان عيشك فى الأحياء مختصرا
الا كما عاش فى أكمامه الزهر
فارحل تشيعك الأرواح جازعة
فى ذمة الله بعـد القبر ياعمر

* * *

لعلك وقد رأيت من اسماعيل صبرى وشعره هذه النفسية المشغوفة بالألوان تشعر الى جانب هذا بما يشعر به كل من يقرأ شعر اسماعيل صبرى من أنه كان شاعرا مصريا حقا ، ومن أن النزعة البدوية كانت لا تعرف سبيلا الى نفسه ، وان الرقة التى تسيل بها جوانب وادى النيل والصفو الذى يظل سماءه والخضرة النضرة التى تزين جنباته وأغاريد الطير فى هوائه الرقيق ، كل ذلك كان ينعكس فى نفس اسماعيل صبرى بقوة لا تراها فى كثرين غيره من الشعراء . ولعلك لذلك تقر له باللقب الذى لقبه به معاصروه : لقب شيخ الشعراء .

وقضى حياته مغتبطا بالحياة ، حتى اذا كان فى أخريات أيامه أصابته ذبحة صدرية قعدت به عن أن ينعم بشىء فى الحياة خمس سنوات تباعا ، ولعل بيته يخاطب الموت :

بينى وبينـــك خطـــوة   ان تخطهـــا فرجت عنى

كان يصدق عليه خلال هذه السنوات الخمس الصدق كله . وقد خطا اليه الموت هـــذه الخطوة فى منتصف ليـــل ٢٠ مارس سنة ١٩٢٣ . وقضى يومئذ متحملا معه مدرسة حافلة من مدارس الشعر ومذهبا جليلا من مذاهب تقدير الجمال . قضى وخلف بعده من أثره مجموعة أشعار لم تطبع بعد لأنه كان يقول انه وهب شعره للنسيان . وتلك هبة لن تتم . فالنسيان لا يتطرق الى الكمال ولا يعدو على الجمال . لذلك نشر من شعره الشىء الكثير وحفظ أصحابه مالم ينشر . ولعلنا نسعد برؤية مجموعة شعره مطبوعة عما قريب .

محمود باشا سليمان

... وهذا أيضا محمود سليمان باشا قد مات ، فأضاف حلقة الى سلسلة عظماء مصر الذين ودعوا عالمنا هـذا فى السنتين الماضيتين[1] . لكنه ودعه على صورة غير تلك التى ودعوه عليها . هم كانوا بين مجاهد تحفزه قوى الشباب للجهاد ، وآخر بعض طبعه الكفاح ، وثالث اضطر لاعتزال الناس اضطرارا . أما هو فجاهد لخير وطنه فى شبابه ، ثم جاهد له فى كهولته ، ثم جاهد له وقد نيف على التسعين ، وبعد اعتزامه الانقطاع الى الله وعبادته . فلما دب الخلاف بين المصريين واندلع لهيب الفتنة فى البلاد نأى عن الفتنة مختارا وعكف على ما اعتاد من عبادة وتقوى ، وظل فى تقواه وفى عبادته ينتظر بقلب مطمئن ونفس هادئة اليوم الذى يختاره الله فيه الى جواره . فلما كان عصر يوم الثلاثاء الماضى أغمض عينيه عن عالمنا هذا ليفتحها هناك فى العالم الذى قضى سنيه الطويلة يرجوه ، عالم أجر وسعادة لايعرفان الزمان ولاالمكان لأنهما يسموان على كل زمان ومكان .

وليس كثيرون من أبناء هذا الجيل من يذكرون شخص محمود باشا سليمان ، كانت أجيال مصر المتعاقبـة ، وكان تاريخ مصر يذكره أطيب الذكر . ليس كثيرون من يذكرون هـذا الرجل المهيب فى وقاره ، النحيف فى جسمه ، الطويل القامة فى اعتدال، الحاد

(١) كتبت هذه الرسالة لمناسبة وفاته فى ٢٢ يناير سنة ١٩٢٩ .

النظرات ، الأسمر اللون ، الجليل المشيب . ولئن كانت قد مضت سنوات لم أره فيها ، فانى ما أزال أذكر أول مرة رأيته ، وكنت ما أزال طالبا بالحقوق ، وكنت أتردد على دار « الجريدة » عند أستاذنا لطفى بك السيد . فبينا أنا هناك فى أحد أيام ربيع سنة ١٩٠٨ دخل محمود باشا سليمان فحياه الحاضرون فى اجلال واحترام وقدمنى له لطفى بك . وأشهد لقد جلست يومئذ وفى نفسى شيء من الرهبة أمام هذا الشيخ الذى يحمل طى تجاعيد وجهه صحفا مجيدة من تاريخ مصر . جلست وجعلت أحاول أن أختلس ، فى نظرات يداخلها الحياء والخوف ، صورة رئيس حزب الأمة آتيا يتحدث الى كاتب حزب الأمة . وانتظرت أن يتكلم ، فمضت لحظات خلتها طويلة طويلة وخلت معها أن وجودى قد يحول دون الشيخ والكلام ، فاستأذنت وانصرفت . ولم أره بعد ذلك غير مرات قليلة كانت الأخيرة منها حين كان رئيسا للجنة الوفد المركزية وحين كانت تتعلق باسمه آمال الوفد المصرى فى أوربا ، وآمال المصريين فى مصر .

هذا الرجل قد غادرنا بعد أن طوى رحلة الحياة فى أناة وتؤدة ووقار ، وانتقل منها فى مثل هذه التؤدة والأناة والوقار الى جوار ربه وما يرجو من حسن ثوابه . غادرنا بعد اذ خلف وراءه تاريخا حافلا جليلا وذكرا لاتشوب سواطع نوره شارة من ظلام . فلقد وهب هذا الرجل حياته كلها لله ولوطنه ولأبنائه . كان فى عهد المغفور له اسماعيل باشا الخديو رجلا كاملا مسموع الرأى نافذ الكلمة ، ترك عمدية بلده ساحل سليم ونظارة القسم التى تتبعه الى وظائف وكيل مديرية فى جرجا وفى أسيوط . فلما صدر القانون

النظامى بعقد مجلس النواب فى عهد توفيق باشا تقدم للنيابة عن الأمة وانتخب عضوا بمجلس النواب وألقى عليه أن يلقى خطاب العرش ، وكان له فى هذا المجلس مواقف يذكرها له التاريخ . فلما شبت نار الثورة العرابية كان من بعيدى النظر الذين قدروا ما يمكن أن يصيب البلاد من جرائها ، فتنحى عن الاشتراك فيها كما تنحى بعد ذلك عن الاشتراك فى النظام الذى أعقبها . فمع هذه المكانة الكبيرة التى كانت له ، ومع ما أظهر من مقدرة فى مجلس النواب الذى سبق الثورة ، ومع أنه لم يكن من أنصار الثورة وأعوانها ، فانه لم ير بعد فشل الثورة واحتلال الانكليز مصر أن يتقدم للعمل العام تحت النظام الجديد الذى سنه الانكليز لمصر حين استصدروا من الخديو قانون مجلس الشورى والجمعية العمومية ، بل تنحى عن العمل العام وترك القاهرة الى الصعيد ، وعكف على عمله الخاص وعلى البر بالفقراء . وظل كذلك من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٥ حين أخرجه ظرف محلى خاص من هذه العزلة وجعله يتقدم لعضوية مجلس الشورى ، وما لبث أن عاد الى القاهرة والى العمل العام حتى انتخب وكيلا للمجلس وحتى كانت له فيه مواقف مشهودة .
واذا كان للتاريخ أن يذكر السابقين الى مطالبة الانجليز بأن يخلوا بين مصر ووضع نظام الحكم فيها ، فلقد كان المغفور له محمود باشا فى مقدمة هؤلاء . كان فى مقدمتهم منذ كان عضوا فى مجلس الشورى وحين ترأس بعد ذلك حزب الأمـة . واذا كان للتاريخ أن يذكر السابقين الى الأحزاب المنظمة ، فان محمود سليمان باشا هو أول من ترأس حزبا ذا برنامج ونظام فى مصر . فلقد كانت الأحزاب المصرية الى يوم تشكيل حزب الأمة تقوم على فكرة الدعوة لعمل

واحد معين . فالحزب الوطنى أيام عرابى باشا كانت مطالبه محصورة فى الدستور وفى التسوية بين المصريين والأتراك من رجال الجيش. والأحزاب والهيئات التى جاءت بعد ذلك كانت تطلب مطلبا واحدا كجلاء انكلترا عن مصر أو ما هو من ذلك بسبيل . أما حزب الأمة فكان أول الأحزاب التى وضعت لها برنامجا مفصلا يتناول مرافق البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية جميعا . وعلى نهجه سلكت الأحزاب الأخرى بعد ذلك .

ولقد تألف حزب الأمة على هذه الصورة فى أخريات سنة ١٩٠٧ وسبقته الجريدة ، التى كانت بعد ذلك لسان حاله ، بشهور . وكان رئيس شركة الجريدة ورئيس حزب الأمة هو المغفور له محمود باشا سليمان . فلما حدثت بعد ذلك بسنوات أسباب للخلاف بين المسلمين والأقباط وكان من أثرها أن عقد الأخيرون مؤتمر أسيوط يتهمون فيه حكومات ذلك العصر بانها تنئى الأقباط عن مناصب الحكم ولا تعطيهم حظهم الكامل منها ، وكانت هذه الحركة خطيرة النتائج ، كان محمود سليمان باشا من الذين تقدموا للقضاء عليها ولاعادة الألفة بين العنصرين . ولذلك تألف المؤتمر المصرى بهليوبوليس واختار المغفور له رياض باشا رئيسا له ومحمود سليمان باشا وكيلا له ، وفند مزاعم الأقباط يومئذ وأظهر الناس على أن لهم من مناصب الحكم أكثر من نسبتهم العددية بكثير ، ودعاهم الى أن يكونوا فى وحدة الأمة صفا .

وجاءت الحرب الكبرى وكان محمود باشا قد جاوز الثمانين وحق له أن يستريح من عناء العمل وأن يخلص كل نفسه لله فى انتظار لقائه اياه . والحق أن صفحات الجهاد التى كانت له

فى ماضيه وما قام به كأب من حسن العناية وجميل البر بأبنائه كان كافيا وفوق الكفاية ليكتب لهذا الرجل صحيفة مجد باقية . وصحت عزيمته على الاعتزال والانقطاع لله حتى لقد خرج من ماله لأبنائه فى سنة ١٩١٦ واعتزم عيش الزهادة والنسك وتمام الانقطاع لله . وما أجمل هذه الشيخوخة الطاهرة المنزهة عن شوائب الهوى والتى قامت فيما سبق لها من سنى الحياة بما يطلب الى الرجل من جد وبر وتقوى ، تقضى فى حساب النفس والقربى الى الله ورجاء مغفرته وثوابه . ما أجمل الشيخ يصل الى قمة الحكمة بعد أن يطوف من الحياة بشهواتها وأهوائها ومطامعها ومالها ومجدها فتدعوه الحكمة الى أن ينظر الى الأهواء والمطامع والشهوات جميعا نظرة اصغار أن كانت لا بقاء لها ولا متاع للنفس بها ، وانما المتاع بانعام النظر فى الكون واستكناه ما فيه من خير وحق وجمال .

على أن الأقدار كانت قد احتفظت لمصر بصفحة أخرى من صفحات المجد يخطها محمود سليمان باشا . ليكن لشيخوخته عليه حق ، ولتكن خير خاتمة المرء أياما تقضى فى العبادة والتقوى ، وليكن محمود سليمان قد خرج من دنياه تاركا اياها الى أولاده وانقطع لنفسه ولربه — ليكن ذلك كله فان للوطن مع ذلك عليه حقا . وهو لم ينس يوما حق الوطن عليه . لذلك ما كادت الحرب العامة تضع أوزارها ، ثم ما كادت الحركة الوطنية المصرية تبدأ ، حتى اذا هذا الشيخ خرج مرة أخرى من عزلته وجاء ينضم الى صفوف المجاهدين لاعلاء شأن الوطن ورفع مناره وتقديس كلمته . ولئن كان قد نيف على الثمانين فلن تزيده سنه ولن يزيده مجده ومقامه

وعظمته الاحرصا على الوقوف فى الصف الأول من صفوف المجاهدين وأن يكون فى مقدمة من يتعرض لمايصاب به من يتعرض للدفاع عن عظمة هذا الوطن واستقلاله . وكان منظرا يبهر النفس ما فيه من مهابة واجلال . فلقد جلس محمود باشا فى رياسة لجنة الوفد المركزية يوم كانت البلاد تضطرب أحشاؤها من أقصاها الى أقصاها ويوم كانت الأحكام العرفية بالغة قسوتها أعظم مبلغ ، جلس فى رياسة لجنة الوفد المركزية وجعل من داره كعبة قصاد خدمة الوطن وأقسم لا يتزحزح الا أن تزحزحه القوة . وأرادت القوة يوما أن تبتلى نباته وعزمه فأصدرت اليه الأمر أن يبرح القاهرة ، فاذا به لا يبرحها حتى ذهبوا الى ذهبيته وأبعدوها عن ميدان العمل السياسى على كره منه . ولقد كان فى ذلك ، كما كان فى غيره ، سباقا الى مثل التضحية والمكانة العلية . وكان فى هذا مثلا عاليا من النزاهة والتضحية لخير الوطن .

ولما آن للبلاد أن تنقسم بعضها على بعض وأن تقوم بين أهلها الفتنة ، اعتزل الميدان نهائيا وان لم ينس قديم صلاته بأصدقائه سواء منهم من كان فى فريقه السياسى ومن كان فى فريق مخاصم له . وعلى اشتداد الخصومة فى وقت من الأوقات بين الاحرار الدستوريين والمغفور له سعد زغلول باشا فان محمود باشا سليمان كان أسبق من أرسل الى سعد باشا على أثر عودته من جبل طارق يهنئه بسلامة مقدمه . وكذلك كان فى هذه كما كان فى غيرها عظيما ساميا فوق شهوات الساعة ، كبيرا عن أن يتأثر بالأهواء الطارئة .

ومن يوم أن اختلفت الأحزاب فى مصر عكف هو على ما كان قد اعتزم منذ سنوات من الانقطاع لله ولعبادته . وظل كذلك حتى ارتضاه الله الى جواره يوم الثلاثاء ٢٢ يناير سنة ١٩٢٩ . ارتضاه الى جواره فخلف هذه الدنيا فى أناة وتؤدة وحكمة ، كما عاش فيها فى أناة وتؤدة وحكمة .

عبد الخالق ثروت باشا

ما أحسب فجيعة من الفجائع التى منيت بها الأمم كانت أشد وقعا على النفوس من فجيعة مصر فى المغفور له عبد الخالق ثروت باشا • وما أحسب رجلاً وجل خصومه كما وجل أصدقاؤه لفقده ، كما اشترك أصدقاء هذا الفقيد العظيم وخصومه فى وجلهم لرحلته رحلة الأبد • ثم ما أحسب العقل والعاطفة والحواس جميعا اهتزت بالحسرة وبالأسى اهتزازها لهذا الحادث الذى رج نفوس الناس رجا بل دكها دكا • ولن أنسى ما حييت تلك اللحظة الأسيفة التى عرفت فيها الخبر أثر الوفاة بسويعات حين دخلت الى صـالون السيدة المحترمة هدى هانم شـعراوى بباريس فألفيتها وألفيت الأستاذ الكبير هلباوى بك وألفيت زائريهما وكلهم باكو العين والفؤاد وكلهم فى شبه ذهول لما أصاب مصر فى مصرع هذا الرجل الذى كانت تعتبره مصر كلها ملاذها اذا حزب الخطب وضلت بساسة مصر وساسة انكلترا السبل • ثم لن أنسى ما حييت اسراع المصريين وأصدقاء مصر الأجانب الى سكنه فى باريس بشارع أناتل دلافرج Arsene de la Forge وليس منهم من يقف فزعه لوفاة رجل كان له بعد فى الحياة سعة ، بل كلهم أشد فزعا لمصر وما أصابها بفقد هـذا الربان الذى اختاره القدر ليسير بدفة سفينتها حين الزعازع الهوجاء فينقذها من أدق المواقف • لن أنسى هذا ، ولن أنسى صاحب الدولة عدلى باشا يكن فى منزل الفقيد وفى مشهد

جنازته بباريس وهو يتساءل عن الوفاة وكيف كانت فى جزع دونه جزع الأخ لفقد أعز أخ له عليه ، وهو يحاول حبس عبرته فتخونه كما تخون جميع الذين شهدوا صندوق جثمان الفقيد . ينقل من عربة الجنازة الى عربة السكة الحديدية . وكيف ينسى انسان هذا ومن أحاط بالفاجعة ولكل انسان من هذه الفاجعة الأليمة نصيب لأنها فاجعة مصر وفاجعة السلام ؟ .

ويأبى القدر الا أن يحيط هذه الفاجعة بما يزيدها هولا ، اذ يختطف الرجل فى بلاد نائية عن وطنه ويختطفه على عجل ، كأن للقدر عند مصر ثأرا لا تهدأ ثائرته الا اذا أشعرها ألما موجعا ينقض الضلوع بعضها على بعض . فلقد كان ثروت فى صحته حين جاء الى باريس من سان مورتز يوم الاثنين السابع عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨ — أى قبل وفاته بخمسة أيام . فلما كان يوم الجمعة الحادى والعشرين من سبتمبر خرج فى الصباح كعادته وعاد بعد الظهر بقليل يشكو ألما فى الكتف وفى الظهر . واستدعى طبيب الحى ففحص الحالة ورأى أنها بسيطة لا تزيد على روماتزم يزول فى زمن قصير . لكن الآلام تزايدت أثناء الليل . فلما جاء محمد على دلاور بك فى الصباح ليعود صديقه رأى معه ضرورة استدعاء استاذ أخصائى أجابهم أنه سيكون هناك فى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، لأنه لا يستطيع ترك المستشفى الذى يعمل فيه قبل هذا الموعد . وحضر الأستاذ الطبيب فى الموعد ، فلما فحص المريض فى سريره وخرج الى قاعة الاستقبال خرج دلاور بك فى أثره يسأله رأيه . وكان رأيا مروعا . فالباشا اعترته ذبحة صدرية ان استطاع احتمالها ساعتين كان فى نجاة حياته شىء من الأمل .

لكن الطبيب فى شك من استطاعة احتماله اياها . وهو ماكاد يغادر غرفة الاستقبال الى سلم الدار حتى اذا ثروت باشا قدشعر بالتنفس يضيق ثم يضيق ثم يضيق ، فيؤلمه ذلك ويوجعه . ولكى تخفف من هذا الألم رفعت السيدة المحترمة زوجته اياه الى صدرها . ثم لم تك الا لحظة حتى شعر الباشا بشيء أنطقه فى دهشة وعجب بلفظ : « الله » وكانت هى آخر كلمة قالها . فان شريانا متصلا بالقلب انفجر فى هذه اللحظة أشعره الخطر حين لم يك الى دفع الخطر سبيل ولا الى اتقاء الكارثة التى تفجر لها فؤاد مصر وسيلة . ونودى بالطبيب فعاد فاذا به أمام جلال الموت وكان من برهة أمام رجل ألبسته الحياة وألبسها كل حلل الجلال .

وكأنما أراد القدر اذ كتب لوح أجل ثروت فى باريس بعيدا عن بلاده وكتب على زوجه أن تكون فى هذه الساعة العصيبة الى جانبه ، أن يحيط الفجيعة المفزعة بما يخفف من هول وقعها ، فجمع بباريس فى هذه الفترة جماعة من أخصاء ثروت وأصدقائه ومحبيه وعارفى فضله فى خدمة بلاده . جمعهم ليكونوا الى جانب جثمانه وليحاولوا عزاء زوجته وولده مصطفى المقيمين معه . وقام المصريون المقيمون فى باريس وطائفة كبيرة من الفرنسيين وغير الفرنسيين فى اليومين اللذين انقضيا بين الوفاة وتشييع الرفات فى سفرها لتستقر فى ثرى الوطن بكل ما يجب لثروت من اكرام واجلال .

وفى هذين اليومين اللذين انقضيا بين الوفاة والتشييع الى ثرى الوطن كنت تسمع من المصريين جميعا عبارة ملكت عليهم ألبابهم : من ذا يحل عقد المشاكل اذا تعقدت بعد ثروت ؟! كنت

تسمع هذه العبارة تصدر عنهم جميعا على اختلاف نحلهم وأحزابهم . أو لم يكن هو دائما الموئل الذى يلجأ اليه المصريون مهما علت أقدارهم والذى يلجأ اليه الانكليزحين يحزب الأمر ولا يكاد انسان من الناس يرى له من طريق السلام فرجا ولا حلا ؟ لذلك كان الكل ينظرون اليه كأنه الربان الذى ينقـذ السفينة كلما ارتطمت على الصخر وخيف عليها أن تتحطم فطبيعى أن يتساءل الكل عمن يحل عقد المشاكل اذا تعقدت بعد موته .

ولعل أحدا لم يذكر فى وفاة ثروت مصاب زوجه وأبنائه فيه ، لأن الناس نسوا فى هذه الوفاة كل مصاب غير مصاب الوطن . مع هذا فمصاب بنى ثروت ومصاب أصدقائه فيه كأب وكصديق فادح فاجع كمصاب الوطن سواء بسواء . فلقد كان أبر أب بأبنائه وأوفى صديق لأصدقائه . بل ان الذين عرفوه أبا ليذكرون كم كان بره عظيما وكم كان حنانه أعظم من بره . وكم كان صـديقا لأبنائه بمقدار ما كان أبا لهم . وكم كان يجـد فى صداقتهم له مايزيد فى عواطف الأبوة والبنوة سموا ورقة . وان الذين عرفوه صديقا ليعرفون له من الوفاء لهم ما قل أن يكون له فى صديق مثال . ثم هو الى جانب ذلك كان حصافة الرأى ونبل الشمائل والشهامة والذكاء صورت كلها رجلا .

* * *

ولد محمد عبد الخالق ثروت سنة ١٨٧٣ فى بيت جاه ونعمة . كان أبوه المغفورله اسماعيل عبد الخالق باشا ابن المرحوم عبدالخالق أفندى من أصل أناضولى ، وكان من كبار الحكام فى عهد محمد على الكبير . وكانت أمه من بيت تركى هى الأخرى . وقد أرسل به

أبوه الى مدرسة عابدين وهو فى الثامنة من عمره ، ثم تابع دراسته فى مدرسة النورمال حتى اذا نال شهادة الدراسة الثانوية التحق بمدرسة الحقوق ثم كان أول الناجحين فى اجازة الليسانس سنة ١٨٩٣ .

وكان ثروت الطالب ، على ماذكر الأستاذ لطفى بك السيد زميله فى مدرسة الحقوق ، « شابا حسن الطلعة ، تعلوه سيما الجد فى غير عبوس ، مترفعا فى غير كبر ، سهل الأخلاق دون فناء فى الأغيار ؛ وكان فى أمله وفرحه معتدلا محتفظا فى كل حال بكرامته ، نافذ الرأى فى بيئته ، ودودا من غير الحاح ، ومتحفظا من غير انقباض ، محبب العشرة فى رقته . وكان فى جاذبيته حلاوة حديثه متفوقا كما كان فى ذكائه واجتهاده . نعم فقد كان ذكيا حاد الذكاء مواتى البديهة كثير الاشتغال ، فوق درس الحقوق ، بمناحى الثقافة يلتمسها فى الآداب الفرنسية والعربية . وأكثر ميله فى هذا الباب الى التاريخ على العموم والتراجم على الخصوص ، ميل كبر معه حتى صار فى السنين الأخيرة — من حياته — نوعا من الشغف » وكان لشغفه هذا مظهر عرفه عنه كل أصحابه وعرفه عنه باعة الكتب فى مصر وفى باريس بنوع خاص . فقد كان كثير التردد عليهم والبحث فى مخازنهم عن كتب قديمة نفدت طبعاتها ، وكان لا يأبى أن ينفق فى هذا البحث أياما متتالية حتى يقع على طلبته . فاذا وقع عليها أمعن فيها بحثا وتقليبا حتى يقف منها على غاية البحث الذى يدور بخاطره .

ولما نال اجازة الحقوق التحق موظفا بوزارة الحقانية سكرتيرا للمستشار القضائى بها . وكان المستشار القضائى يومئذ السير

جون سكوت من أحسن من عرفت الحكومة المصرية مقدرة ونزاهة وسرعان ما قدر مواهب ثروت حتى اختصه بكل ثقة وحتى وضع فى يده كل نفوذه . ونفوذ المستشار الانكليزى يومئذ كان أقوى من نفوذ الوزير المصرى ، بل كان نفوذ أى موظف انكليزى أقوى من نفوذ أكبر كبير من ولاة الحكم فى مصر . لذلك كان ما استولى عليه ثروت من نفوذ ومن ثقة بحيث طوع له أن يقوم فى وزارة الحقانية مقام صاحب الأمر والنهى فيها وما يزال شابا لم يبلغ الخامسة والعشرين من سنه . وعاونت هذه الحرية فى السلطة ما وهب من مقدرة وذكاء ، فلم يلبث غير قليل حتى تقدم فى وظائف القضاء وحتى عين مستشارا بمحكمة الاستئناف ثم نقل مديرا لأسيوط ثم عاد الى الحقانية نائبا عاما واختير وزيرا لها فى سنة ١٩١٤ .

على أنه لم يقصر نشاطه فى هذه الفترة من حياته على المناصب التى تولاها والتى أسرع به الزمن فيها الى حد لم يعرفه غيره ، ثم كان بثقافته وذكائه واقتداره مثلا عاليا للموظف الكفء القدير . بل لقد أسلس من نشاطه الى أعمال عامة لا اتصال لها بالحكومة ، بل كانت الحكومة تنظر اليها فى كثير من الأحيان بشيء من الريبة والحذر . انتخب عضوا فى ادارة الجمعية الخيرية الاسلامية ، وعضوا فى ادارة الجامعة المصرية ، وكان يومئذ ما يزال يشغل منصب النائب العام . وكانت له فى الجامعة وفى الجمعية سلطة نافذة وارادة قوية ، ثم كان لنفوذه بعد أن علا فى العالم السياسى نجمه ما زاد الهيئتين قوة واقتدارا على القيام بالأعمال الجليلة فى البر وفى الثقافة مما أنشئتا من أجله .

وقد ظل اقتداره وظل نفوذه معروفا فى الدوائر الخاصة بالقضاء

وعند المسئولين عن شئون مصر العامة ، حتى عين فى منصب النائب العام . وكان المسئولون وكانت دائرة القضاء تقدر فيه الى جانب فضله حرصه على تنشئة من يتوسم فيهم الكفاية والمقـدرة من الشبان وممن يطمع فى أن يقوموا لبلادهم بمثل الدور الذى قام به هو لبلاده . فلما كان صاحب الدعوى العمومية أتاح له حادث خطير أن اتصل بالجمهور اتصالا مباشرا ، فقد اعتدى ابراهيم ناصف الوردانى على حياة المرحوم بطرس باشا غالى فى سنة ١٩١٠ بأن أطلق عليه الرصاص ساعة خروجه مع ثروت باشا النائب العام من وزارة الحقانيـة وتولى ثروت بنفسه تحقيق هذا الاعتـداء والمرافعة فى الدعوى . هنالك اطلع الجمهور منه على اقتدار خاص . وهنالك بدأ الجانب السياسى من حياة الرجل تظهر نواته وتكاد تتحدد سياسته . فالعبارة التى ننقلها من تلك المرافعة تلخص الى حـد كبير ما جرى عليه ثروت كوزير وكرجل سـياسى بقيـة حياته ، قال :

« نحن أول من يجل الاشتغال بالمسائل العامة ويرى أن السعى بالطرق المشروعة فيما ترقى به البلاد وأهلها من فروض العين على المصرى ، وان كل مصرى مطالب بتضحية شىء من وقته وماله وهمته فى خدمة بلاده . نحن أول من يرحب بتنمية الوطنية ورياضـة النفوس على احتمال أشق المشقات فى اعـلاء اسم مصر وزيادة شرفها ورفعتها . كذلك نرى أن من مرقيات الأمم الدارجة فى رقيها النظر فى أعمال القابضين على أزمة الأمور فيها ونقدها . ولكنا لا نسلم بحال من الأحوال أن يتطلع الى مقام ناقد الحكام الا رجل جمع الى العلم الغزير والحكمة البالغة الاتزان فى القول والفعل حتى

يقدر الأعمال قدرها وينظر فى الأمور بفكر صحيح ، فلا يتعدى حد المشروعية والا انقلبت الخدمة وبالا وارادة الخير شرا » .

هذه العبارة من مرافعة ثروت تنم من حياته السياسية المستقبلة عن جانبين : الأول تقديره السعى لتقدم البلاد واستقلالها على انه فرض من فروض العين على كل مصرى . والثانى أن يكون ذلك السعى بالطرق المشروعة لا بالثورة ولا بالفوضى ولا بالاعتداء . ولئن كان هذا التعبير — بالطرق المشروعة — هو الذى اتخذته مصر من بعد شعارا لها فى المطالبة بحقوق كان ثروت بطل تحقيق النصيب الأوفى منها ، فان هذا التعبير بالذات قد جعل ثروت كنائب عام يقف من كثرة شباب مصر يومئذ موقف الريبة ؛ فالشباب ، وان قدر بعقله ما للحق فى ذاته من قوة تتغلب على كل قوة سواها ، متعجل يريد أن يرى الحق فى قبضة يده ، أو هو يصفق وان فى أطواء قلبه لمن يعتدى على من يحسبه الحائل دون هذا الحق . لذلك كان الوردانى موضع عطف الكثيرين من الشباب وان لم يكن موضع عطف الذين يقدرون الأشياء بنتائجها من المسئولين ، ولذلك كان ثروت بمرافعته موضع اعجاب المسئولين وتقديرهم وموضع حنق الشباب عليه مع اعجابهم بقدرته كالمسئولين سواء بسواء .

ولم يحرك حنق الجمهور ولا متابعته الشباب فى غضبه أى عصب من أعصاب ثروت . ذلك بأن جانبا ثالثا من جوانب حياته السياسية كان الاعتداد برأيه هو وبعقيدته ، لا برأى الجمهور وعقيدته فيه . فهو ما اطمأن ضميره ورضيت نفسه مقدم على عمله غير عابىء برأى الناس فى اقدامه . وهو مقدم فى جرأة عجيبة لا يسهل تصديقها الا على الذين عرفوا قدر دماثة الخلق ووداعة الطبع وحب الخير والميل العظيم الى البر والرحمة .

وحرك الحكم بالاعدام على قاتل بطرس غالى النفوس بشىء من مثل ما تحركت له على أثر الحكم فى قضية دنشواى ، وكان بطرس رئيسا لمحكمتها المخصوصة . تحركت النفوس ذاكرة دنشواى واتفاقية السودان ، ملتهبة غيرة بما سمعت فى الدعوى من مرافعات الدفاع عن الوردانى مرافعات حارة تفيض تقديرا لوطنيته التى دفعته الى جريمة ارتكبها مدفوعا بعوامل لاقبل له بمقاومتها . والحق أن هذا الحادث الذى عقب حكم دنشواى فى سنة ١٩٠٦ ثم صدور العفو عن المحكوم عليهم من الدنشوائيين فى سنة ١٩٠٨ ، ثم وفاة مصطفى كامل ، الذى جاهد حتى استصدر العفو بعد صدوره بشهر واحد . نقول ان هذا الحادث حرك النفوس فى مصر الى المزيد من السعى فى المطالبة بحرية كان الشعور ما يفتأ متزايدا بأن الاحتلال الانكليزى القابض على أزمة الأمور فى مصر يحاول القضاء عليها قضاء أخيرا . وكان من أثر هذا الشعور — الذى ازداد التهابا حين أحس بتخلى أوربا عنه بالاتفاق الودى الذى عقد بين فرنسا وانكلترا فى سنة ١٩٠٤ وبعجز الباب العالى الذى انهزم أمام انكلترا فى حادث طابه فى سنة ١٩٠٦ — أن بدأت فى البلاد حركة اعتماد على النفس وتقدير لما يجب من جهود المصريين لوطنهم بما جعل الحكومة المصرية التىتقوم لتستر الحكومة الفعلية ، حكومة المستشارين الانكليز ، تحس بغضاضة على نفسها وحرج فى مركزها . وكان ذلك شأن حكومة محمد سعيد باشا التى تولت مناصبها بعد وفاة بطرس . على أنها حرصت على أن تظهر فى مظهر الحكومة الوطنية فيما كان يقع من مناقشات فى مجلس الشورى ، ثم ظهرت كذلك فى مظهر الحكومة الوطنية حين

استصدرت ، بموافقة انكلترا وعميدها فى مصر لورد كتشنر الذى خلف سير الدون جورست بعد وفاته ، قانونا جديدا لنظام الحكومة المصرية ، هو قانون الجمعية التشريعية .

وتمت الانتخابات لهذه الجمعية فى أواخر سنة ١٩١٣ ، وبدأت عقد جلساتها منذ أوائل سنة ١٩١٤ بعدما انتخب فيها من أقوياء الحجة فى مصر وذوى المكانة منها ماجعل الحكومة لا تستطيع طول مناقشة الجمعية اياها . فاستقالت وان لم يكن ثم نص فى القانون النظامى بمسئوليتها أمام هذه الهيئة النيابية . وشكل حسين رشدى باشا الوزارة الجديدة واختار ثروت باشا وزيرا للحقانية فيها .

على أن الحرب العظمى لم تلبث أن أعلنت فى أغسطس سنة ١٩١٤ فلم يكن بد من ارجاء عقد جلسات الجمعية التشريعية حتى انتهائها . ويذكر الذين عاشوا هذا الظرف الدقيق من حياة مصر والحكومة المصرية كم كان مركز مصر حرجا ، وكم كان مركز الحكومة المصرية أشد حرجا . فمصر كانت ولاية عثمانية ممتازة تدين بالولاء لتركيا . وخديو مصر عباس حلمى الثانى كان غائبا عن مصر مقيما بالآستانة متهما فى نظر الانكليز بالتآمر مع تركيا ومع ألمانيا على انكلترا وعلى الحلفاء . ورشدى باشا رئيس الحكومة والقائم مقام الخديو مدين هو وحكومته لتركيا وللخديو بالاخلاص والولاء . وانكلترا صاحبة اليد العليا فى مصر والجيوش الجرارة على أرضها تملك بكلمة أن تضمها الى أملاكها من غير أن يستطيع الخديو أو تستطيع تركيا دفاعا عنها . وهيهات اذا ضمت مصر الى أملاك انكلترا أول الحرب أن يكون أمل فى أن تخرج من هذا المركز بعد الحرب اذا انتهت هذه الحرب بانتصار انكلترا

وحلفائهـا ، أو أن يكون أمل حتى فى مركزها كولاية عثمانية ممتازة اذا انتهت الحرب بانكسار انكلترا وانتصار الألمان عليها . فما عسى تصنع حكومة حسين رشدى فى هذا المركز الدقيق ؟ .

وزاد مركز تلك الحكومة دقة وحرجا أن الشعور العام فى مصر كان ميالا الى جانب ألمانيا آملا فى فوزها طامعا فى أن تحرر من نير انكلترا . وكأنما تجددت يومئذ فى نفس المصريين الذين كانوا يعتمدون من قبل على فرنسا لتجلى لهم جنود انكلترا عن أرضهم آمال فى الاعتماد على ألمانيا لتحقق لهم هذه الغاية . وكان هؤلاء المصريون الموالون ألمانيا بعواطفهم يدورون فى الأندية والأماكن العامة وفى قطر السكة الحديد وبيدهم خرائط الحرب مؤشرا عليها بمواقع القتال وبما كسب الألمان واندحر الحلفاء . ودعاية كهذه من شأنها أن تعد البلاد للثورة اذا لم تكن حكومتها مستعدة لقمع كل حركة من الحركات الطائشة فيها . لكن هذا الاستعداد من جانب حكومة رشدى باشا لم يكن له تأويل الا الدفع بمصر الى أحضان انكلترا والخروج بذلك على ما كان معروفا يومئذ من ميول تركيا ميولا انتهت بخوضها غمار الحرب الى جانب ألمانيا . فوقفت تلك الحكومة محاولة أن تصل الى خير الوعود من انكلترا بالنسبة لمصر يوم تنتهى الحرب لمصلحة الحلفاء ، عاملة على أن يصيب مصر أقل ضير ممكن من جراء الحرب ، نافضة يدها بعد ذلك من شؤون الدفاع عن مصر بعد ما أعلنت انكلترا الأحكام العرفية فيها وأخذت هذه المهمة على عاتقها ، منتظرة تطور الحوادث وما يمكن أن يجيء القدر به .

وأعلنت تركيا الحرب منضمة الى ألمانيا ، فألفت انكلترا الفرصة سانحة لتغيير موقف مصر السياسى . وقد دار بخاطر أولى الأمر فى

لندن — على ما ذكر لورد جراى وزير الخارجية الانكليزية فى ذلك الحين — أن يعلنوا ضم مصر الى أملاك التاج . لكن اعتراضات قامت فى هذا الصدد : أولها وأقواها أن الحلفاء الذين تحارب انكلترا واياهم كتفا لكتف يؤولون هذا التصرف من جانبها بأنها أرادت أن تقرر لنفسها غنائم الحرب قبل أن تضع الحرب أوزارها وقبل أن تتفق واياهم على شىء فى هذا الصدد . ثم ان اعلان الضم ربما كان من شأنه أن يهيج الشعور فى مصر الى حد ربما كانت عواقبه غير مأمونة . على ذلك فكرت حكومة لندن فى اعلان الحماية على مصر ، وانتهت ، بعد شىء من التردد ، الى اختيار السلطان حسين كامل سلطانا فى القاهرة بدل ابن أخيه عباس الذى قررت انكلترا أنه انضم انضماما ظاهرا الى أعدائها ، فلا يمكن أن يعتلى عرشا تحت حمايتها . ودارت محادثات طويلة فى هذا الشأن بين الوكالة البريطانية والحكومة المصرية انتهت الى قبول رشدى باشا وزملائه الأمر الواقع والبقاء فى مناصبهم كوزراء تحت نظـام الحماية ، آملين متى انتهت الحرب أن تجد انكلترا فى تصرفهم ما يجعلهم منها بمكان يستطيعون معه الوصول الى خير نظام سياسى لبلاد ألقت المقادير على عواتقهم أعباء مصـيرها فى ظرف دقيق لم يكونوا يتوقعونه . وظلت حكومة رشدى باشا ، وفيها ثروت باشا وزيرا للحقانية ، حتى وضعت الحرب أوزارها وأعلنت الهدنة فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، قائمة بكل ما أخذت به نفسها من ولاء للحلفاء وحرص على مصالح مصر ورجـاء فى أن لا يسوء مركزها بسبب ظروف احتملوها ولم تكن لهم يد فيها .

ولما كانت الشروط الاربعة عشر التى وضعها الرئيس ولسن

رئيس جمهورية الولايات المتحدة معتبرا اياها أسسا للهدنة والصلح قد أعلنت قبل الهدنة بأشهر مشتملة على شرط يجعل للشعوب حق تقرير مصيرها ، فقد انتهز جماعة من أعضاء حزب الامة — نذكر من بينهم على باشا شعراوى ، ولطفى بك السيد ، ومحمد باشا محمود وعبد العزيز باشا فهمى — هذه الفرصة ففكروا فى تكوين هيئة تطالب لمصر بحقها فى تقرير مصيرها . وأفضى هؤلاء بفكرتهم الى حكومة رشدى باشا فوجدوا منها ارتياحا لها . ففاتحوا سعد زغلول باشا على أن يكون رئيسا لهيئتهم باعتباره وكيل الجمعية التشريعية المنتخب كما فاتحوا عبد اللطيف المكباتى بك ومحمد على باشا من أعضاء الحزب الوطنى . وعلى ذلك تألفت هيئة أطلقت على نفسها اسم الوفد المصرى ووضعت صيغة توكيل من الامة لها بالسعى لاستقلال مصر أينما وجدت اليه سبيلا . ووزعت هذه التوكيلات فى طول مصر وعرضها بعلم حكومة رشدى باشا .
وكان من رأى السير رنجالد ونجت مندوب انكلترا السامى فى مصر يومئذ أن يترك لهذا الوفد حرية السفر الى انكلترا أو الى حيث شاء من ممالك أوربا وأن يسافر حسين رشدى باشا وعدلى يكن باشا ليعبرا فى لندن عن مطالب المصريين . ولو أن نصيحة السير ونجت نجحت يومئذ لتغير ، على الأغلب ، وجه المسألة المصرية ولسارت فى طريق غير التى سارت فيها بسبب رفض انكلترا الاذن للوفد وللوزيرين المصريين بالسفر .

ورفضت حكومة لندن سفر أحد من الوزراء المصريين وسفر رجال الوفد الى انكلترا أو الى مؤتمر السلام . ولم تنجح محاولات الحكومة المصرية والمندوب السامى البريطانى فى تحويل

الحكومة الانكليزية عن رأيها . هنالك استقال رشدى باشا وعدلى باشا واستقالت وزارتهما فى ٦ فبراير سنة ١٩١٩ . ولقد خيل الى المراجع العليا يومئذ أنهم واجدون فى ثروت باشا ، وله من الكفاية والمقدرة ما له ، الرجل الذى يستطيع التغلب على الموقف باقناع رجال الوفد كى يعدلوا عن خطتهم ، كما خيل اليهم أن ثروت باشا لن يرفض رياسة الوزارة حين تعرض عليه وما يزال يومئذ فى الخامسة والأربعين من عمره . لكن تقديرهم أخطأ ، فقد كان ثروت باشا مشتركا بقلبه وبعقله مع الحركة الوطنية ومع زميليه عدلى ورشدى . ثم هو كان يقدر التبعة الكبرى التى احتملها مع زميليه بقبول البقاء فى الوزارة بعد اعلان انكلترا حمايتها على مصر. فاذا كانت المقادير قد أتاحت النصر لانكلترا ، وكانت مصر ، والحكومة المصرية بنوع خاص ، عاملان من عوامل هذا النصر اعترف به الفيكونت مارشال اللنبى قائد جيوش الحلفاء فى الشرق، فان من خطل الرأى وسوء التدبير الذى لا يليق بسياسى حنكته تجارب الحرب ما حنكت ثروت باشا أن يرضى العاجلة من رياسة الوزارة بديلا لما كان يرى حقا لأمته أن تبلغه من نظام يتفق مع مكانتها ويعادل بعض الجهود التى بذلتها أثناء الحرب الكبرى . واذا كانت بعض دول أوربا التى خاضت غمار الحرب الى جانب الحلفاء قد حصلت على وعود بالتوسع وضمان الاستقلال ، واذا كانت بلاد العرب قد اعتبر لها استقلالها ، فلن يكون ثروت هو الذى يقبل وزارة يعتبر قبولها حيلولة دون مصر وما تطمع فيه من استقلال وعزة مكان بين دول العالم .

ورفض أن يشكل الوزارة فى هذا الظرف الدقيق ، مقدرا أن

سيحسب عليه رفضه عند ذوى الكلمة والمراجع العليا فى مصر . بل لقد أبلغ يومئذ أن رفضه هذا يحول بينه وبين الوزارة بقية حياته ، فلم يعبأ بما أبلغ اليه وأصر على الوقوف الى جانب أمته اصرارا دعا الوفد ، وعلى رأسه سعد زغلول باشا ، كى يسعى بكامل هيئته الى دار ثروت باشا مقدما اليـه التهنئة على ابائه الوطنى وآيات الشكر على تضامنه مع الوفد فى حركته القومية. وكانت كلمات سعد باشا له أن تضامنه مع الحركة القومية العامة يكسب الوفد قوة والبلاد أملا فى النجاح . وترتب على هذه الزيارة لبيت ثروت باشا أن أنذرت السلطة العسكرية الوفـد بأنهم بحركاتهم يعرقلون سير الحكومة . على أن هذا الانذار لم يزد على أن ثبت ثروت باشا فى اصراره على رفض تشـكيل الوزارة وعلى وضـع حجر الأسـاس برفضه هـذا لنجـاح القضية القومية .

من ذلك التاريخ بدأ ثروت باشا نشاطه السياسى فى السعى لاستقلال بلاده بالطرق المشروعة التى أشار اليها فى مرافعته فى قضية قاتل بطرس باشا غالى . ومن ذلك التاريخ أخلص لغايته كل نفسه وكل جهده وازدرى الى جانبها كل ما يطمع فيه غيره . على أن ثقته المطلقة بنفسه كانت تدعوه الى أن يتبع فى سياسته خطة غير التى يتبعها كثيرون من الساسة غيره . فهو لم يكن يبدأ بأن يعلن للناس مطالبه مستعينا فى تحقيقها بالقوة أو بالوقيعة أو بالمساومة . بل كان يحدد فى نفسه غاياته ويعتمد قبل كل شيء على البحث المقترن بالحكمة والمنطق وحكم العقل . وقوته ومهارته وصبره كانت تكفل له النجاح دائما فى بلوغ ما يريده . وكان

يكفل له هذا النجاح كذلك ما تعوده من الاضطلاع بالتبعات وحمل المسئووليات منذ أول شبابه وحين كان سكرتيرا لمستشار الحقانية الذى ألقى بين يديه بواسع سلطته . بهذه القوى عنده استعان حين جاءت لجنة ملنر سنة ١٩٢٠ لتنظر فى وضع نظام لمصر تحت الحماية البريطانية فاشترك مع أصدقائه السياسيين ، رشدى باشا وعدلى باشا واسماعيل صدقى باشا ، فى اقناع اللجنة بضرورة التفاهم مع هيئة الوفد المصرى فى أمر القضية المصرية . وكان ثروت باشا من بين زملائه هو الذى ينقل آراء اللجنة ووجهات نظرها الى رجال الوفد بباريس كى يمهد لهم الوقوف على آرائها وخططها ، حتى اذا اتصلوا بها كان اتصالهم منمرا . فلما انتهت اللجنة من محادثاتها مع الوفد وأعلن مشروع ملنر فى سنة ١٩٢٠ ثم قدمت اللجنة تقريرها وأعلنت الحكومة البريطانية اعترافها بأن الحماية علاقة غير مرضية بين مصر وانكلترا وطلبت الى عظمة سلطان مصر ايفاد هيئة تتفاوض مع الحكومة البريطانية فى استبدالها بعلاقة أوجب للرضا ، شكل عدلى باشا وزارته الاولى فى مارس سنة ١٩٢٠ وكان ثروت باشا وزير الداخلية فيها .

وعاد سعد زغلول باشا من باريس فى أوائل ابريل ودارت محادثات بينه وبين الوزارة انتهت الى اختلافه واياها فى طريقة تشكيل الوفد الذى يقوم بالمفاوضة واعلانه الحرب عليها فى خطبة ألقاها فى ٢٨ ابريل بحى شبرا . ثم سافر عدلى باشا على رأس الوفد الرسمى الذى تألف بأمر عظمة السلطان ليقوم بالمفاوضة ، واستصحب معه من أعضاء وزارته حسين رشدى باشا واسماعيل صدقى باشا ومحمد شفيق باشا ، كما استصحب غيرهم مفاوضين

ومستشارين . وقام ثروت باشا فى مصر رئيسا للوزارة بالنيابة . وكوزير للداخلية مسؤول عن حفظ الأمن والنظام اللذين كانا مهددين بحركات أنصار سعد باشا زغلول لم يتردد فى احتمال التبعات التى رآها واجبة فى هذا الظرف ، دالا بذلك على جرأة وحزم لا يعرفان ترددا ولا هوادة . وبرغم الجهود التى بذلها عدلى باشا والوفد الذى كان معه فى سبيل اقناع الانكليز بوجهة نظر مصر ، وبرغم تناولهم كل مسألة من المسائل الخلافية بين الدولتين ابتغاء الوصول الى حلها حلا يقنعهما ، فقد جنى الخلاف بين سعد باشا والحكومة على هذه المفاوضات فلم تؤت الثمرة التى كانت مرجوة منها ، ولذلك قطع عدلى باشا المفاوضة بعد أن أعلن اليه لورد كرزون وزير الخارجية البريطانية مشروع حكومته . واستقال عدلى باشا على أثر وصوله . ونشرت السلطات البريطانية المشروع المذكور مرفقا بمذكرة مهينة لمصر أشد الاهانة .

تحرج الموقف السياسى بين مصر وانكلترا على أثر هذه الاستقالة . ثم زاده حرجا أن قبضت السلطة العسكرية البريطانية على سعد زغلول باشا وخمسة من أنصاره وقررت نفيهم عن مصر . هنالك عادت البلاد كلها كلمة واحدة تنادى بعدم التعاون مع انكلترا وتدعو كل مصرى أن لا يقبل تأليف وزارة تضطلع بمسئولية الأمر فى مصر ، حتى تظل انكلترا وأحكامها العرفية مسؤولة مباشرة عن كل ما يقع فيها .

فى هذا الظرف ظهرت مهارة ثروت باشا السياسية وظهر اقتداره . ان المشروع الذى أعلنته انكلترا ولم تقبله مصر يقضى باعتراف انكلترا باستقلال مصر استقلالا مقيدا فى مسائل معينة . وهذه

القيود هى التى لا ترضاها مصر . فاذا أرجأنا النظر فى هذه القيود الى ظرف مقبل أكثر ملاءمة من ظرف المفاوضات وما كان يشوبه من خلاف بين سعد باشا زغلول والحكومة المصرية وأعلنت انكلترا من جانبها التخلى لمصر عما ارتضت أن تتخلى عنه أثناء مفاوضات عدلى باشا ووفده ، كانت هذه خطوة جديدة من جانب انكلترا تدل بها على حسن نيتها بازاء مصر وتزيل الحرج الذى أدى اليه كتابها المرفق به المشروع ، ثم لا تكون قد خسرت شيئا لأنها انما تتنزل عما كانت معتزمة من قبل التنزل عنه . على أنه حين بدأ محادثاته مع معتمد انكلترا للوصول الى هذه الغاية لم يبدأها بطلب الغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ، لما كان يعلمه من أن هذا الطلب يلاقى من جانب حكومة لندن بالرفض ، بل تقدم بطلبات لا يبدو أول الأمر أن لها بوجود الحماية البريطانية لمصر أو برفعها اتصالا . ولم يكن بد أمام العقل من قبول انكلترا هذه الطلبات . وبعد قبولها وتحديد المسائل التى تعلق لمفاوضات حرة مستقبلة بين مصر وانكلترا ، وصل ثروت باشا من بحثه الى نقطة تبين معها لممثل انكلترا نفسه أن بقاء الحماية الانكليزية مفروضة على مصر لم يبق له أية فائدة لانكلترا نفسها . وحكم العقل يقضى بأن التشبث بأمر لا فائدة من ورائه سخف لا يليق بذوى الفطنة السياسية . وقد بلغ من اقتناع اللورد اللنبى معتمد انكلترا واقتناع المستشارين الانكليز فى الوزارات المصرية برأى ثروت باشا ، أن هددوا جميعا بالاستقالة اذا وقفت لندن فلم تجب مطالبهم . وعجبت حكومة لندن لهذا الموقف فاستدعت معتمدها ومستشاريه فذهبوا اليها ، ولم يكن الا أيام حتى أقنعت حجج ثروت الحكومة الانكليزية

أيضا . وعاد لورد اللنبى فى يوم ٢٨ فبراير سـنة ١٩٢٢ فأعلن فى مصر تصريحا من جانب انكلترا بأنها تعترف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة وتنتهى لذلك حمايتها عليها محتفظة لمفاوضات مستقبلة بمسائل أربع : الدفاع عن مصر ، وحماية مواصلات الامبراطوريه ، وحماية الأجانب والاقليات ، ومسألة السودان . وعلى أثر ذلك أجاب ثروت باشا دعوة جلالة الملك فشكل وزارته الأولى فى أول مارس سنة ١٩٢٢ .

على أن هذا العمل العظيم الذى قام به ثروت باشا من حمل انكلترا على الاعتراف باستقلال مصر كان سببا لأن تدبر ضده فى الخفاء مؤامرة لاغتيال حياته . وقد دبر هـذا الاغتيال قبل اعلان التصريح بيومين . على أن ادارة الأمن العام علمت بالمؤامرة وأحبطتها ، بأن أبلغت ثروت باشا الخبر وتفاصيله ، وأن المؤتمرين يكمنون له عند كوبرى الأعمى ، حتى اذا مر فى سيارته ذاهبا الى نادى محمد على فتكوا به . وقد طلب ذلك اليوم الى مقابلة عظمة السلطان فى عابدين فى الوقت الذى كانت المؤامرة فيه تريد اتمام جريمتها . فدعا اليه صديقه وزميله فى محادثات الانكليز بشأن الاعتراف باستقلال مصر حضرة صاحب المعالى اسماعيل صدقى باشا وطلب اليه أن ينوب عنه فى مقابلة جلالة الملك على أن يركب سيارة بالاجرة . وكذلك نجا ثروت وقبض على المتآمرين . ومن يدرى ماذا كان يصيب مصر لو أن الجناية تمت على ما يشتهى المدبرون ؟ .

واعـلان انكلترا اعترافها بمصر دولة ذات سيادة بفضـل مجهودات ثروت باشا السلمية ومقدرته على الاستفادة من الظروف

بتقديره قوة بلاده ومطالب انكلترا — هذا الاعلان رفع مقامه فجعله سياسيا فذا فى نظر العالم بأسره ؛ وجعل أبناء أمته يتطلعون اليه معجبين به وبمهارته . على انهم انقسموا مرة أخرى ، لا فى قدرهم المجهود لذاته ، ولكن فى الخطة السياسية ، أو بالأحرى فى الخطة الحزبية التى يسلكونها بازاء التصريح بالاستقلال وبازاء الرجل الذى فاز به . فأما الطوائف الحكيمة التى تقدر الأشياء بقيمتها الحقيقية فاعتبرت التصريح خطوة جدية فى سبيل استكمال الاستقلال وعاهدت ثروت باشا على مؤازرته فى خطته . ووقفت طوائف أخرى حريصة من ناحية على ألا يمس التصريح أذى ، عاملة فى نفس الوقت على مناوأة ثروت باشا وحكومته مناوأة دفعتهم للطعن على التصريح والانتقاص من قيمته . وقد كان من مظاهر هذا الموقف ان أمسك هؤلاء عن ابداء رأيهم فى التصريح حين أعلن البرلمان الانكليزى أنه يريد بحثه فى جلسة حدد لها يوم ١٤ مارس سنة ١٩٢٢ ، وظلوا فى وجل أى وجل أن لا تنال حكومة لويد جورج ثقة البرلمان بسبب اعلانها اياه . فلما فازت هذه الحكومة البريطانية بالثقة وأعلن جلالة ملك مصر استقلالها فى ١٥ مارس واطمأن هؤلاء المتحفزون الى أنه أصبح حقا لمصر لاينازعها فيه أحد بدأوا حملتهم عليه حملة منظمة غايتها الحملة على حكومة ثروت باشا . على أن ثروت لم يتردد فى هذا الظرف لحظة ، بل ظهر بكل ما يجب من قوة وحزم وبدأ ينفذ ما ينطوى عليه التصريح من حقوق مصر بانشاء وزارة الخارجية التى كانت ألغيت منذ أعلنت الحماية البريطانية على مصر فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ ، وباقالة المستشارين البريطانيين من مختلف الوزارات عدا وزارتى

الحقانية والمالية ، وبتشكيل لجنة من خيرة رجال مصر لتضع للبلاد نظاما دستوريا على أحدث المبادىء العصرية ، وبالضرب على يد الفوضى فى كل صورها ومظاهرها ، واظهــار الحكومة المصرية الأهلية بمظهر الاحترام الواجب لها .

وليوطد فى النفوس الايمــان بحق مصر دعا فى ٢٦ مارس سنة ١٩٢٢ ، لمناسبة عيد ميلاد جلالة الملك ، الى حفلة كبيرة بفندق الكونتننتال حيث ألقى خطابا يبين فيه مزايا العمل الجليل الذى قام به ويرسم فيه الخطة الواجب اتباعها لاستكمال الاستقلال . وقد يبدو عجيبا أن تكون الفكرة السائدة فى هذا الخطاب هى بعينها الفكرة التى وردت فى مرافعة عبد الخــالق ثروت النائب العــام فى قضية الوردانى ، والتى أوردت نصها من قبل . فقد جاء فى هذا الخطاب السياسى ما نصه :

« لم يبق علينا الا أن نقنع انكلترا أن ليس بها من حاجة الى التمسك بالضمانات التى تريد الاحتفاظ بها فتخطو بريطانيا العظمى خطوة أخرى بالاكتفاء بما لا يتنافى منها مع استقلالنا الشرعى . وليس لدينا وسيلة لتأييد ما نذهب اليه أكثر من تعلقنا بأهداب السكينة والتزامنا الهدوء وأخذنا بأسباب النظام . فان حجتهم الكبرى فيما يبدونه من رغبة فى الضمانات هى شدة حذرهم على مصالحهم وخوفهم عليها وعدم اطمئنانهم الى تركها لعهدتنا . فاذا قضينا على عوامل الفتنة والاضطرابات وجعلنا التزام السكينة رائدنا فاننا نثلم هذا الســلاح بأيديهم وندفع حججهم علينا . ولا مشاحة فى أن كل من يعمل على تعكير السلام أو اثارة الاضطراب مجرم فى حق وطنه عامل على هدم كيانه » .

ثم جاء فيه أيضا :

« اننى لا أكره المعارضة ، بل اذا انعدمت هذه المعارضة فاننى أعمل على خلقها لما لها من نفع وفائدة فى الوصول الى الحقيقة وتمحيص كل أمر على أكمل وجه . ولكنى أريد المعارضة الشريفة التى تترفع عن الاعتبارات الشخصية ولا تنزل الى اختلاق الاكاذيب . اننى أريد الخصومة الشريفة التى لا تنظر الا لمصلحة الوطن وخير البلد وتدرس كل أمر لذاته مجردا عن كل اعتبار شخصى » .

وهذه الخطة التى رسمها ثروت فى خطاب يوم عيد ميلاد جلالة الملك ، هى التى كررها من بعد فى خطب ألقاها فى افتتاح لجنة الدستور ولوفود ذهبت اليه فى شؤون سياسية مختلفة . ولقد كان لهذه الخطة الحكيمة أن تؤتى ثمرها كاملا بفضل مهارة ثروت وحنكته وقوة منطقه لو أن مناوأته لم تنتقل من الميدان الوطنى الصحيح الى ميادين أخرى . فبينا هو يعمل جادا فى تطبيق مزايا الاستقلال الذى حصلت عليه مصر مقيدا بالتحفظات التى أشرنا اليها ، وقعت على جماعة من البريطانيين ، ضباطا وجنودا ومدنيين ، سلسلة اعتداءات شنيعة أودت بحياة ثمانية عشر منهم على التعاقب . على أن هذه الاعتداءات وحدها ما كانت لتجنى على خطته لو لم يقترن بها ما جعل مركز وزارته حرجا غاية الحرج بعد زمن وجيز من بدء لجنة الدستور عملها . فقد عمدت هذه اللجنة الى وضع مبادىء تتفق مع المبادىء العصرية التى كلفت بوضع الدستور المصرى على أساسها ، وشاركها ثروت باشا الرأى فى مبادئها . وفى رأى البعض أن مصر بلاد شرقية يجب أن تسود فيها وسائل السياسة

الشرقيـة وخططها . لذلك ألقى ثروت باشـا نفسه فى موقف لا يستطيع معه القيام بأعباء الحكم على الوجه الذى يرضاه ضميره . وبرغم المحاولات الكثيرة التى بذلها لتهدئة العواصف الكمينة فى ثورتها حوله ؛ فانه شعر بدقة المركز فجعل يستعجل لجنة الدستور حتى وضعت مشروعه وتعجلت بعد ذلك فى وضع مشروع لقانون الانتخاب . ورفعت اللجنة مشروعها اليه فى جلسة تاريخية ألقى فيها كلمة ذكر أثناءها أنه سيعمل على صدور الدستور كما وضع مشروعه ؛ وكان ذلك فى ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢٢ . ولما كان جماعة أصـدقائه السياسـيين يؤلفون فى هـذا الوقت حزب الأحرار الدستوريين ، انتظر من معونتهم ما يكفل اقتـداره على السير بسياسـته خطوة أو خطوات أخرى . لكن الحزب ما كاد يتألف فى ٣٠ أكتوبر ، ثم ماكاد يمضى أسبوعان على تأليفه حتى أطلق جماعة من الشبان الرصاص على باب داره ، دار جريدة «السياسة» فأصابوا حسن باشا عبد الرازق واسماعيل بك زهدى من أعضاء مجلس ادارته . وأبدت الصحف المناوئة لهذا الحزب أن الرجلين ذهبا ضحية خطأ يؤسف عليه لأنهما لم يكونا مقصودين بالذات .

وكثرت الأقاويل حول المصادر الحقيقية التى تشجع هـذه الجرائم ، ورأت وزارة ثروت باشا بعد أن رفعت الدستور الى جلالة الملك أنها تخطت بالبلاد خطوات يمكن الوقوف عندها فترة ريثما تطمئن النفوس وتهدأ أسباب الجريمة . وعلى ذلك رفع ثروت باشا استقالته فى يوم ٣٠ نوفمبر منوها فيها بما أتمت وزارته وبما مهدت له من صـدور الدستور وغـير الدستور مما نص فى تصريح ٢٨ فبراير على وجوب صدوره .

واعتكف ثروت منتظرا ظرفا خيرا من الظرف الذى كان فيه فى الحكم ليعود الى الميدان فيعمل لاتمام ما بدأه بتصريح الاستقلال على أنه فى اعتكافه لم يتوان يوما عن بذل كل ما لديه من نفوذ كى يصدر الدستور . فلما صدر فى ١٩ ابريل سنة ١٩٢٣ أيام قيام وزارة يحيى باشا ابراهيم وانتظرت البلاد الانتخابات ، أخذ يتوقع فى ظروفها ما يطوع له العود لتنفيذ سياسته . وسياسته ، كما رأيت ، تقوم على الاخلاص الصحيح والعزم الوطيد على اتمام اتفاق بين انكلترا ومصر تحل به المسائل المعلقة فى التصريح . وعسير الوصول الى هذا وفى البلد من آثار الانقسام ما يخشى أن يجنى على أية مفاوضات جديدة جناية الانقسام على المفاوضات التى تولاها عدلى باشا يكن سنة ١٩٢١ . فلما عاد سعد زغلول باشا من منفاه فكر ثروت فى امكان التفاهم معه اجتنابا لكل انقسام مستقبل . لكن علاقات الرجلين كانت متوترة منذ سنة ١٩٢١ أشد التوتر . وقد ألقى المحيطون بسعد فى روعه أن ثروت هو الذى نصح بنفيه . ثم ان سعدا كان قد طعن على ثروت أشد المطاعن وأقساها . بل لقد ذهب فى الطعن عليه الى اتهامه فى اخلاصه لوطنه . فكيف يستطيع ثروت أن ينسى هذا كله وأن يتقدم الى ناحية سعد خطوة من الخطى ؟ على أنه رأى كرامة الوطن فوق كرامة أى فرد من أبنائه ، فبعث الى سعد بخطاب يذكر له فيه أنه فى حرصه على مصلحة الوطن يريد أن يحتكم واياه فى أسباب الخلاف بينهما الى الأمراء وذوى الرأى والمكانة فى البلاد . وكان يرجو من احتكامه أن تزول أسباب الانقسام وأن تعود وحدة الأمة ليعود هو ، معتمدا على هذه الوحدة ، الى استكمال استقلال

بلاده باتمام الاتفاق بين مصر وانكلترا . لكن مسعاه هذه المرة لم ينجح أن رفض سعد باشا التحكيم . وبقى ثروت باشا بعد ذلك بين كتبه ومكتبته وفى عمله المتصل بالجمعية الخيرية الاسلامية وبالجامعة المصرية وبغيرهما من الهيئات التى كانت أبدا فى حاجة الى ثاقب رأيه . فلما كانت سنة ١٩٢٥ أدت الظروف السياسية الى التفاهم والائتلاف بين سعد زغلول باشا وخصومه السياسيين . ذلك أن سعد باشا حصل حزبه على الأغلبية الكبرى فى انتخابات سنة ١٩٢٤ فتولى الوزارة وظل فيها حتى اعتدت جماعة ينسب بعضهم الى حزبه على حياة السير لى ستاك باشا حاكم السودان العام . فأبلغت انكلترا حكومته انذارا قاسيا اضطرت بعده الى التخلى عن المناصب . وخلفه أحمد زيور باشا فى رياسة الحكومة ، فاستعان بالأحرار الدستوريين بعد أن حل مجلس النواب وأجرى انتخابات أسفرت عن أغلبية لحزب سعد باشا كذلك . فحل المجلس الجديد أيضا وأجلت الانتخابات الى أجل غير مسمى . على أن الحل الأول وهذا التأجيل الثانى خلق فى البلاد حزبا جديدا كان أعضاؤه كثيرى التردد على القصر الملكى وكانت رغبتهم عن الدستور والحياة النيابية أكثر من رغبتهم فيهما . وخيل لأعضاء هذا الحزب يوما أنهم يستطيعون القيام وحدهم فأقيل رئيس حزب الأحرار الدستوريين من الوزارة واستقال زميلاه الوزيران اللذان كانا من أعضاء حزبه تضامنا واياه ، وسنحت بذلك فرصة التفاهم والائتلاف مع حزب سعد زغلول باشا ضد الخصم المشترك والعمل معا لعود الحياة النيابية . وكذلك قربت الظروف بين ثروت باشا وسعد باشا ، وكان يخيل للكثيرين أنهما لن يلتقيا . وجرت

الانتخابات وألف عدلى باشا يكن الوزارة الائتلافية الأولى وجلس سعد باشا فى رياسة مجلس النواب . وفى أوائل ابريل سنة ١٩٢٧ استقال عـدلى باشا : فألف ثروت باشا وزارته الثانيـة وبقى سعد باشا فى منصبه رئيسا للنواب . وكانت انكلترا يومئذ قد أرادت ، متأثرة بآراء مندوبهـا السامى اللورد جـورج لويد ، التحرش بالحكومة المصرية ، فخلقت ما سمى أزمة الجيش وبعثت بأساطيلها الى الاسكندرية ولم يعرف أحد قط مطالبها على وجه التحديد . فاستطاع ثروت باشا ، بمهارته وكياسته ، أن يقضى على هذه الأزمة من غير أن تصل انكلترا من مطالبها الى أكثر من منح أحد الموظفين الانكليز بوزارة الحربية المصرية رتبة الباشوية .

حدث بعد ذلك أن سافر جلالة الملك فؤاد الى أوربا مدعوا الى زيارات رسمية بانكلترا وايطاليا وفرنسا وبلجيكا . وبعـد شىء من التردد استصحب جلالته رئيس وزارته ثروت باشـا فى رحلته . فانتهز ثروت فرصـة وجوده بانكلترا وفاتح وزير خارجيتها السير أوستين تشمبرلن فى أمر أزمة الجيش وتحدث اليه فيما اذا كان مستطاعا الوصول الى حل المسائل المعلقة بين الدولتين اتقاء أزمات أخرى . وقد انتهت هـذه المحادثات الى مشروع لم يقبل فى مصر ولكنه مهد السبيل الصحيح الى الاتفاق النهائى وربما كان ممكنا تعديله بما يمهد لقبوله ، لو أن سعد باشا زغلول بقى حيا الى حين انتهاء ثروت من محادثاته . لكنه توفى أثناءها ، فى ٢٣ أغسطس سـنة ١٩٢٧. ، ولم يخلفه من حنكته التجاريب السياسية ماحنكت هذا الزعيم . وطلب الىثروت باشا أن يحل مجلس النواب وأن يجرى انتخابات يعرض فيها المشروع الذى وصل

اليه على البـــلاد ، فأبى . لأنه رأى أحزاب مصر كلها لا تقبــل المشروع ؛ ولأنه من ناحية أخرى خشى اذا حل المجلس أن لايعود . واســتقال من الوزارة ونشر يوم استقالته كتــابا أخضر عن مفاوضاته . ويدل هذا الكتاب والمذكرات التى اشتمل عليها على ضخامة المجهود الذى بذله ثروت أثناء قيامه بالمفاوضات منفردا ضخامة لم يعرف لها حتى اليوم فى حياة سياسى مصرى نظير . ويدل كذلك على مقدرة وذكاء وكفاية وتضلع بالسياسة العالمية قل أن يكون لها مثيل . ثم يدل على صحة ما رواه عنه السير أو ستن نشمبرلن لأحد أصدقائه اذ قال : « أتاح لى اتصالى فى جمعية الأمم بأكثر وزراء الخارجية فى الدول المختلفة أن أقدرهم جميعا . وما أحسب واحدا منهم يفوق ثروت مهارة وقوة حجة وحسن بيان » . وفى الكتاب الأخضر المذكور الى جانب هذا كله، اتجاه جديد فى سياسة ثروت يرمى الى ربط الاتفاق بين مصر وانكلترا بقضية السلام فى العالم ، ويجعل لذلك من الرجل سياسيا عالميا لا سياسيا قوميا وكفى . فقد أبدى وزير الخارجية البريطانية من التشدد فى بعض الأمور ما رأى ثروت باشا معه أن المناقشة أصبحت غير مجدية وأن مقامه فى لندرة للوصول الى الغاية التى ينشدها لم يبق له محل . وكان أمامه اذ ذاك أن يعلن ذلك الى قومه فى عبارة قوية أخاذة ، وأن يعود محاطا بهالة من الجــلال والاعجاب . لكن ذلك ليس يتفق مع طريقته فى التفكير ولا هو يقرب الغاية التى ينشدها ولا يؤيد السلام الذى يسعى لتأييده . لذلك لجأ الى الحكمة ينادى داعيها فى نفس الوزير الانكليزى ، حتى اذا لم يجب هذا الداعى وأصر على تشدده كان مسئولا أمام

العالم كله وكان مخالفا فى خطته مع مصر كمفتاح بلاد الشرق الخطة التى اتبعتها الدول الاوربية فيما بينها لتأييد السلام . فبعث بخطاب فيه من البراعة السياسية ، ومن الحرص على كرامته وكرامة بلاده ، ومن تحميل مناظره تبعة عدم النجاح ، ما يشهد به نصه اذ قال :

« عزيزى صاحب السعادة »

« من أطيب الأشياء الى نفسى أن أعرب لسعادتكم ، قبل مغادرتى لندرة ، عن عظيم شكرى لما لقيته لديكم من حسن الاستقبال . وان أنس لا أنس نزعة الود التى ما برحتم تصدرون عنها فى محادثاتنا ولا ما أبديتموه على الدوام من صادق الرغبة فى التماس أسباب التوفيق بين البلدين » .

« ولقد كان يسعدنى أن أرى مساعيكم المجيدة فى تثبيت أركان الصداقة بين القطرين تكلل بالنجاح ، كما أنه يؤلمنى أن يخفق كل ما بذل من الجهود فى هذا السبيل ، تلك الجهود التى لم تجعل ، حتى اللحظة الأخيرة ، مجالا للشك فى حسن ختام محادثاتنا فى هذا الشأن » .

« ولا أزال أرجو ، اذ أنادى منكم داعى الحكمة وألتجىء الى صادق شعوركم وصحيح انصافكم ، أن تدركوا الغاية التى تعملون لها ، وأن تضموا الى اكليل « لوكارنو » اكليل الاتفاق بين انكلترا ومصر » .

ولم تضعف استقالته من الوزارة من ايمانه بامكان الاتفاق بين مصر وانكلترا . بل كان يرجو فى ظروف سياسية جديدة ما يمكنه من العود لمعالجة المفاوضات من جديد مع عظيم الرجاء فى نجاحها .

لكن المجهود العظيم الذى أنفقه والمقابلة السيئة المنطوية على انكار الجميل ، التى قوبل بها ، ومحاولته نسيان ذلك بالاكباب على العمل فى مجلس الشيوخ كعضو من أعضائه ، كل ذلك هز أعصابه وأضعف قوته • فسافر مستشفيا فى صيف سنة ١٩٢٨ وذهب الى سان مورتز ثم عاد منها الى باريس فى ١٨ سبتمبر • ولم يكن يدرى أن أجله يتربص به فيها ليختم كتاب حياته فى الساعة الثانية من بعد ظهر ٢٢ سبتمبر ، أى بعد وصوله اليها بخمسة أيام •

وبكت مصر ثروت ، وتقدمت دول العالم كلها تعزيها فيه ، وتناولت الصحافة فى مختلف الامم أعماله فشادت بها ورفعتها الى المكان الجديرة به •• بكته مصر مقـدرة جميل صنيعه ، وعظيم نزاهته ، وعلو همته ، آسفة على مافرط منها أيام حياته فى حقه • مؤمنة بأن سيبقى اسم ثروت علما فى تاريخ مصر على الاقتدار السياسى المنقطع النظير •

الكتاب الثاني

تراجـــــم غربية

بتهوفن

اليوم ، ٢٦ مارس سنة ١٩٢٧ ، يحتفل العالم بمرور مائة عام على وفاة بتهوفن ، اجلالا لتلك الألحان القدسية التى أورثها اياه هذا النابغة الشقى ، والتى ما تزال برغم ما أحدث كبار رجال الموسيقى آيات خالدة فى عالم النغم . فما يزال لحن الريف وألحان بتهوفن التسعة الأخرى وسائر أناشيده الغنائية تموج فى جو الوجود فتزيده بالحياة نعمة ، وتشدو فى أغوار نفوس عارفيها والمعجبين بها كلما أعوزهم اللحن العذب ليرفع من هممهم وليقوى عزائمهم . وما يزال اسم بتهوفن ولن يزال مقترنا بكل لحن من هذه الألحان ، بل بكل نغمة من نغماتها . وذكر العالم اليوم له لمرور مائة عام على وفاته ليس الا أداء لدين الشكر الواجب على العالم لكل من زاد حياته جمالا وفضلا وقوة .

يذكر العالم كله اليوم بتهوفن فيذكر ذلك الألمانى المولد ، الفلمنكى الأصل ، المتقارب أجزاء الجسم فى قصر يكاد يجعله قزما ، الحاد النظرة ، العبوس ، المتجهم للحياة بعد ما تجهمت الحياة له ، فأورثته المرض وانتهت به الى الصمم ، الجاعل مع ذلك من الألم سبيل المسرة ، المفنى نفسه فى سبيل فنه ، المؤمن برسالته وبقوته . يذكر العالم هذا الرجل الذى لم يجد فى غير العمل سبيلا للسعادة ، أو بالأحرى لحسن احتمال الشقاء ، والذى توفر على عمله فى الموسيقى توفرا جعله ينتج هذه الثروة الفنية ، والذى لم يعرف

غير الموسيقى ولم يؤمن بشيء ايمانه بها أن كانت أعصابه أوتارا تهتز بالنغم لكل ماقى الحياة .

فقد كان كل ماقى الحياة عنده نغما ، كان الجمال نغما والعواطف نغما والأفكار نغما والنور والظلمة والحزن والمسرة والزهر والشجر والسحاب والجبل وكل ماقى الطبيعة وماقى الحياة أنغاما تشدو بها أوتار هـذه النفس العصبية الحساسة الشديدة التأثر بكل ما يلامسها .

بهذه الأنغام وبما تعبر عنه من جليل المعانى وبذكرى واضعها يحتفل العالم اذن اليوم .

وعجيب أن كانت حيـاة واضع هذه الأنغام السماوية نشازا كلها . فلم ينشأ بتهوفن نشأة غيره ولم تتسق حياته مع نبوغه ، ولم يذق من الهناء ما يذوقه أمثاله . بل كان ، وهو على حـد قوله « باكوس الذى يستصفى للانسانية الرحيق العذب ويجلى على الناس أقدس ماقى الروح من جلال » ، معذبا فى نشأته ، معذبا جل حياته ، معذبا كذلك فى موته . ولعل ما متعت به ذكراه بعد ما استراح من عناء الحياة ونشازها الدائم معه ، قد أفاء على روحه من الطمأنينة ما لم يسترح اليه يوما طوال عيشه .

* * *

ولد لدفج فان بتهوفن بمدينـة بون على مقربة من كولونيا فى ١٦ ديسمبر سنة ١٧٧٠ . وكان أبوه مغنيا سكيرا ، وكانت أمه خادما وابنة طباخ وأرمل فراش . وهذه بداية فى الحياة لا تبشر بخير ولا بنعمة . بل هى نذير صراع للوجود قاس قتال . ولم يمهله أبوه الى أكثر من الرابعة من عمره حتى تبين منه ميلا للموسيقى ،

فأراد أن يستغله بعرضه على الناس وحبسه ومعه كمنجا صغيرة ، وأرهقه بالعمل حتى كاد يكره اليه فنا خلق له . لكن كسب الأب كان تافها ، فكان لابد للطفل أن يجنى من عمله عيشه . فما بلغ الحادية عشرة حتى كان عازفا فى اركسترا أحد المسارح . وفقد أمه وهو فى السابعة عشرة من عمره . فحزن لفقدها أشد الحزن أن ألقى ذلك عليه أعباء العناية بأمر أسرته وتربية أخويه بسبب ما انحط من قوى أبيه .

وفى نوفمبر سنة ١٧٩٢ ارتحل الموسيقى الى فينا عاصمة ألمانيا الموسيقية على أثر موت أبيه . وكان يومئذ كما كان طوال حياته ميالا للعزلة محبا للعمل حبا جما . وكان لذلك قد جعل من البيانة (١) خير أصدقائه . فاليها كان يبث شجنه حين اضطر لهجرة دار أهله وقد جعلتها عربدة أبيه جحيما ، واياها كان يستودع الأفكار الطريفة التى يفيض بها قلبه ، وعليها كان يرتجل هذه الأفكار ارتجالا ، ومعها كان يتناجى بما يجول فى نفسه من خلجات وما يجيش به صدره من عواطف ، وبها كان يعبر للنساء اللواتى أحب عما يغمر قلبه من هيام وما يحز فيه من غيرة . بل لقد كان يتحدث بها الى أصدقائه . ولم يكن أكثر منها بلاغة للعبارة عما فى نفسه . فقدت سيدة من معارفه ولدها وجزعت لفقده أى جزع ، فلما ذهب بتهوفن يواسيها أمسك بيدها ووضعها على قلبه وقال لها : « ان ما أشعر به هنا لاسبيل الى بيانه . لكن البيانة ستقوله عنى » ثم جلس الى الآلة الموسيقية وارتجل قطعة يحكى فى صدرها أمله ، ثم كانت للسيدة نعم العزاء . وكذلك كانت البيانة

(١) البيانو على نحت الأستاذ مصطفى صادق الرافعى .

صديقته كما كانت موضع قوته فى الموسيقى وسلطانه فى الارتجال • بلغ من السلطان عليها حتى قال عنه موزار — الذى ملأت ألحانه آذان ذلك العصر وما تزال الى اليوم من مفاخر الموسيقى — وقد سمعه وهو فى السابعة عشرة من عمره يرتجل وحده فى غرفة مجاورة للغرفة التى كان فيها موزار وجماعة من أصدقائه : « تنبهوا الى هذا الشاب فسيكون موضع حديث الناس يوما من الأيام » •

ذهب الى فينا على أثر وفاة أبيه بدعوة من أعضاده وفى مقدمتهم الكونت دوالشتين • وكان أكبر همه من ذهابه اليها أن يدرس على هايدن أكبر المؤلفين الموسيقيين الألمان يومئذ • لكن هايدن كان مشغولا بتواليفه جد الاشتغال فلم يجد الشاب من وقتـه ما يفيده • فتركه بل قاطعه وعمد ليدرس على البرختبرجيـه • وكانت أخلاق هـذا الأستاذ على علمه يشوبها كثير من الغرور والجفوة بما لا يتفق وأخلاق بتهوفن الحرة الثائرة • وعلى ذلك أكمل دراساته الموسيقية وحده فظل فيها من آثار النبو عن متعارف القواعد مالم يعبأ به نبوغه الخالق وقوته الخارقة للعادة وسلطانه الذى حلق فى السماك فخضعت له كل القواعد •

وعضده يومئـذ البرنس لخنفسكى وآواه فى داره وفرض له ستمائة فلورينا سنويا • وألفت بينهما صداقة متينة لم تكن تخلو من أسباب لسوء التفاهم قضت دائما عليها الأميرة لخنفسكى التى كانت موسيقية تقدر فضل النابغة الذى يقيم معهم حق قدره •

ويومئذ كانت الثورة الفرنسية تغزو العالم كله بمبادئها • وكان بتهوفن خصما لها أول أمره • لكن مداومته قراءة هوميروس وأفلاطون وفرجيل وتاسيت وتبينه المبادىء الجمهورية التى قامت

عليها الثورة ، جعل منه نصيرا من أكبر أنصارها . ولذلك لم يتردد حين جاء اليه الجنرال الفرنسى برنادوت يطلب اليه أن يضع لحنا symphonie لمجد قنصل الثورة بونابارت . وأتم بتهوفن اللحن وكان على أهبة ارساله الى باريس اذ علم أن نابليون توج نفسه امبراطورا . فما لبث أن عاد الى بيته ساخطا ومزق لحنه وقال : « كلا ! هذا رجل مطامع كغيره من الرجال » ولم يرد أن يسمع بعد ذلك عنه خبرا . ثم ألح عليه أصدقاؤه بعد سنوات من ذلك كى يعيد هذا اللحن الى الحياة فغير فيه القطعة الثانية وكانت نشيد النصر ووضع بدلها نشيد الاسى ، كأنما ينعى به ما كان من انهيار آماله . وسمى اللحن لحن البطولة ، وأضاف الى عنوانه هذه العبارة « احياء لذكرى رجل عظيم » .

ومن يومئذ بدأت تواليفه ومصنفاته تفيض فيضا . فكتب عدة ألحان من خير ألحانه كما كتب اوبرا فدليو . ويومئذ أحس بسلطانه وآمن بقوته وفاض عنه الرضا بالحياة والسكينة لها . وتدل الصورة التى صورته فى ذلك العصر على مبلغ طمأنينته وعظيم أمله فى المستقبل . ففى سنة ١٧٩٦ كتب فى مذكراته الخاصة يقول : « اقداما ! وبرغم أسباب ضعف الجسد فالنصر لعبقريتى . ها أنذا بلغت الخامسة والعشرين ... فيجب فى هذا العام أن يظهر الرجل كاملا » وذلك على أنه كان ما يزال فى بداية حياته العامة . فأول حفلة عامة له كبيانى وقعت فى ٣٠ مارس سنة ١٧٩٥ . لكنه لم يبق لديه ريب فى قوته ولم يخف ذلك على أحد من أصحابه . بل كان يباهى به على صورة قد لا يرضاها من لم يكن له مثل مولده . كتب الى الدكتور وجلر — صديق صباه فى مسقط

رأسه — يخبره بنجاحه العظيم ، فكانت الفكرة الأولى عنده ظاهرة فى قوله : « أرى مثلا صديقا محتاجا ، فاذا لم يسمح لى جيبى بالاسراع الى معونته لم يكن على الا أن أجلس الى منضدة العمل فاذا بى فى وقت قصير قد سددت حاجته ، ألست ترى هذا غاية فى الجمال ... ويجب أن أقف فنى على معونة الفقراء » .

لكن ! ياقسوة القدر ! فما كاد هذا النابغة القوى يتربع على دست عظمته حتى بدأت مقدمات الهم واليأس تسلك اليه مساربها. بدأت هذه الآفة التى نغصت عليه عيشه بقية أيامه منذ سنة ١٧٩٦ . فلم تمض على هذه السكينة للقوة العظيمة شهور حتى بدأ وجه الحياة يتجهم وبدأت نذر الشقاء تتقدم ، وبدأت مقدمات الصمم بطنين الآذان ليل نهار طنينا مزعجا . وقد ظل سنوات يخفى مرضه حتى على أعز أصدقائه . وكيف تريد موسيقيا على أن يقول للناس انه أصم ! لكن ذلك لم يقعد به عن مداومة العمل . ولئن ظهرت بعض آثار الحزن الناشئة عن آلامه فى عدد من الألحان التى وضعها فى ذلك الحين فقد بقى أكثرها بساما طروبا . غير أنه لم يطق كتمان علته بعد أن احتملها خمس سنوات تباعا . فكتب فى سنة ١٨٠١ يشكو هذه العلة الى كثير من اصدقائه ومن بينهم صديقه أمندا اذ كتب يقول له :

« عزيزى الطيب الرفيق امندا ... كم كنت أرجوك بجانبى . فصديقك بتهوفن بائس غاية البؤس . ذلك أن سمعى ، وهو أكرم أجزاء نفسى على ، قد ضعف كثيرا . وكنت أشعر منذ كنا معا بأعراض المرض وكنت أخفيه ، لكنه اطرد سوءه من بعد ، فهل

أشفى ؟ أرجو ذلك بالطبع ، ولكن رجائى فيه قليل . فمثل هذا المرض أشد مما سواه استعصاء على البرء . وسأضطر لقضاء العيش فى بؤس فأتجنب كل ما أحب وكل ما هو عزيز على ، وذلك بين عالم شقوة وأنانية ... بالشقاء الاستسلام الذى يجب أن ألجأ اليه . لاريب أنى فرضت على نفسى السمو فوق كل هذه الآلام فهل ترى أستطيع تحقيق ما فرضت ؟ » .

هل من سبيل الى عزاء لبتهوفن عن هـذا الألم ؟ هل من وسيلة لتخفيف مضضه ومرارته ؟ الوسيلة الممكنة هى المرأة : والسبيل هو الحب . فلو أن بتهوفن وجد يومئذ من يتعلق بها قلبه ، ويؤمن به وبعظمته قلبها ، لكان له من ذلك مايهون عليه بعض همه . ولقد كان منذ نشأته طيب القلب عطوفا . لكن حبه كان قاسيا كالفضيلة التى امتلأ بها قلبه . وكان لذلك يرى عارا أن تتدلى الموسيقى للتعبير عن حب تشوبه الشهوة . ولذلك عاب على موزار قطعته « دون جوان » . على أن فضيلته القاسية هذه هى التى كانت سبب فشل علائقه الغرامية جميعا . ففى سنة ١٨٠١ تعلق جوليتا جوكشياردى وأهداها لحنه المعروف « ضوء القمر » ؛ وكتب الى صديقه وجلريقول له : « الآن أعيش أكثر سكينة وأختلط بالناس أكثر من ذى قبل . ولقد أبدع هذا التطور فى حياتى سحر فتاة عزيزة تحبنى وأحبها . وهذه هى اللحظات السعيدة الأولى التى تذوقت منذ عامين » . لكن هذا الحب زاده شعورا بمرضه كما أن جوليتا كانت لعوبا شديدة الانانية لا تعبأ بآلام بتهوفن . ولم تعف فى سنة ١٨٠٢ ، أى بعد سنة واحدة من حبها ، عن أن تتزوج من الكونت جالنبر . وكان حب بتهوفن اياهـا طاهرا

مخلصا ، فكانت خيانتها طعنة قاسية أصابت بها شغاف قلبه . على أنها لم تكتف بما فعلت بل جعلت تستغله لفائدة زوجها وجعل بتهوفن يذعن باسم الطيبة ويقول : « انه عدوى . ولذلك هو السبب فى اسدائى اياه كل خير استطيع اسداءه » .

وأدى به الصمم والمرض والانقطاع عن الناس وخيانة جوليتا الى اليأس من الحياة والى اليقين باقتراب ختامها . وزاد به اليأس حين ذهب الى « هيليجنستات » احدى ضاحيات فينا مستشفيا ، ومكث بها ستة أشهر لم يفد لسمعه خلالها شيئا . هنالك كتب وصيته التى نثبتها هنا ، وان كان قد عاش بعدها خمسا وعشرين سنة ، لانها تدل على عظيم ألم هذا الرجل العظيم كما تدل على عظيم نبوغه وعظيم ايمانه بفنه وعلى طهارة نفسه وطيبة قلبه وحبه الناس ، وتدل على أن هذه العواطف كانت فى نفسه هياجة ثائرة كهذه الموسيقى القوية الثائرة التى نسمعها له فى كثير من ألحانه ، وحتى فى ألحانه الرقيقة اللحمة والسدا . قال :

« يا أيها الذين ينظرون الى أو يحسبوننى حقودا أو برما بالناس أو متطيرا بالحياة لشد ما تظلموننى . انكم لا تعرفون السبب الخفى الذى يظهرنى بهذا المظهر . فقد كان عقلى وقلبى متجهين منذ طفولتى الى عاطفة رقيقة هى الطيبة ، وكنت دائما مستعدا لاقوم بعظائم الأعمال . لكن صوروا لأنفسكم بؤس حالى منذ ست سنين ، هذه الحال التى زادها الأطباء الاغرار سوءا والتى ما أزال أخدع فى أمرها عاما بعد عام آملا فى تحسنها ، ثم أضطر آخر الأمر لأحسبها حالا مزمنة يقتضى البرء منها ، ان كان فيه أمل ، سنين عدة ، وقد يكون هذا البرء محالا » .

« لقـد ولدت ذا مزاج حاد نشيط مستعد لذوق مسرات الاجتماع ثم اضطررت وما أزال فى أول عمرى الى عيش العزلة . وحاولت التغلب على ذلك فصدمتنى التجربة الاليمة القاسية غير مرة وجددت عندى الاحساس بمرضى . ثم انى ما كنت مستطيعا أن أقول للناس : ارفعوا الصوت وصيحوا فانى أصم . وكيف أستطيع أن أذيع ضعف حاسة كان يجب أن تكون عندى أدنى الى الكمال منها عند الآخرين . حاسة كانت فى الماضى بالغة من الكمال حدا لم يتح لقليل من أبناء فنى أن يبلغوه . كلا ! لا أستطيع ، فاعذرونى اذا ان رأيتمونى أعيش عيش العزلة بينما أريد أن أكون معكم وفى صحبتكم . وشقائى مضاعف له ألمى أن كان سببا للحكم على حكما قاسيا . ولقد منعت من أن أجد الراحـة والطمأنينة فى الاجتماع بالناس وفى المحادثات الظريفة وفى العطف المتبادل . فانا وحيد منقطع . لا أستطيع أن أجازف بنفسى فى الجماعة . وما لم تكرهنى على ذلك حاجة ماسة فيجب أن أعيش منفيا . فاذا اقتربت من جماعة ملك على الاضطراب مجموع حواسى من خشية أن أتعرض لوقوف الناس على بينة أمرى » .

« ومن ثم أمضيت هذه الستة الأشهر فى الريف ، وقد طلب الى طبيبى الفاضل أن يعنى بسمعى جهد الطاقة ، وبلغ من ذلك أكثر مما كنت أرجو . ولقد شعرت غير مرة بالميل للاجتماع بالناس وتركت نفسى تنال مناها . ولكن ! أى مذلة أن أرى رجلا على مقربة منى يسمع قيثارة من بعيد ولا أسمع أنا شيئا ، أو يسمع غناء الراعى ولا أسمع أنا شيئا . ولقد قربت هذه التجارب بينى وبين اليأس حتى كدت أقضى بيدى على حياتى . لكنه الفن — نعم

هو الفن وحده الذى استبقانى . اواه ! لقد بدا لى أن من المحال أن أترك هذا العالم قبل أن أتم كل ما أحسست انى مطالب بأدائه . وكذلك أطلت فى هذه الحياة البائسة ، والبائسة حقا ، لجسد سريع التهيج حتى لينقله أقل تغيير من خير الحالات الى أسوئها...صبرا — كذلك يقولون ! وهو الصبر الذى يجب أن أختاره الآن لى مرشدا . وقد اخترته . وانى لأرجو أن تظل عزيمتى على المقاومة ثابتة حتى ترضى الآلهة بالقضاء على بقية حياتى . وان يصلح الحال أو يسوء فانى لصابر . ألا ليس يسيرا أن يكره الانسان ، وما يزال فى الثامنة والعشرين من العمر ، على أن يكون فيلسوفا . وذلك أشد قسوة برجل الفن منه بأى رجل آخر » .

« اللهم انك لتستشف من سمائك حجب قلبى وتعرفه وتعلم أنه عامر بحب الناس والرغبة فى عمل الخير . وأنتم أيها الناس اذا قرأتم يوما هذا الذى أكتب فاذكروا كم كنتم ظالمين اياى . وان الشقى ليتعزى اذا رأى شقيا مثله قام برغم كل ما ألقت الطبيعة فى سبيله من عقبات بكل مافى جهده أن يقوم به ، كى يكون فى صف رجال الفن والصفوة المختارين » .

هيلجنستات فى ٦ أكتوبر سنة ١٨٠٢ **لدفج فان بتهوفن**

« هيلجنستات فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨٠٢ — والآن وداعا ، وداعا أسيفا — ان الأمل العزيز الذى جئت به الى هنا ، هذا الأمل فى أن أشفى ولو الى حد يجب أن أيأس منه كل اليأس — وكما تتناثر أوراق الخريف وتذوى — كذلك هذا الأمل جف فى نفسى وذوى — كما جئت الى هنا أعود وقد فقدت حتى الهمة التى كثيرا

ما استندت اليها أيام الصيف الجميلة — أواه أيها القدر ! — هب لى أن أرى مرة واحدة يوم مسرة صفو — فما أطول الزمن الذى حبس عنى فيه رنين المسرة الصادقة العميق — أواه متى يارب ؟ متى أستطيع أن أحس بها فى معبد الطبيعة والناس ... أبدا ! — كلا ! فذلك يكون أبلغ القسوة » .

لم تنشر هذه الوصية الا بعد وفاة بتهوفن ، لكنها تدل على مبلغ ما كانت تضطرب به نفسه حين كتبها من الآلام ، وعلى شديد ايمانه مع ذلك بالفن . هذا الايمان الذى جعله يستأخر الموت وان كان فى الموت راحة له من شقوته وأوصابه ، ويستأخره ليتم رسالته وان عانى فى سبيل اتمامها من الآلام مالا قبل لغيره باحتماله . كذلك ترى النوابغ حقا يستهينون فى سبيل ابراز مواهبهم بكل ما يحرص الناس عليه وبكل ما يجزعون منه ويفرون . فبينا كان بتهوفن يكتم هذه الصيحات الفاجعة مكتفيا بترجيعها فى صدره بينه وبين نفسه ، وباثباتها على القرطاس لتكون سبيلا الى سلامه بعد موته ، كان أخواه يستغلان ألحانه استغلالا ماديا ما كان بتهوفن ليعنى به لولا حبه لأخويه حبا يتفق مع عظمة الفضيلة التى تفيض بها نفسه أناشيد وألحانا قدسية سامية . وكثيرا ما خاطبه أصحابه فيما يجنى عليه أخواه من مساءات ، فكان جوابه وهو يبكى : « لكنهما أخواى » . وما لأخويه وبكائه ؟ انه لهما مزرعة تستغل ومورد رزق فياض . كتب أحد أخويه لناشر طلب بعض قطع أصلية من ألحان بتهوفن وأناشيده :

« ليس لدينا من ذلك الآن الا لحن وعزيف كبير للبيانة وثمن كل ثلاثمائة فلورين . أفتريد ثلاث سونات للبيانة ؟ نحن لا نستطيع

أن تقبل فيها أقل من تسعمائة فلورين ، على أن تسلم بعد خمسة أسابيع أو ستة ، لأن أخى أصبح لا يعنى الآن بأمثال هذه التفاهات ولدينا ... » وذكر بقية « البضائع » . وبتهوفن لا يفيد من ذلك المال كله الا ما يقيم حياته المليئة بالآلام . فأما هذه الحياة التى يحتفظ هو بها للفن فليست فى ملكه ، لأنها هبة القدر للوجود كله فى حاضره ومستقبله . هى قيثارة قديسة بعثتها يد العناية الى هذا العالم ، لتنشد الناس كل ما أبدعت العناية فى الخلق من نغمات . والى أن تتم هذه الرسالة الواجبة عليها يجب أن يبقى صاحبها معذبا شقيا ، ويجب أن يستريح لعذابه ولشقوته ، أو على الأقل يجب أن ينسيه ايمانه برسالته وانصرافه بكل وجوده لابلاغها هـذا الشقاء وهذا العذاب .

لكن المرأة هى البلسم والشفاء لعذابه أو لتسكينه . وقد عبثت جوليتا ببتهوفن عبثا قاسيا رغم ما كان من شديد تعلقه بها . فهل جفاه الحب بعد ما جفته هذه اللعوب الأثرة والمحبة لترف الحياة التافه أكثر من حبها لمجد العظمة الخالدة ؟ كلا ! فما تزال لبتهوفن ساعات سعادة فى الحياة ينعم بها رغم همه ، وملاك هذه الساعات المخلص الطاهر هى : تريزبرنسويك .

وكان بتهوفن قد عرف تريز منذ أيامه الأولى فى فينا أن كان يعلمها البيانة . لكنه لم يعلقها يومئذ ولم يسر الى قلبه خاطر الحب منها وان اتصل بأخيها الكونت فرنسوا بصداقة متينة . فلما كانت سنة ١٨٠٦ وكانت جوليتا قد تزوجت منذ ثلاث سنين زار بتهوفن صديقه القديم فى مارتنفاسار بالمجر . قالت تريز : « وبعد العشاء ذات مساء أحد جلس بتهوفن فى ضوء القمر الى البيانة ومر بيده

على ملاعبها . وكنت أعرف أنا وأخى ذلك منه . فكذلك كان يبدأ دائما . ولعب بعض تقاسيم على طبقات القرار . ثم انتقل من ذلك الى لعب أغنية سباستيان باخ : ان شئت أن تهبينى قلبك فليكن ذلك أول الأمر فى خفية حتى لا يستطيع أحد أن يحس مسارح أفكارنا المشتركة . ولعب هذا اللحن فى وقار وهيبة ، وكانت أمى وكان القسيس قد ناما ، ونظر أخى الى ما أمامه ذاهلا . أما أنا فأخذتنى نظرته وأخذنى غناؤه وأحسست بالحياة كاملة . وفى صباح الغد تقابلنا فى الحديقة فقال لى : أكتب الآن أوبرا أرى بطلتها فى دخيلة نفسى وأراها أمامى حيثما ذهبت وأينما أقمت . وما أحسبنى سموت يوما هذا السمو . فكل ما أمامى ضياء وطهر ونور . وفى شهر مايو أصبحت مخطوبته باقرار أخى فرنسوا وحده »

وظلت هـذه الخطبة حتى سنة ١٨١٠ حين انفصمت عروتها وان لم تنفصم عروة الحب بين الخطيبين اللذين عاشا به سعيدين حتى مات هو فى سنة ١٨٢٧ وماتت هى وما تزال على عهده فى سنة ١٨٦١.

وكان لهذا الحب فى نفس بتهوفن وفى حياته الموسيقية أثر أى أثر . فاللحن الرابع الذى كتب فى أول أعوام الخطبـة زهرة تتضوع بشذا السكينة والخلود الى صفو العيش مع الناس . وكذلك كانت الالحان التى كتبت فى هذه السنوات أقل ثورة وأكثر ترنما بنغمة الحب والحياة ، ومنها لحن الريف بأغاريد بلابله وأطياره وأغنيات شبانه وعذاراه . ولم يقف أثر الحب عند موسيقى بتهوفن بل تعدى الى حياته فجعله محبا للتأنق فى ملبسه ميالا للاختلاط بالناس والتحدث اليهم حاضر النكتة ظريفا . وبلغ من ذلك أن الناس نسوا صممه ولم يلاحظوا عليه الا ضعف بصره الحاد النظرة.

ومن ذلك العهد السعيد فى حياة بتهوفن يحفظ التاريخ خطابا يبث فيه لتريز ما يبعثه الحب المضطرم فى النفس الثائرة من عواطف مضطربة متلاطمة . قال فيه :

« ياملاكى وكلى ونفسى ، انظرى فى بدائع الطبيعة واطمئنى الى ما هو محتوم .. فالحب يلح عدلا فى أن يكون له كل شيء ، ذلك شأنه معى فى أمرك ، وهو شأنه معك فى أمرى . ان قلبى لمفعم بما أريد أن أبثك اياه . أينما كنت فانت معى . انى لأبكى حين اذكر أنك لن تقفى على أول اخبارى قبل يوم الاحد على الغالب . انى أحبك كما تحبيننى بل أقوى وأشد . الهى ! أية حياة هذه من غيرك ... فانت قريبة بعيدة . وأفكارى تتدافع نحوك يامحبوبتى الخالدة ، وهى سعيدة طورا ، حزينة تارة ، تسائل القدر هل هو سيرعانا ... انا لا استطيع العيش الا معك والا فلا عيش لى . ولن ينال غيرك قلبى ابدا . ابدا ! لم يجب يارب ان يبتعد متحابان كل عن صاحبه . على ان حياتى انما هى الآن حياة أحزان . ولقد جعلنى حبك فى نفس الوقت أسعد الناس واشقاهم . اطمئنى . اطمئنى . وأحبينى اليوم وبالأمس . ما أعظم تطلعى اليك وما أكثر دموعى من أجلك . أنت . أنت . أنت ياحياتى . ياكلى وداعا — وأقيمى على حبى ولا تنسى أبدا قلب حبيبك بتهوفن — لك الى الأبد — لى الى الأبد — لنا الى الأبد » .

وهذا الخطاب كوصيته وجد فى أوراقه بعد موته . ولعله كتبه فى آخر سنوات خطبة تريز له . ففيه من اليأس أكثر مما فيه من الرجاء . وهذه العبارة التى يسائل فيها القدر هل هو سيرعاهما تنبيء عن بداية انحلال الخطبة . على أن قلبه وقلبها ظلا عامرين

بهذا الحب الى آخر حياتهما • فمن كلمات بتهوفن فى سنة ١٨١٦ : « يدق قلبى كلما ذكرتها بنفس القوة التى دق بها حين رأيتها لأول مرة » • وفى هذه السنة عينها ، سنة ١٨١٦ ، وضع الأنغام الأربع البديعة • « الى العـزيزة المحبوبة النائية » وكتب فى مذكراته « يفيض قلبى لمشهد هذه الطبيعة البديعة وهى مع ذلك ليست هنا الى جانبى » وكانت تريز قد أهدت اليه صورتها وكتبت عليها هذا الاهداء « الى النابغة الفذ والفنان العظيم والرجل الطيب » • وقد دخل صديق على بتهوفن فى آخر سنة من سنى حياته فألفاه يقبل الصورة ويبكى ويناجى نفسه بصوت رفيع • « لقد كنت جميلة ، وكنت عظيمة ، وكنت كالملائكة الاطهار » • وبلغ من شدة تأثره لفراق تريز أن كتب يوما الى أحد أصدقائه « أيها المسكين بتهوفن — محدثا عن نفسه — ليس لك فى هذا العالم حظ من السعادة ، انما حظك منها فى رحاب المثل الأعلى ، فلك فيه أصدقاء » وكتب فى مذكراته «اسلاما ! واسلاما تاما لحظك• أنت لم تعد تستطيع أن تعيش لنفسك وانما تعيش لغيرك ولم يبق لك من نعيم فى غير فنك • اللهم هبنى قوة الانتصار على نفسى » هذا ولم تفتأ تريز تذكر بتهوفن الى آخر حياتها • فكيف انفصمت الخطبة ولم يجمع بينهما الزواج ؟ ذلك ما لم يقف عليه أحد • ولعله كان لفقر بتهوفن واختلاف مكانته مع مكانة تريز الاجتماعية• ولعله كان لطبع بتهوفن الحاد القاسى السريع الى التطير والذى لا تهون الحياة البيتية معه •

على انه كان قد وصل فى سنة ١٨١٠ الى أوج قوته وجلس على عرش مجده • وكان يحس هذه القوة ولا يتواضع بسببها • رأته بتينا برنتانو المغرمة بمعرفة عظماء الالمان فى سنة ١٨١٢ لأول مرة •

ولم تكن فى حاجة الى أكثر من مرآه وسماع حديثه حتى سحرت به وقالت :

« ليس فى العالم ملك ولا امبراطور له مثل هذا الشعور بقوته » .

ثم كتبت الى جيتى تقول : « لما رأيته لأول مرة انمحى الوجود كله من أمامى . ولقد أنسانى بتهوفن العالم وانسانى اياك أيضا يا جيتى . وما أظننى مخطئة أن أؤكد أن هذا الرجل يسبق المدنية الحديثة بمراحل » . وأراد جيتى أن يعرف بتهوفن فتقابلا فى حمامات بوهميا بتوبلتز فى ذلك العـام نفسه لكنهما لم يتفاهما . فخلق بتهوفن العنيف الحر لا يتفق مع خلق جيتى الرقيق الوادع . ذكر بتهوفن نزهة لهما كان فيها قاسيا كل القسوة مع دوق فيمار . قال فى خطاب بعث به الى بتينافون ارنم :

« يستطيع الملوك والأمراء أن يخلقوا الاساتذة والمستشارين وأن يغرقوهم فى الرتب والالقـاب ، لكنهم لا يستطيعون أن يخلقوا عظماء الرجال والاذهان التى تسمو على المجاميع . فاذا اجتمع رجلان مثلى أنا وجيتى وجب على هؤلاء السادة أن يحسوا بعظمتنا . ولقـد تقابلنا أمس حين عودتنا فى الطريق مع العائلة المالكة كلها وكنا قد رأيناهم من بعيد فانتزع جيتى نفسه من ذراعى ليقف على حافة الطريق . وعبثا قلت له كل ما أردت أن أقوله فلم يزحزحه ذلك خطوة واحدة عن موقفه . عند ذلك كبست قبعتى فى رأسى وزررت ردنجوتى وسرت وذراعى وراء ظهرى وسط الجموع الكثيفة . وأفسح الأمراء والحاشية لى طريقا ورفع لى الدوق رودلف قبعته . وكانت الامبراطورة أول من حيـانى . فالعظماء يعرفوننى . أما جيتى فمر أمامه الجمع وهو فى مكانه على

حافة الطريق منحن أشد الانحناء وقبعته فى يده • وقد لمته أشد اللوم بعد ذلك ولم أغتفر له قط تصرفه » •

ولم ينس جيتى له هذه المساءة وظل بينه وبينه ما كان بين فولتير وروسو فى آخر حياتهما • قال جيتى لزلتر : « بتهوفن شخصية لا سبيل مع الأسف الى تألفها • وقد لا يكون مخطئا اذ يرى العالم كريها • لكن خلته فى الحياة ليست هى الوسيلة التى تجعل العالم حلوا له ولغيره • على أن من الواجب أن نعذره وأن نشفق عليه • فهو أصم » • على أن كراهية جيتى لم تمنعه من الاعجاب ببتهوفن ومن تقديسه وان جاهد لاخفاء ذلك طاقته ! ذكر مندلسن أن جيتى سمع أحـد ألحان بتهوفن فحاول اخفاء اعجابه قائلا : « هذا لايمس القلب ولكنه يثير الدهشة » ثم لم تمض لحظات حتى غلبه اللحن وجاله ، فلم يتمالك أن قال : « هذا بديع وعظيم وفوق العقل • انى لأحس كأن البيت سينطبق على » وبعد أن كان لا يريد أن يسمع اسم بتهوفن جعل يسأل عن أمره •

وكان الدوق رودلف الذى أشار اليه بتهوفن أحد التلاميذ القليلين ممن رضى هو أن يكون أستاذا لهم • وبرغم اعفاء الدوق اياه من تكاليف البلاط ونظامه فقد كان يشكو مما بقى مضطرا له بداعى المجاملة من هذه التكاليف • ومن طريق الدوق رودلف عرف كثيرين من الأمراء وأعضاء البيت المالك الذين لم يكونوا يأبهون للعظماء ، أمثال هايدن وموزار ، وان بقى لديهم شىء من العطف على البائس بتهوفن • وزادوا عليه عطفا حـين بدأ نجم نابليون يأفل • فان بتهوفن لم ينس خيانة هـذا الجمهور الذى اتخذ الشعب سلما للامبراطورية • فلما انتصر الانكليز عليه فى

موقعة واتر لو وضع بتهوفن لحنا لانتصار ولنجتون مجده فيه كما مجد حروب الاستقلال التى أقامتها أمم أوربا ضــد فرنسا . وفى أوائل سنة ١٨١٤ وضع لحنا حربيا عن « بعث ألمانيا » . فلما انعقد مؤتمر فينــا على أثر هزائم نابليون كان بتهوفن فى ذروة عظمته وقوته : فشارك فى أعياد المؤتمر على أنه عنوان من عناوين مجد أوربا ، ورأس فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨١٤ الاركسترا التى لعبت أمام ملوك العصر نشيده عن « ساعة المجد » . فلما سقطت باريس فى سنة ١٨١٥ وضع نشيدا جعــل عنوانه « انتهى كل شيء » . وكذلك ظهرت قوته ومقدرته وظهر خلقه المثابر وبطشه وجبروته . هذا الجبروت الذى أباح له بعد موقعة يينا احدى مفاخر نابليون أن يقول : « من ســوء الحظ أنى لا أعرف الحــرب كما أعرف الموسيقى . اذاً لهزمته » .

وكان حظ بتهوفن مذبذبا : فما تكاد آونة طمأنينته تطول به زمنا حتى تعقبها آونة شقاء أطول منها وتعدل مرارتها أضعاف حلاوة تلك الآونة . فكما تخلى عنه الحب مرتين تخلت عنه فينا بعد هذا المجد والسلطان لمجرد انتهاء أعياد النصر . وبلغ أن فكر فى هجرتها رغم ما كان من اتفاق الدوق رودلف تلميذه والبرنس لوبكوفتز والبرنس كنسكى منذ سنة ١٨٠٩ اذ رتبوا له معاشا سنويا أربعة آلاف فلورين على أن يظل فى النمسا ليظل فخراً لها . ورغم ما كان من عدم وفائهم كل الوفاء فانه سر بهذا الاعتراف بمجده. فلما مرت أعياد النصر عكف من جديد على العمل . لكن الصمم كان يزداد حتى كان تاما فى سنة ١٨١٦ . وبذلك أصبح بتهوفن لا يسمع موسيقى ولا يسمع لحنا ولا نشيدا الا فى دخيلة قلبه .

وكم لاقى بسبب ذلك من عناء وهم . فقد أراد أن يدير أوبرا فدليو فى سنة ١٨٢٢ . وكان جليا منذ الفصل الأول انه عاجز عن هذه الادارة كل العجز . فقد كانت عصاه بطيئة ، فكانت الآلات الموسيقية بطيئة معها . لكن المغنين لم يكونوا يستطيعون اتباع هذه الموسيقى فكانوا يسرعون . وحصل اضطراب اضطر معه مدير الجوق العامل الى ايقاف التمثيل . ثم عاد بتهوفن الى الادارة وعاد التمثيل الى الاضطراب . قال صديقه الدكتور شندلر : « ولم يقو قلب أحد على أن يدفعه ليقول لبتهوفن : تنح أيها البائس ، فأنت عاجز عن الادارة : ووقف التمثيل للمرة الثانية فوقف بتهوفن ينظر فى كل ناحية يريد أن يعرف سبب الاضطراب . ولما لم يفهم شيئا نادانى اليه ومـد الى كراسته لأكتب له . فكتبت : أرجوك أن لا تستمر وسأفسر لك فى البيت سبب ذلك. فما هو الا أن قفز صائحا بى : فلنعجل بالخروج . وجرى الى بيته بكل ما مكنته قواه وهناك ارتمى على مقعد وسند بيديه وجهه وجلس حتى ساعة الطعام لا ينطق بكلمة . وساعة الطعام ظل صامتا وعلى وجهه أثر الألم الفاجع والانحلال الأليم . فلما كان بعد العشاء وأردت أن أتركه رجانى أن أصحبه الى طبيب كان معروفا بأنه من خير أطباء الآذان ... وفى كل ما تلا ذلك من صلاتى ببتهوفن لم أر يوما كهذا اليوم القاسى من أيام نوفمبر ... وقد بقى هـذا المشهد الأليم طعنة فى قلبه حتى فاجأته منيته » .

وفى سنة ١٨٢٤ كان حاضرا لتمثيل رواية على موسيقاه . ولما انتهت الموسيقى صفق الناس أشد التصفيق فلم يسمع شيئا ولم يعرف من أمر اجلال الناس لقطعته الا بعد ما أمسكت مغنية بيده

وأدارت وجهه الى ناحية الجمهور ليرى الأيدى المصفقة والقبعات التى تهتز فى الأيدى علامة الاعجاب والثناء .

وعاون بؤس الصمم وألم المرض ما وقع فيه من حاجة واعواز ، فهذا الذى كان يفرض أخوه أثمان ألحانه على الناشرين فرضا وصل فى أخريات أيامه ليكتب هذه العبارة لأحد تلاميذه : « أكتب هذه (السونات) فى ظروف شاقة . فمن المحزن أن يضطر الانسان للكتابة كى يحصل الخبز . وهذا هو حالى اليوم » . وكتب فى مذكراته الخاصة : « لقد صرت حتى أكاد أتكفف الناس » . وقال عنه أحد معاصريه وأصحابه انه كان لايستطيع الخروج من بيته فى بعض الأحيان بسبب ثقوب حذائه .

وفى هذه الأيام الأخيرة كان لا يأنس الى الناس ولا يعرف غير الطبيعة . فكان يرى هائما فى الغابات والأحراش ، وليس له هم الا تدوين الأنغام والألحان لا يحول بينه وبين ذلك حر ولا قر ولا مطر ولا ثلج . قالت تريز دى برنسويك : « كانت الطبيعة صديقه الوحيد » وكانت كل مذكراته تفيض هياما بهذا الوجود المطلق الحر تمام الحرية والذى تتجلى فيه عظمة الخالق وقوته . ولذلك كانت موسيقاه تفيض بمعانى الطبيعة فيضا ، حتى لكأنما بلغ من شدة هيامه بها أن صار قوة من قواها أو أنه « ملك روحها » على حد تعبير صديقه شندلر . كتب الموسيقى الكبير شومان يصف أثر أحد ألحان بتهوفن فى نفسه : « مهما يتكرر سماع الانسان لهذا اللحن فانه مؤثر فينا بنفس القوة التى أثر بها من قبل . فهو كالظواهر الطبيعية التى تملؤنا دائما خوفا ودهشة مهما تكرر حدوثها » .

ولعل بتهوفن كان محبا للطبيعة ، لأنه من روحها لا لأنه ملك هذا الروح . ولذلك كانت حياته ، ككل ما فى الطبيعة ، حيـاة نضال لا يعرف اليأس ، وعمل لا يعرف الكلال ، وتجدد لا يعرف الجمود . فما كان المرض ولا الصمم ولا خيبة الحب ولا الفقر الذى بلغ الاعواز ، بمانع له من أن يتم فى عالم النغم رسالته . أو تدرى ما هذه الرسالة التى كان يجاهد فى سبيلها خلال ما أثقل حياته من كوارث وأحزان ؟ كانت رسالته بعث المسرة على الأرض . فكأنما كان القيثارة العتيقة المحطم كثير من أجزائها والتى بالغ الصانع فى اتقانها ، فما تزال مبعث أحلى الانغام وأبدعها . ولقد كان بتهوفن يؤمن برسالته هذه كل الايمان . ومنذ ظهرت بوادر نبوغه فى الموسيقى فكر فى تبليغها للناس عن طريق الالحان ، ففكر فيها وما يزال فى يونية سنة ١٧٩٣ . وكانت نهاية أمله أن يتوج أحد أعماله الموسيقية الكبرى بلحن المسرة . وكان ذلك دأبه وهو فى أشد حالات العذاب والألم . لكنه كان يتردد دائما أن لم يكن شىء مما وضعه ليكفى مقنعا لصورة المسرة عنده . وظل ذلك شأنه حتى السنوات الأخيرة من حياته حين وضع اللحن التاسع . حينئذ وفـق لهذا النشـيد الذى يرجـوه . ولكن أى توفيق وآية عظمة ! .

قال أحد الكتاب يصف هذا النشيد البديع الذى يختم اللحن التاسع : «ساعة تبدأ آية المسرة تبدو ، يقف الاركسترا فجأة ويسود المسرح سكون تام يخلع على مطلع النشيد معنى قدسيا رهيبا . وذلك حق . فهذا النشيد اله وحده . ثم تهبط المسرة من السماء تحيط بها طمأنينة الخلد فتسكن الآلام بريحها الناعم تجرى الى

القلب جريان البرء فى فؤاد المريض ، ثم تسمو بعد ذلك فى صورة من الجد المهيب رويدا رويدا حتى تملك المسرة النفس وتغزوها وتعلن فيها حربا على الألم عوانا • ثم اذا الالحان تحرك فى النفس جنود السرور تحصها فوق هذه الصحف المرتعشة ، فكأنما ترى نبض بتهوفن القوى وشدة تنفسه وصيحاته الملهمة حين كان يجوب المزارع ويضع لحنه وكانما ملكته قوة الشياطين • وتعقب مسرة الحرب مسرة الروح مسرة بالايمان ، ثم تجيش بالنفس مسرة مقدسة هى مسرة الحب • ثم ترى انسانية مرتعشة تمد أذرعها للسماء صائحة صيحات قوية مندفعة الى المسرة تضمها الى قلبها » •

هذه القوة العجيبة التى تبدو فى أكثر ألحان بتهوفن والتى بدت فى لحن المسرة مضاعفة ، جعلت كثيرين يذهبون الى أن ملكه فى الموسيقى يقف عند الضخم منها والاليم • قال هبوليت تين ردا على هذا وتحليلا لموسيقى بتهوفن عامة : « نعم انه صاحب هذا الملك من أراض جرداء تهب فيها الاعاصير وتعصف فيها العواصف باصواتها الصاخبة القوية • وهـذه المملكة لم يتح لغـيره من الموسيقيين أن يدخلها • لكنه يعيش كذلك فى ملك آخر • فأفخر ما فى الريف الناضر واكثره رواء وبهجة ، وأعذب ما فى الوديان الظليلة وأكثره ابتساما ، وأشد ما فى ضياء الفجر أول مطلعه رقة وبكورة — هذا كله كذلك فى ملكه • لكنه لا ينال من ذلك كله ما يناله مطمئن النفس ، بل تهز المسرة كل وجوده كما يهزه الألم ! وشعوره باللذة بالغ غاية القوة • فهو ليس سعيدا ، ولكنه فى بهر • فمثله مثل رجل قضى ليلة نابغية وخرج منها مضطربا كليما متوقعا يوما شرا منها ، فاذا به يرى فجأة مشهد صباح سعيد • اذ ذاك

تضطرب يده ويتنفس الصعداء من أعماق صدره وتعود كل قواه الجسمية المنحلة فتسترد سلطانها ، ويصبح فى نهله من النعيم أشد اندفاعا مما كان حين استسلامه لليأس » .

ولما اطمأن له نشيد المسرة واطمأن هو لنجاحه فيه ، هانت عليه أحزانه وآلامه وهان عليه فقره وان ظل يعانى من بأسائه شر ما يعانيه انسان . ولعل لهذا الفقر صلة بتلك الثروة التى كان أخواه يقتضيانها من الناشرين ، فقد مات أحدهما تاركا من ورائه ولدا أحبه بيتهوفن بهذه القوة التى كان يندفع بها الى كل شيء . وسار الفتى سيرة سيئة لم يصلح منها حب عمه اياه ولا مداومته نصيحته . وكان هذا الفتى كثير الاستدانة ، فكان بتهوفن فى فرط حبه له يعمل جهد طاقته لسداد ديونه . وسافر بتهوفن فى خريف سنة ١٨٢٦ يبحث عن وسيلة يوطد بها مستقبل ابن أخيه هذا . فلما عاد فى أواخر نوفمبر سنة ١٨٢٦ أصابه برد أمرضه . ولم يكن أحد من أصدقائه حاضرا ليعنى به . فكلف الفتى أن يبحث له عن طبيب ، فنسى مدى يومين ثم جاء الطبيب وعالج بتهوفن علاجا سيئا . وقد استطاع بقوة بنيته أن يقاوم المرض ثلاثة شهور تباعا ، لكنه ضعف بعدها ضعفا أضاع الأمل فى شفائه . ولولا كرم بعض الانكليز من أصدقائه لقضى آخر أيامه فى بؤس وشقوة ليس كمثلهما بؤس ولا شقوة .

ثم جعل ينتظر فى صبر وسكينة « ختام المهزلة » حتى يوم ٢٦ مارس سنة ١٨٢٧ ، اذ عصفت عاصفة وهطلت ثلوج وأرعدت السماء وهاجت الطبيعة أصوات موسيقاها المهوبة المخيفة . وعلى موج هذه الأصوات طارت روح بتهوفن الى عالم الخلد . وكان عمر

بتهوفن يومئذ ستا وخمسين سنة وثلاثة أشهر وتسعة أيام . فلما آن لجثمانه أن ينقل الى مقره الأخير شيعه ثلاثون ألفا ، ولبست فيينا عليه الحداد . ودفن فى مقبرة وارنج ؛ وما يزال الى اليوم فيها وعليه هذه الكلمة الوحيدة الخالدة : بتهوفن .

وكذلك قضى من كان يرى الموسيقى الهاما أسمى من الحكمة ومن الفلسفة ؛ ويتمثل أفكاره فى عزف الآلات أكثر مما يتمثلها فى ألفاظ الناس . وكذلك قضى « باكوس ، الذى يستصفى للانسانية الرحيق العذب ويجلى عليها أقدس ما فى الروح من جلال » . قضى ونقل الى قبره حيث خط اسمه . لكن روحه الماثل فى ألحانه وأناشيده وعزفاته ما يزال باقيا ولن يزال . وهل الروح الخالد الا العمل يترك به صاحبه فى العالم أثرا خالدا ؟ . وهل أثر أخلد من موسيقى بتهوفن ! أم هل أثر أكثر منها سحرا وقداسة ؟ ! .

واليوم يحتفل العالم بمرور مائة عام اجلالا لألحانه القدسية السامية ، فيؤدى بعض دين الشكر الواجب على العالم لكل من زاد حياته جمالا وفضلا وقوة .

(كتبت فى ٢٦ مارس سنة ١٩٢٧ لمناسبة مرور مائة عام على وفاة بتهوفن) .

هبوليت أدولف تين

احتفلت فرنسا منذ أيام بمرور مائة عام على مولد الفيلسوف الكاتب الفرنسى الكبير هبوليت أدولف تين . فقد ولد بفوزييه فى الحادى والعشرين من ابريل سنة ١٨٢٨ أى منذ مائة سنة مضت. واذا لم يكن قد مضى على موته الا خمس وثلاثون سنة — اذ مات بباريس فى الخامس من مارس سنة ١٨٩٣ — فان الآثار التاريخية والأدبيـة والفلسفية التى خلفها تجعله حقيقا منـذ اليوم بأن يسجل فى ثبت الخالدين ، وتجعل حقا له وواجبا على وطنه فرنسا أن يشيد بذكره بين من يشيد بذكرهم من عظماء تلك البلاد . بل ان هذه الآثار لتجعله حقيقا منذ اليوم بأن يذكره العالم كله بين الرجال الذين كانوا قوة عاملة ذات أثر خالد فى العالم ، نقله ونقل تفكيره خطوة جديدة وفتح أمامه من أسباب البحث سبلا ان يكن غيره قد ترسمها من قبل فان أحدا سواه لم يرسمها ولم يخططها بالقوة والدقة والمهارة التى رسمها وخططها بها تين . ويكفى ليقدر القارىء مدى هذا الأثر العميق الذى تركه تين فى تفكير العالم أن يسمع من كثير ، حتى من الذين تناولوا تين وتفكيره بالنقد ، أنه كان أكبر أثرا فى نشر الفلسـفة الواقعية (البوزتفزم) من صاحبها أوجست كومت نفسه . وأنه الى جانب تثبيته قواعد هذه الفلسفة الوضعية فى ذهن أهل عصره والعصور التى خلفته قد فتح لها ميادين جديدة فى الفن وفى الأدب وفى الشعر وفى كل صور

نشاط العقل الانسانى والنفس الانسانية مما جعل للعلم الوضعى وللفلسفة الوضعية من متانة الاركان ما لا يزال حتى اليوم وطيدا قويا غاية القوة رغم موجات الروحية والتيوزوفية وغيرها مما سبق الحرب وشجعته الحرب ؛ ومما لا يستطيع أن يقاوم — حتى فى الميادين الفلسفية البحتة — تيار العلم الجارف الذى يدل الناس كل يوم على أن العلم اذا أخطأ فى تقرير نتائج معينة ، لأن الاستقراء أو الملاحظة أو التجارب لم تكن كاملة حين تقرير هذه النتائج ، فالعلم وحده هو القدير على اصلاح هذا الخطأ من طريق الاستقراء والملاحظة والتجارب وما يترتب على هذه من تبويب ينتهى الى استنباط القوانين العلمية الصحيحة التى يمكن أن تكون أساسا لارتكاز الفلسفة الواقعية الصحيحة .

رجل هـذا أثره فى التفكير الانسانى لا يمكن لوطنه الا أن يعترف له بالمجد وأن يذكره لكل مناسبة ، ولا يمكن للعالم أن ينسى له فضله على التفكير الانسانى وتوجيهه فلسفته فى فترة خاصة من حياة هذا التفكير .

على أن لتين الى جانب هذا الفضل العلمى العظيم فضلا آخر لا يقل عنه ، بل يريد بعضهم أن يذهب الى انه يفوقه . ذلك هو فضله ككاتب . فهذا الرجل الذى حاول ونجح فى محاولته هدم الفلسفة الكلامية التى كان الاستاذ فكتور كوزن عميدها فى عصره ، والذى حاول ونجح فى أن يقر الى جانب التفكير الواقعى positive المذهب الجبرى «déterminisme» وأن يطلق هذا المذهب على الانسان ويخضعه له بمقدار ما تخضع له الافلاك والموجودات كلها — هذا الرجل كان صاحب أسلوب فى الكتابة له من البهر

ما يسحرك كما تسحرك قطعة من الموسيقى أو لحن من الغناء ، حتى ليدعوك الى أن تعود الى قراءة الصفحة مرات ، وحتى ليترك فى ذاكرتك صحفا معينة تود الوقت بعد الوقت أن تعود الى قراءتها وترديدها بصـوت عال لتسمع الى ألحانها كما تسمع الى ألحان أوركسترا بتهوفن . وانى لأذكر الآن ، على ذكر اسم بتهوفن ، فصلا له فى كتابه (مذكرات عن باريس Notes Sur Paris) فصلا عنوانه (خلوة Une tête à tête) وصف فيه ايقاع ألحان بتهوفن وصفا ما أزال ولن أزال ألذ لقراءته ولترديده لذتى سماع ألحان هـذا الموسيقى فى سمفونية الريف التى أحبها ولا أشبع من سماعها . وليس هذا الفصل الذى ذكرت الا واحدا من كثير من الفصول ومن الكتب ومن المطولات التى كتبها تين والتى لا تفتأ ترد الى الخاطر وتتردد فى خلايا الذاكرة كلما ذكر الانسان النغم الحلو الساحر فى تعبير الكتاب فى أية لغة من اللغات .

ولعل أروع ما كتبه تين فى هذه الناحية الأدبية هو ما كتبه فى الوصف والسياحة . فكتابه الذى ذكرت لك عن باريس ، وكتابه « مذكرات عن انكلترا » وكتابه عن جبـال البرانس ، وكتابه عن رحلته فى ايطاليا ، هـذه كلها كتب بلغت فيهـا براعة الوصف مبلغا قل أن يجاريه فيه كاتب . ولقـد ذكرت لك هـذه القطعة عن موسـيقى بتهوفن . وأنت تعلم أن الكاتب اذ يكتب مثل هـذه القطعة انما يعتمد على ذاكرته . وذاكرة السمع هى التى كانت تحرك قلم تين حين وصف الموسيقى . مع ذلك فلم تكن ذاكرة السمع أقوى ذاكرات تين . بل لقد ذكر لنا هو نفسه فى كتابه De l'Intelligence أن أقوى ذاكراته ذاكرة الألوان ، وأن المنظر

الذى تقع عليه عينه تختزنه ذاكرته أكثر مما تختزن أية صورة تتصل باحدى الحواس الأخرى . فاذا كان ماذكرت لك عن سونات بيتهوفن هو بعض ما وعت ذاكرة السمع عند تين ، فلك أن تقدر بعد ذلك كيف كان وصفه لما وعته ذاكرة المرئيات وألوانها عنده ، وكيف استطاع بأسلوبه المتموج الزاهى الشديدة الحركة والحياة أن يثبت الألوان المختلفة التى اختزنتها ذاكرته فى سياحاته الكثيرة .

وليس فضل تين مقصورا على فلسفته وعلى أدبه ، فهو الى جانب ذلك مؤرخ من أكبر المؤرخين الفرنسيين . أقول المؤرخين الفرنسيين ولا أقول مؤرخى فرنسا . لأنه لم يقتصر على كتابة تاريخ بلاده . واذا كان كتابه « أصول فرنسا الحديثة » الواقع فى اثنى عشر جزءا هو من أمهات كتب التاريخ الفرنسى . وكان يتناول عصر ما قبل الثورة . كما يتناول عصر الثورة والعصور التى بعدها ، فانه قد تناول الى جانب هذا التاريخ بحوثا أخرى فى التاريخ القديم وفى التاريخ الحديث ، وتناولها كما تناول كل مباحثه على طريقته الخاصة التى سنعرض فيما بعد لها ، وتناولها بدقة فى البحث وبدقة فى العبارة وقوة فى الاسلوب جعلت له كل هذه المكانة التى كانت له فى عصره ، وكل هذا المجد الذى يشهد له به اليوم حتى ألد خصوم نظرياته . ويكفى أن يطلع الانسان على كتابه « تاريخ الآداب الانكليزية » ليقدر مدى ما لهذا الكاتب من سعة اطلاع ودقة بحث وعمق تفكير شهدت كلها له بأن قليلين من الانكليز أنفسهم هم الذين تناولوا بحث آداب لغتهم بهذه السعة والدقة والعمق . فأما مباحثه التاريخية الأخرى ،

ومباحثه التى مزج فيها التاريخ بالأدب ، فتزيدك بهرا ودهشة . اقرأ « تيت ليف » وعصره من عصور التـاريخ الرومانى . اقرأ « لافونتين وأقاصيصه » . اقرأ كتبه الثلاثة « رسائل فى النقد وفى التاريخ » ثم سائل نفسك كيف كان يصنع هذا الرجل ليحيط بكل هذه الأشياء خبرا ، وكيف كان يصنع ليمحصها كل هـذا التمحيص ، وكيف كان يصنع ليكتب كل هذه الكتب ، وكيف كان يصنع ليؤدى كل هذه الأعمال ، وليؤديها بهذا الجمال وبهذه الدقة وبهذه القوة .

ورسائله فى النقد والتاريخ قد جعلت منه نقادة معترفا بفضله وبسلطانه ، وقد أقامت له مذهبا فى النقد يتسق مع مذهبه فى الأدب وفى التاريخ وفى الفلسفة وفى كل ما تناول من مباحث . وعندى أن مذهبه فى النقد أقرب الى الدقة من كل مذهب سواه . فهو أشد المذاهب امعانا فى « الموضوعية » . هو اذا عرض لكتاب أو لمؤلف لم يعرض له من جهة تقديره الشخصى للكتاب أو لصاحبه، ولكن بعد تحليل كل ما أحاط بالمؤلف ومؤلفه من ظروف . وبعد مقارنة هذا المؤلف بكل ما يستطيع مقارنته به ممن عاصره ورمى الى مثل غرضه . ولست أدرى اذ أقول ان مذهبه أقرب الى الدقة من كل مذهب سواه . أأنا متأثر بتقدير ذاتى أم بذكريات خاصة . فلقد قرأت كتبه فى النقد والتاريخ منذ أكثر من اثنتى عشرة سنة وتركت فى نفسى من الأثر ما لم تتركه كتب أناتل فرانس « الحياة الأدبية » وما لم تتركه كتب أستاذ النقد الكبير سنت بيف نفسه . ولست أشك فى أن كثيرين قد يتذوقون نقد جول لمتر أو فاجيه أو بورجيه أو بول سوداى أكثر من تذوقهم نقد تين . وربما كان

حكمى أنا أيضا يتغير لو أن الظروف التى أحاطت بقراءتى تغيرت . لكنى ما أزال أشعر حتى اليوم حين أعرض لقراءة كتاب وحين أفكر فى نقده ، ولو لنفسى ومن غير أى فكرة فى الكتابة عنه ، على الطريقة التى أحبتها نفسى منذ قراءة كتب تين .

لتين الى جانب هذه الميادين الكثيرة ميدان آخر لم يقتصر على التأليف فيه . بل كان فيه ، كما كان فى بعض الميادين الأخرى ، مدرسا أيضا ، ذلك ميدان الفن الجميل . ولقد كان تين موسيقيا ، فلا عجب اذا هو تحدث أو كتب عن الفن الجميل . لكنك اذ تقرأ كتابه « فلسفة الفن » تراه يحلل الفن وصوره وتماثيله بالطريقة عينها التى يحلل بها المسائل النفسية والمسائل المادية ويخضع الصور والأنغام لقواعد الجبرية التى يخضع لها كل ما فى الوجود من سماوات وأفلاك وكائنات . أليست الفنون بعض ثمرات الانسان « والانسان ثمرة وسطه » على ما يقرر تين غير مرة وفى غير موضع ؟ والوسط الذى يعيش فيه الانسان ليس خاضعا له ولكنه خاضع لعوامل طبيعية وتاريخية لا قبل له بها ولا سلطان له عليها . اذن فالفن ثمرة محتومة لهذه العوامل ، ويمكنك أن تفسره وأن تفهمه بشرح هذه العوامل ، كما يمكنك ببسطها أن تفسر وأن تفهم أى عمل من أعمال الانسان .

ولكن ليس معنى أن « المرء ثمرة وسطه — أو بيئته ان شئت » أن الناس يتساوون فيما بينهم كما تساوى ثمر الشجرة الواحدة . بل ان ثمر الشجرة الواحدة لا يتساوى ، فمنه الكبير والصغير ومنه الصالح والفاسد . والناس كذلك منهم الصغير والكبير والصالح والفاسد . وأنت تستطيع أن تعرف الفرق بين ثمر الشجرة

بأن تشقه وأن تصل الى دخيلته . فكيف تستطيع أن تصل الى دخيلة الرجـل لترى مبلغ ما يختلف أولئك المتشابهون من ثمر الوسط الواحد تشابه ثمرات الشجرة الواحدة واختلافها ؟ الامر هين يدلك عليه تين فى مختلف من مواضع كتبه ، ويدلك عليه بنوع خاص فى كتابه عن « الذكاء » ويفرد له مقدمة الطبعة الاخيرة من تاريخ الأدب الانكليزى التى طبعت سنة ١٨٩١ .

فكل مظاهر الرجل وكل أعماله ، وكل مطامعه ومشاعره هى المسالك الى دخيلة نفسه . فاذا أنت أردت على هذه الطريقة نفسها أن تعرف تين حق المعرفة فيجب أن تعرف كل مظاهره وكل أعماله . وكم كنا نود لو استطعنا القيام بهذا البحث فى هذه العجالة القصيرة عن حياة ذلك الرجل العظيم . لكنا مع ذلك نكتفى بالقليل الذى أتاحت لنا الظروف أن نعرف عنه عن الكثير الذى لا سبيل الى معرفته غير الانقطاع لدراسة تين وحياته وكل كتبه دراسة ذاتية لا تتسنى الا لأستاذ فى الفلسفة أو فى الأدب الفرنسى . ولعلنا فى هذا الاكتفاء بالقليل الذى نعرف لا نغمط تين حقه . ثم لعلنا لا نعدو بعض مباحثه التاريخية فى النقد . فأمامنا بعض الشىء عن حياته ، وأمامنا مؤلفاته الكثيرة ، وهى صورة نفسه وخلاصة حياته . وأمامنا الى جانب هـذا أسلوبه ، والاسلوب — على ما قال تين — هو الانسان .

* * *

ولد هبوليت تين اذا بفوزييه بمقاطعـة الأردن فى فرنسـا فى ٢١ ابريل سنة ١٨٢٨ من عائلة رقيقة الحال . وكان لابيه جان باتيست تين اتصال بالقضاء . لذلك استطاع تين أن يتلقى عليه

تعاليمه الى جانب دراساته بمدرسة مسيو بيرسن الصغيرة حتى بلغ الحادية عشرة من عمره . واذ ذاك مرض أبوه فأرسل به فى سنة ١٨٣٩ الى مدرسة دينية فى (رتل) أقام بها ثمانية عشر شهرا توفى أبوه خلالها تاركا ثروة بسيطة لأرملته وابنه وابنتيه . وبعد وفاة أبيه سافر الى باريس فالتحق بمعهد ماتيه . وكان تلاميذ هذا المعهد يدرسون بمدرسة بوربون (Collège Borbon)، وفيها ظهرت بوادر كفاياته النادرة كما اتصل فيها بأصدقاء كان لهم أثر أبلغ الأثر فى مستقبل أيامه من أمثال بروفوبارادول ، وبلانا ، وكرنوليس ، وفث وغيرهم .

ولقد امتاز تين لأول دخوله المدرسة بمقدرة على العمل مدهشة وباكباب عليه لا يقل اثارة للدهشة . فلقد كان يكتفى لرياضة نفسه بعشرين دقيقة يقضيها لعبا بعد العشاء وبساعة يلعب أثناءها الموسيقى بعد الغداء . أما فيما سوى هذا وفيما سوى أوقات الطعام والنوم فكان لا يصرفه عن العمل صارف . وكان لذلك كثير التحصيل كثير التعليق على ما يحصل كثير التفكير فيه مما جعل له على أصدقائه جميعا نفوذا معترفا به منهم اعترافهم بفضله وبمقدرة فى الكتابة نظما ونثرا فى اللغتين الفرنسية واللاتينية .

وبعد انتهاء دراساته الثانوية انتقل الى مدرسة المعلمين (L'Ecole Normale). وفيها ازداد اكبابه على الدرس ، فقرأ أفلاطون وارسطو وآباء الكنيسة كما استمر يدرس الانكليزية التى أتقنها ليدرس آداب اللغة الانكليزية . واذا كان تين قد ظهر تفوقه أثناء دراساته الثانوية وأثناء مقامه بمدرسة المعلمين حتى لقد كانت الجوائز الأولى كلها من نصيبه ، فان الروح العلمية المنطقية التى

امتاز بها بعد ذلك والتى وضع على قواعدها مذهبه فى البحث قد تبينت أثناء وجوده فى مدرسة المعلمين بنوع خاص • فقد لاحظ عليه أساتذته جميعا مبالغته فى دقة الحرص على المنطق والسلوك به مسلكا رياضيا والوصول به دائما الى قاعدة على نحو ما يصل الرياضيون فى مسائل الحساب والهندسة والجبر • أثبت استاذه فاشرو فى مذكراته عن تين وما يزال تين طالبا بمدرسة المعلمين ما يأتى : « أكثر تلميذ عرفت فى المدرسة جدا ورقى نفس• علم مدهش بالنسبة لسنه • تحمس وشره للعرفان لم أر له مثالا • ذهن يلفت النظر بسرعة التصور والدقة والمرونة وقوة التفكير • لكنه يدرك ويتصور ويحكم ويقرر بغاية السرعة • مولع بالقواعد والتعاريف حتى لكثيرا ما يضحى بالحقيقة من أجلها ، ومع ذلك لا يظن أنه يضحى بالحقيقة لأنه كان مخلصا لها أشد اخلاص • وسيكون تين أستاذا ممتازا • لكنه سيكون أكثر من ذلك وفوق ذلك عالما من الطراز الأول اذا أتاحت له صحته الاشتغال بالعلم زمنا طويلا • ومع ماله من دماثة فى الخلق عظيمة ومن طباع غاية فى الطيبة ، فلذهنه قوة لا تلين حتى لن يستطيع أن يكون لأحد على تفكيره أى تأثير • وهو على كل حال ليس من أهل هذا العالم• فسيكون شعاره شعار سبنوزا « يعيش ليفكر » • أما خلقه وأما طبيعته فيمتازان بمناعة لا يستهويه معهما اغراء •

على أن هذا التفوق الذى كان للطالب تين لم يكن ليعترف الناس به من غير أن يجنى على صاحبه جنايته • ومتى كان لتفوق رجل من الناس تفوقا عقليا أن لا يجنى عليه فى نظر ذوى السلطان والذين يمسكون بيدهم مصير الجماعات ؟! صحيح أن هذا التفوق

يقدر عند المخلصين للحقيقة والذين لا مصلحة لهم فى سؤدد آراء ومبادىء معينة ، وهذا التقدير هو الذى يكفل انتصـــار الحق ولو بعد حين . لكن تين ، الذى كان يقضى كل وقته قراءة وبحثا ، والذى أوتى هبة النقد والتمحيص منذ شبابه ، والذى لا يستطيع أن يسلم بغير ما يعتقده الحق ، تين هذا ، وهو طالب ، لم يكن ليقر كثيرا من المبــادىء الفلسفية التى كانت تدرس يومئذ وغايتها اما تأييد ناحية دينية تجعل التفكير خاضعا للمبادىء المسيحية التى تريد الكنيسة أن تسود ، أو تأييد ناحية علمية خاصة هى ناحية المنطق المطلق ، أو المنطق المجرد ، مما كان يدرسه كوزن وغير كوزن من فلاسفة ذلك العصر . وقد خرج تين ، وما زال طالبا ، على هاتين الطريقتين من طرائق التفكير ، ورأى فيها وسائل غير صالحة للكشف عما فى العالم من حقيقة . ووضع تين ، وما يزال طالبا ، قواعد تفكيره هو ، هذه القواعد التى سار عليها فى مستقبل أيامه ، مجاهدا لاكمالها ما استطاع ، ولكن من غير أن يرى فى كل دراساته وبحوثه ما يطعن عليها أو ينقضها . واذا فهو ثائر على التعاليم المقررة . واذا فيجب ألا ينجح فى اجازة الفلسفة التى تقدم لها مع زميليه آوبيه وسوكو فى سنة ١٨٥١ . وليكن عدم نجاحه هذا وهو المشهود له بالفضل والتفوق عزاء لغيره من الذين تقدموا للاجازة نفسها فرسبوا وهم دونه تفوقا وفضلا .

ولم يغير عدم نجاحه فى اجازة الفلسفة من رأيه ولا من عزمه . واستمر فى عمله وبحوثه وان اشتغل بالتدريس فى المدارس المختلفة أن عينه وزير المعارف مدرسا بمدرسة (تفير) فى مفتتح عام ١٨٥١ الدراسى . لكنه لم يبق فى هذه المدرسة الا شهورا نقل بعدها

الى مدرسة دونها فى الدرجة • ذلك أن اضطرابا سياسيا وقع فى فرنسا واتهم المعلمون بأنهم سببه وطلب اليهم أن يعتذروا وأن يشكروا رئيس الجمهورية على التعديلات التى أدخلها على نظام الحكم ، فكان تين هو الوحيد الذى رفض الاعتذار والشكر • وعلى ذلك أنذر ونقل الى بواتييه ومنها نقل مساعد مدرس الى بزانسون فى سبتمبر سنة ١٨٥٢ •

ومع تنقلاته الكثيرة وعدم رضى السلطات عنه فان نشاط تين لم يفتر ودراساته وتحصيله لم يهنا وايمانه بمذهبه فى البحث لم يضطرب • فقد وضع رسالة عن المشاعر (Les Sensations) ورسالة لاتينية تقدم بها الى السوربون لنيل اجازة الفلسفة • ولما كانت هــذه الأجازة قد ألغيت فقد أراد أن ينال بهما اجازة الآداب (Agrégation-ès-lettres) لكن طريقته فى التفكير جنت عليه هذه المرة كذلك فلم تقبل رسالته • فوضع رسالة أخرى عن لافونتين هى التى نال بها دكتوراه الآداب فى ٣٠ مايو سنة ١٨٥٣ •

ومن بعد حصوله على الدكتوراه عرضت الاكاديمية الفرنسية موضوعا لجائزة تمنح فى سنة ١٨٥٥ رسالة تكتب عن تيت ليف الكاتب والمؤرخ الرومانى الكبير ، فتقدم لها تين وكتب فيها رسالة كانت هى الأولى بين كل الرسائل التى قدمت •

بعد هذه المجهودات المضنية ست سنوات تباعا شعرتين بالحاجة حاجة ماسة مطلقة الى الراحة ونصح له بأن يذهب الى جبــال البرانس ، وطلب اليه الناشر هاشت أن يكتب له دليلا عنها فوضع كتابه « سياحة فى البرانس » وصف فيه هذه الطبيعة الجيلة العجيبة وعادات أهلها وقصصهم وصفا دقيقا ، ناقدا ما رأى موضعا لنقده

مازجا ذلك كله بفلسفته ، متبعا حتى فى هذا الكتاب طريقته الجديدة التى جنت عليه من قبل .

ماهى هذه الطريقة الجديدة ؟ وكيف يمكن أن تجنى على كاتب فى عصر كالعصر الذى عاش فيه تين والذى تقررت فيه حرية الرأى والنشر على انها مكفولة مقدسة ؟ .

أما طريقة تين فى رسائله التى تقدم بها للامتحانات وفى كتاب تيت ليف وفى غير ذلك من الكتب التى ظهرت والتى ستظهر حتى آخر أيام حياته ، فتقوم على فكرة أساسية هى تطبيق الطريقة الواقعية — أو الوضعية — التى قررها أوجست كمت على الأحياء بنفس الدقة التى تطبق بها على غير الاحياء . وتطبيقها على الانسان وعلى النفس والروح بنفس الدقة التى تطبق بها على الاحيـاء الأخرى غير الانسان وعلى غير الأحياء . فكما أن طريقة البحث العلمى فى شأن غير الاحيـاء هى الملاحظة والتجربة واستنباط القوانين على قواعد هذه الملاحظة والتجربة ، فيجب اتباع هذه الطريقة بعينها فى شأن الحيوان والانسان على السواء . وأنت لكى تدرس غير الأحياء فأنت تحلل الشىء ، وأنت ترجعه الى نظائره وأشباهه ، وأنت تلاحظ تأثره بالبيئة المحيطة به وتأثيره فيها ثم تستنبط القوانين الخاصة به بعد اذ تنظم ملاحظاتك وتجاريبك وتبوبها وترتبها . ثم أنت تعمد لتقف على حياة الحيوان الى تأثره عن طريق حواسه بالأشياء المحيطة به ، كما أنك اذا أردت أن تعرف تاريخه عمدت الى ما قد يكون باقيا فى الأحجار من آثاره ، هذا فضلا عن التجائك فى تجاريبك عليه الى كل الوسائل المختلفة التى يلجأ اليها الكيمائيون والأطباء وغيرهم فى معاملهم . ذلك كذلك

يجب أن يكون شأنك مع الانسان • يجب ألا ترى فيه عالما مستقلا وسط هذا العالم الذى تعيش فيه • انما هو جزء من هذا العالم خاضع لقوانينه وأحكامه متأثر به مؤثر فيه تجرى عليه السنن التى تجرى على غيره من الخلائق • فاذا أردت أن تبحث فى أى شأن من الشؤون يتعلق به وجب عليك أن تلجأ الى الطرائق العلمية التى تلجأ اليها فى الظروف الأخرى وأن ترى فى أعماله ومشاعره واحساسه وتصوراته وسائل الوصول الى دخيلة نفسه • هذه دون سواها هى الطريقة الأكيدة التى تصل بك الى شىء يقرب من الحقيقة • وهذه يجب أن تكون أساس البسيكولوجيا وأساس التاريخ وأساس الاجتماع وأساس العلوم المتصلة بالانسان جميعا • فأما الطريقة التى تقيم هذه العلوم على قواعد المنطق المجردة التى تجعل من استجمام الشخص فى طوايا نفسه ووسيلة رسمه للعالم ما يستلهمه من صورته ، فليست من الطرائق العلمية فى شىء ولا يمكن الاعتماد عليها اذا نحن أردنا أن نقيم علما انسانيا أو فلسفة انسانية على قواعد علمية صحيحة •

هذه هى الطريقة الجديدة التى امتاز بها تين والتى جنت عليه فى كثير • وهى قد أصبحت اليوم قديمة وقد أصبح يرد عليها نقد كثير أساسه ما فيها من تطرف وغلو • لكنها كانت جديدة يوم نادى بها تين • وكانت عمادا قويا للمذهب المادى • فهى لا تقر للروح ولا للنفس ولا لأمثال هذه الألفاظ بمدلولات مستقلة قائمة بذاتها بعيدة عن مادة الجسم ، بل هى ترى كل ما فى الجسم بعض مادته كما أن كل ما فى أى موجود من الموجودات بعض مادة هذا الموجود • واذا كانت هذه المادة ذات ارادة وذات خلق وذات

تصوز وتفكير . فان هذه المظاهر ليست الا صور القوة الكمينة فى المادة ، أو ان شئت التعبير الدقيق ، فهى بعض صور المادة متحولة قوة لأن المادة والقوة شيء واحد بدليل تحول كل منهما الى الآخر حين تفاعله مع غيره من القوى أو المواد . وما دام ذلك هو الشأن وكانت القوة والمـادة تخضعان لقوانين ثابتة لن تجد لها تبديلا ، فمن الخلط الذى لا يبرره مبرر أن تختلف طريقة البحث فى الانسان عنها فى غير الانسان ، ومن الخطأ المبنى على العقائد الرائجة انتهاج سبيل فى بحث شؤون النفس غير السبيل العلمية المقررة فى سائر الشؤون .

كانت هذه الطريقة جديدة يوم نادى بها تين . لكنه نادى بها منذ كتبه الأولى على صورة واضحة وبأسلوب قوى لفتا الأنظار له ، وبخاصة أنظار مفكرى ذلك العصر ومن كانت بيدهم مقاليد الجماعة فى التفكير وفى الحكم . واذا التفتت أنظار هؤلاء فلا تفكر فى حرية مكفولة ولا فى حرية مقدسة . انهم ، ان كانوا مخلصين حقا ، يعتبرون أنفسهم حماة الجمعية ونظامها ، ويرون فى محاربة الأفكار التى تخالف أفكارهم محافظة على هذا النظام . وكثيرون منهم يشعرون ، وان لم يقولوا ، بأن المحافظة على نظام الجماعة جـديرة بأن تهدر من أجلها كل حرية ، لأن الحرية لاتوجـد الا حيث يوجد النظام .

ونشر كتابه « سياحة فى البرانس » وصف فيه هذه الجبال الفاصلة بين فرنسا وأسبانيا وأخلاق أهلها وطبق فى وصفه وفى تحليله نظرياته التى أشرنا اليها . على أنه لم يكتف من سياحته بالرياضة وبوضع هـذا الكتاب ، بل هو ظل يستمع لقـارىء

استصحبه فى جولاته وظل يفكر فيما يسمع ويعلق عليه • أليس شعاره أنه يعيش ليفكر ! فاذا هو كان فى رياضة قضت بها صحته ، أو هو كان فى مكتبه ، فليس أمامه ما يمنعه عن التفكير كما أنه ليس أمامه ما يمنعه عن التنفس • ولقد كان فكره بحاجة الى العمل حاجة رئتيه الى الهواء ، حتى لقد يخيل الى من يقرأ تاريخ حياته أن هذه الحياة تتعرض للخطر اذا هو انقطع عن التفكير العلمى الجدى يوما من الأيام •

ولقد أفاد من سياحاته فى البرانس لصحته ، وأفاد من قراءته وتفكيره ، وأفاد شيئا جديدا لم يكن له من قبل به عهد ؛ ذلك هو اتصاله بالحياة الخارجية ولو اتصالا محدودا • فلقد عاش منذ أيام تلمذته وليس يعرف غير كتبه ومكتبته وغير البيانو يوقع عليه الألحان التى يحبها والتى يجد فيها سلوة عن كل تعبه • وكان من أثر ذلك عليه أن جعله — على ما قال فاشرو — يدرك ويتصور ويحكم ويقرر بغاية السرعة ، ويولع بالقواعد والتعاريف حتى لكثيرا ما يضحى بالحقيقة من أجلها • أليس مافى الكتب منطق مجرد ! أوليست كتب ذلك العصر ، حتى كتب الفلاسفة الواقعيين ، قليلة التحليل للوقائع الصغيرة ! فلتين عذره اذا هو سارع الى تقرير النتائج ووضع التعاريف والقواعد ما دام يسير على الطريقة التى رسمها لنفسه على أنها سبيل الحقيقة ، ومادام لم يتصل بالعالم الخارجى اتصالا يجعله أكثر ميلا لتحليل الحوادث الصغرى واستقرائها وترتيب النتائج عليها • فلما أتاحت له زيارة البرانس الاتصال بالحياة أتاحت له مع هذا الاتصال شيئا من التؤدة فى منطقه الرياضى السريع وجعلته أكثر عناية باستيعاب أكثرما يستطيع

استيعابه من الوقائع الصالحة لاقامة ما يريد أن يقيمه عليها من نظريات وقواعد .

وعاد من البرانس فعاش مع أمه فى جزيرة (سان لوى) ثم اختلط من جديد بأصدقائه بلانا وبريفو پرادول وأبو وتعرف الى رينان ، ومن طريقه عرف سانت بيف وجدد علاقته مع مسيو هافيه الذى كان أستاذا له بمدرسة المعلمين مدى ثلاثة أشهر . وكما عاد الى أصدقائه عاد الى جده وانتاجه حتى لتعتبر السنتان ١٨٥٥و١٨٥٦ من أكثر سني حياته نشاطا وأغناها انتاجا . فلقد نشر عشرات المقالات فى مجلة L'Instruction Puplique كما نشر مقالا فى مجلة « العالمين » . وفى سنة ١٨٥٧ بدأ يكاتب جريدة « الديبا » واستمر بعد ذلك على مكاتبتها طويلا .

والذى يقرأ كتبه الثلاثة : « رسائل فى النقد وفى التاريخ » وكتابه « الفلاسفة الانشائيون فى القرن التاسع عشر » يرى اتجاه مجهوده العقلى فى تلك السنوات الخصبة من حيـاته ، ويرى مبلغ هـذا المجهود الضخم الذى تناول بحث اليونانيين القدماء وكتاب فرنسا وفلاسفتها وكتاب انكلترا ومفكريها . ذلك فى دقة واحاطة قل نظيرهما . وما ذا تريد أن تكون الدقة والاحاطة أكثر من أن يعرض تين أمام نظرك فكرة كل كاتب وفلسفته وأسلوبه وأن يحلل ذلك وأن يرده للبيئة وللجنس اللذين نشأ الكتاب فيهما وأن يدلك على ما يراه النقاد غيره وما يراه هو فى الكاتب وفكرته من قوة وضعف وكمال ونقص ودقة فى بلوغ الغاية التى قصد اليها الكاتب أو اضطراب فى نهج السبيل الى تلك الغاية . وهذه هى طريقته التى سار عليها منذ تلك الأيام فى النقد . وهى الطريقة

العلمية الصريحة التى لا تعرف المواربة ولا المداجاة ، ولا تعرف مذاهب الشك والتردد ؛ والتى تقفك من كل كاتب ومن كل موضوع على خلاصة الموضوع وعلى صورة واضحة من الكاتب على نحو ما رآه تين .

وقد طبع تين مباحثه عن الفلاسفة الانشائيين ونشرها فى أوائل سنة ١٨٥٧ ، أى فى التاسعة والعشرين من عمره . ومع أنه الى ما قبل ذلك التاريخ قد لقى من رجال الجامعة ومن وزارة المعارف عنتا ، فان رسائله المختلفة التى نشرت لم تثر من النقد الا ماكتبه أصدقاؤه عن سياحة البرانس وما كتبه الاستاذ الكبير جيزو عن تيت ليف . لكنه ما لبث أن نشر « الفلاسفة الانشائيين فى القرن التاسع عشر » حتى تكلم عنه كثير من كبار نقاد عصره أمثال سانت بيف وشرر وبلانش وغيرهم مما زاد فى ذيوع رفعته ككاتب وكمفكر وكفيلسوف مجدد فى الطريقة وفى الاسلوب .

ولم يكن عجبا أن ينال هذا الكتاب من كتب تين تلك المكانة ؛ فهو قد قصد به الى هدم الفلسفة الكلامية التى كان يدرسها ويقررها فى ذلك الوقت لارجبيه ومين دبيران والمسيو فكتور كوزان . وكان فكتور كوزان صاحب مقام كبير فى ذلك الظرف ، وكان القائم بتدريس الفلسفة فى كلية فرنسا ، وكان درسه مقصد المئات من المستمعين . لذلك كانت حملة تين عليه أشـد من حملته على صاحبيه . فكان يقول عنه أنه بحاثة غير فيلسوف . وكان يرى فى هذه الفلسفة الكلامية أو الانشائية شذوذا معيبا على قواعد العلم التى تقررت منذ أوائل ذلك القرن ، وعودة الى قواعد قديمة عقيمة تخلط بين طريقة ديكارت التى تبدأ بالشك ، والنظريات

الالمانية التجريدية الصرفة . وهو قد سلك فى هدمه لتلك النظريات مسلكا جمع بين المنطق الدقيق الذى امتاز به وبين التهكم بتلك الطرائق العتيقة البالية من طرق البحث عن الحقيقة تهكما ظهرت فيه مقدرة تين ككاتب الى جانب تفوقه كمفكر وكفيلسوف . ثم هو قد أيد ما قررته مباحث عصره الحديثة مما جاء به أوجست كومت وداروين وغيرهما من الذين وضعوا قواعد العلم الواقعى وأسس نظريات التطور . ثم هو قد أضاف الى ذلك نظريته الخاصة بتطبيق هذه القواعد تطبيقا لا هوادة فيه على الانسان كتطبيقه على غير الانسان وعلى الجماد . واذا كانت هذه النظرية قد لقيت فى باديء الأمر شيئا من معارضة الهيئات الجامعية ، فان المباحث العالية التى نشرها تين مشبعة بها والمقام الذى كان يرتفع اليه يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، جعل نجاح كتابه عن الفلاسفة الانشائيين نجاحا حاسما ودعا الكثيرين الى أن يعيدوا النظر فيما يقرره هؤلاء الفلاسفة من قواعد ، وجعل ما وجهه كارو وغيره الى تين والى رينان من نقد أساسه رميهم بالالحاد ، لا يلقى من المفكرين والعقلاء وذوى الرأى أى التفات له بأكثر من الاشفاق على كاتبيه والرثاء لحالهم .

وكما جمع مقالاته عن الفلاسفة فى كتابه هذا فقد جمع رسائله فى النقد وأظهر الجزء الأول من (رسائل فى النقد وفى التاريخ) سنة ١٨٥٨ ، على أن كتابة هذه الرسائل وجمعها ونشرها لم يشغله عن متابعة بحوث تاريخية فى الأدب الانكليزى شغف بها منذ أيامه الأولى وشغل بها منذ مطالعاته بعد ترك مدرسة المعلمين . ولقد نشر الأجزاء الأولى حتى بيرون فى سنة ١٨٦١ واستمر يكمل هذا

الكتاب الذى يعتبر ككتابه عن (الذكاء) وكتاب (أصول فرنسا الحديثة) أما من أمهات كتب تين وأثرا باقيا من آثار تفكيره •
وقد أتم هذا الكتاب ونشره كاملا فى سنة ١٨٦٣ ووضع له المقدمة التى أشرنا من قبل اليها والتى حلل فيها صلة الانسان بالبيئة وبالجنس وبالعصر الذى يولد فيه تحليلا انتهى منه الى أن المرء ثمرة هذه العوامل الثلاثة ، وانك اذا استطعت أن تعرف كل الدقائق المحيطة بهـذه العوامل الثلاثة استطعت أن تضع للانسانية من القوانين الثابتة ما لا سبيل الى تبديله الا أن يكون لتبديل سنن الكون العامة سبيل •

والحقيقة أن هذا الكتاب الذى وضعه تين عن آداب اللغـة الانكليزية قد أضاف الى مجده فيلسوفا ومؤرخا مجده كاتبا • ولئن كانت رسالته عن سياحة فى جبال البرانس قد دلت من ذلك على شىء كثير ، فان وصفه للعصور المختلفة التى مرت بها انكلترا وأثرت فى أدبها قد دل على خصب فى الخيال لا يقل عما كان لتين من دقة فى المنطق • وأنت تقرأ صحف هذا الكتاب المتتالية فتنتقل من تحليل نفسانى دقيق لكاتب من الكتاب أو شاعر من الشعراء أو عصر من العصور ، الى وصف جمع بين الدقة المنطقية والخيال الشعرى لحياة ذلك الكاتب أو الشاعر ولحيـاة جماعة أهل ذلك العصر • وهذا التداول بين دقة المنطق وخصب الخيال هو الذى طوع لكثيرين من نقاد تين أن يقولوا عنه انه منطيق شاعر أو خيالى فيلسوف • وربما وجدت لهذا النقد فى بعض كتب تين مسوغا • لكنك تقع دائما على ما يدلك على أن تين كان يشعر تمام الشعور بهذا التداول وكان يحرص على ألا يجنى أحد جانبى نفسه على

الجانب الآخر . فمما يقع تحت قلمه عبارات تتردد آنا بعد آن يذكر فيها انه جاوز الحد مضطرا فى استعمال المجاز وفى الالتجاء الى الخيال ويعود بعدها الى منطقه المحكم وتحليله الدقيق ، فيشرح البيئة الطبيعية والعصر ومميزاته والجنس وخصائصه ويطبق ما يستنتج من ذلك كله على الكتاب والشعراء الذين يحللهم ويرسم بذلك صورة مضبوطة من هذا الأدب الانكليزى الذى استغرق تاريخه أربعة أجزاء من كتب تين .

وكان تين قد رشح نفسه فى سنة ١٨٦٢ ليقوم بتدريس الأدب فى مدرسة الهندسة . لكن مسيو دى لمونى انتخب بدلا منه . على أن وزير الحربية عينه فى مارس من السنة التالية ممتحنا فى التاريخ واللغة الالمانية بمدرسة سان سير الحربية . وفى سنة ١٨٦٤ شغل مقعد تدريس تاريخ الفن والجمال فى كلية الفنون الجميلة . فكان تعاقبه فى وظائف الدولة هذه سببا لاثارة الخوف فى نفس رجال الدين مما دفع المونسنيير دوبانلو ليكتب منشورا يوجه به الى الشبيبة والى الآباء يطعن فيه طعنا جارحا على تين ورينان وليترى ويشهر فيه بنزعاتهم الالحادية مما كاد يودى بمركز تين لولا تدخل البرنسيس ماتيلدا لحمايته .

وفى سنة ١٨٦٤ وجه بكتبه الى الاكاديمية ليحصل على جائزة بوردان ، فانبرى له مونسنيير دوبانلو من جديد واشترك معه آخرون ليحولوا بينه وبين الجائزة . على أن مسيو جيزو دافع عنه بكل اخلاص واستمرت المناقشة أمام الأكاديمية فيمن يستحق الجائزة ثلاثة أيام متتالية استقر الرأى بعدها على أن الجائزة لا تمنح

لأحد ما دامت لا تمنح لتين • ومن ذلك التاريخ فتر اهتمام تين بالاكاديمية وتعضيدها أو عدم تعضيدها له •

على أن هذه الخصومات المتتابعـة وهذا التجنى على ذلك الكاتب الفيلسوف الكبير لم يحل دون حصوله على وسام اللجيون دونير فى سنة ١٨٦٦ وعلى شهادة D. C. L. من جامعة اكسفورد بعد محاضرات ألقاها بها عن راسين وكورنى فى سنة ١٨٧١ •

ومنذ عين تين أستاذا لتاريخ الفن والجمال فى كلية الفنون الجميلة اتسع له زمن البحث وميدانه ووجد من الوقت ما يسمح له بالسفر فى بلاد مختلفة وبخاصة فى ايطاليا مهد الفن ومنبت أجمل ما أبدع المثالون والمصورون من آثار •

على الطريقة التى كتب بها تاريخ آداب اللغة الانكليزية كتب فى سنة ١٨٦٥ كتابه (فلسفة الفن) وفى سنة ١٨٦٧ نشر رسائل عن المثل الأعلى فى الفن أتبعها بمقالات عن فلسفة الفن الفلمنكى والفن اليونانى ضمت كلها بعد ذلك الى كتاب فلسفة الفن •

كتب هذا الكاتب على طريقته فى كتاب آداب اللغة الانجليزية • فالى جانب وصفه الممتع للآثار الفنية المختلفة ترى نظريته الثابتة التى تخضع الفن كما تخضع كل مظاهر الحياة الانسانية ، وكما تخضع الانسان نفسه ، الى الطريقة العلمية فى البحث ، طريقة التحليل والمقارنة والإستنباط وارجاع كل أثر من هذه الآثار الى البيئة والجنس والعصر التى نشأ فيها صاحب الأثر • وهذا فى نظره هو السبب الأساسى لاختلاف كل مدرسة من مدارس الفن عن سواها • فالفن الايطالى غير الفن الفرنسى وغير الفن الفلمنكى وغير الفن الانكليزى ، لأن البيئة الايطالية تختلف عن كل واحدة

من هذه البيئات الأخرى ، وان أمكن أن يوجد شيء من الشبه بين منتجات هذه المدارس المختلفة اذا هى كانت معاصرة بعضها لبعض لما فى هـذه المعاصرة نفسها من داع لوجود مشابهة قليلة أو كثيرة فى التفكير والتصور والنظر بين الفنون المختلفة . وذلك هو سبب الاختلاف بين المذاهب المختلفة فى الأمة الواحدة اذا هى اختلفت عصورها وان كان فى اتفاق البيئة والجنس ما يبعث اليها شبها قويا يصل بينها فى الروح والحياة .

وفى أوائل سنة ١٨٧٠ نشر كتابا ثانيا من أمهات كتبه . ذلك كتابه (فى الذكاء) . ولقد ذكر هو فى مقدمة هذا الكتاب أنه ثمرة بحث وتفكير عشرين سنة كاملة . والواقع أن بين هذا الكتاب وبين رسالة « المشاعر » التى قدمها ليحوز بها جائزة الفلسفة فى سنة ١٨٥١ صلة كبرى . ذلك بأنه يرد الذكاء فى الانسان الى احساسه ومشاعره ، وان كل حس يؤثر بمحسوساته فى مراكز الذكاء فى الانسان تأثيرا هو صاحب الأثر الأكبر فى تكوين هذا الذكاء . وفى هذا الكتاب أيضا شرح تين نظرياته ، بل لعله فى هذا الكتاب وحده قد قرر هذه النظريات على صورة كاملة ظهر فيها مذهبه الجبرى بكل قوته ووضوحه .

ظهر لتين كثير غير الكتب التى ذكرنا ؛ منها كتابه (مذكرات عن انجلترا) وكتابه الآخر (مذكرات عن باريس) . واذا هو كان فى الكتاب الأول كاتبا ومحللا على طريقته ، فهو قد امتاز فى الكتاب الثانى بالنكتة المقذعة وبرقة فى العبارة مع دقة فى الملاحظة ومرارة فى التهكم بالناس وبالحياة جعلت كثيرين يتمنون لو أنه وجه نصيبا كبيرا من عنايته الى هذا النوع من الكتابة .

وتزوج تين فى سنة ١٨٦٨ فلم يغير زواجه شيئا من حياة الجد والعمل التى كان يحياها • على أنه منذ سنة ١٨٧٠ ، وعلى أثر الحرب الفرنسية الألمانية ، حز فى نفسه ألم هزيمة بلاده وتوجه بكله يريد أن يقف على أسباب ضعفها • وكان هذا هو الدافع له الى وضع كتابه الأكبر (أصول فرنسا الحديثة) الذى عمل فيه منذ سنة ١٨٧٠ الى أن مات فى سنة ١٨٩٣ والذى اضطر من أجله أن يتخلى عن مهنة التدريس منذ سنة ١٨٨٤ لينقطع له انقطاعا تاما • ويبدأ هذا الكتاب بجزأين عن العصر القديم ، أى العصر السابق لما قبل الثورة الفرنسوية • أما تاريخ الثورة فيتناول ستة أجزاء ، ويتناول التاريخ الحديث ثلاثة أجزاء يعقبها جزء واحد وضعه تين كفهرس للكتاب كله • ولقد كان فى عزمه أن يضع ، فى الجزء الذى لم يمهله القدر ليتمه ، الصورة الصالحة لنظام الأسرة ونظام الجمعية فى فرنسا كما يريد العلم لهذا النظام أن يكون ، لكنه توفى فى الخامس من شهر مارس سنة ١٨٩٣ وما يزال فى الخامسة والستين من عمره •

وكتابه (أصول فرنسا الحديثة) هو عمله الخالد على التاريخ • ولقد سار فيه على نفس الطريقة التى سار عليها فى سائر كتبه • وان يكن الدافع الذى دفعه لكتابته ، ألا وهو حب وطنه حبا أذكته هزيمة حرب السبعين وزادته ضراما ، قد جعله فى كثير من الأحيان يناصر حزبا على حزب وطائفة على طائفة من الأحزاب والطوائف المختلفة التى حكمت فرنسا منذ ذلك العصر القديم الذى كتب هو عنه •

وهو على كراهيته للاستبداد فى كل مظاهره وعلى تقديسه

للحرية فى مختلف صورها ، لم يكن يؤمن بالديمقراطية ولا بالمساواة المطلقة التى تترتب عليها ، بل كان يحسب فيها هى أيضا لونا من استبداد الجماهير الحمقاء بحكم البلاد لا تقل سوءا عن استبداد الملوك الظلمة الغاشمين ، فكلا الاستبدادين قائم على الشهوة العمياء التى تبتغى المصالح الذاتية فى شره وسخف والتى لا تفهم المعانى العليا التى يتطلع اليها العلم ولا السنين الثابتة التى تستنبطها الفلسفة القائمة على هذا العلم .

ويذكر كثيرون أنه كان فى هذا ، كما كان فى فلسفته ، متأثرا بالفلسفة الانكليزية وبالحياة السياسية الانكليزية ، ولعله كان يميل الى شىء من الاستقراطية بطبيعة تفكيره ، ولذلك كان كتاب عصره جميعا انما يذكرونه باسم (مسيو تين) ، وذلك امتياز لم يعرف الا له ولاثنين أو ثلاثة من كبار الكتاب معه . وربما كان صدقا ما يقوله مسيو هريو وزير معارف فرنسا فى خطابه عن تين من أنه لو كان انكليزيا وعاش فى انجلترا لكان حتما أن يلقب وأن يكون (السير هيبوليت) . وهذه النزعة هى التى أدت به ليكتب رسالة مطولة عن الانتخاب المباشر يطعن فيها من الطعن على هذا النظام ، ويرى من السخرية أمر السخرية أن يتساوى فى الرأى عن طريقة حكم البلاد ماسح الأحذية وعميد الكليات ومديرو الجامعات كما يرى حماقة أن يحكم نصف الأمة زائدا واحدا نصفها الآخر ناقصا واحدا ، أو أن يحكم سوادها الطائش المخدوع بترهات المغررين والمضللين صفوة أبنائها وخلاصة ذوى الرأى والعلم فيها حكما أقل أثره أن يبعث التقزز الى نفوس الصفوة ويضعف من

حب كثير منهم للعمل ويضيع بذلك جهودا أقلها خير ألف مرة من جهود السواد وقادته .

* * *

وعاش تين ومات ومنطقه منطقه ورأيه لم يتغير . وكأنما كان مصداقا حيا لهذه الكلمة : « النبوغ فكرة فى الصبا تنفذ فى الرجولة » . فمنذ كان تين فى مدرسة المعلمين الى أن مات ، كانت غايته فى الحياة واحدة وطريقته الى هذه الغاية واحدة : كانت غايته الحقيقية وكانت طريقه الى الحقيقة العلم ، حقيقة لا هوادة فيها وعلم كذلك لا هوادة فيه . ولهذا كان جديرا حقا بالخلود . واذا كان كثير من نظرياته قد نقض بعد حياته ، فهو فى ذلك ليس الا انسانا عظيما . هو قد خطا بالعالم فى عصره الخطوة التى كان يجب أن يخطوها العالم . فكأنما كان رسولا لتمام هذه الخطوة . أما وقد أتم رسالته وآن للعالم أن يخطو خطوة أخرى ، فان ذلك لن يغض من فضله ولن يغمطه شيئا من حقه ، بل هو على العكس من ذلك يزيدنا قدرا له واعجابا به . وكفى أن يسأل انسان نفسه : ماذا يكون العلم وماذا تكون الفلسفة لو أن تين لم يوجد ؟ ولن يستطيع انسان أن يجيب على هذا الا بالاعتراف لتين بفضل عظيم . وهذا الفضل هو الذى جعل فرنسا تحتفل بعيده وجعل الفرنسيين يفكرون فى اقامة تمثال له فى باريس وتمثال آخر نصفى فى مدرسة المعلمين .

وليم شكسبير

« ماحاجة شكسبير الى أحجار فوق أحجار يقيمها الناس مدى قرن كامل لتأوى اليها رفاته المجيدة ؟ ما حاجته أن تدفن بقاياه المقدسـة تحت هرم يصعد حتى يصل الى عنان السماء ؟ يا ابن الذكرى العزيز ووارث المجـد العظيم ! ماذا يعنيك من هـذا الاعتراف الضئيل بفضل اسمك وقد أقمت لنفسك من اعجابنا وعجبنا تمثالا لا يبلى » .

« ملتن »

« تمثالا لشكسبير ! ولماذا ! ان التمثال الذى أقامه لنفسه على عماد هو انكلترا كلها لخير له من كل تمثال . ليس شكسبير بحاجة الى هرم وله مؤلفاته . وماذا يمكن أن يخلد الرخام منه ؟ وماذا يستطيع البرنز أن يقيم حيث يقيم المجد ؟ ان الأحجار كلها والفنانين الذين ينحتونها يضيعون جهدهم عبثا . فالعبقرية هى العبقرية من غير حاجة اليهم . ولو اجتمعت الأحجار كلها ، أفتراها تكبر هـذا الرجل اصبعا ؟ وأى قوس أبقى من هذا القوس : قصـة الشتاء ـــ العاصفة ـــ زوجات وندسور المرحات ـــ يوليوس قيصر ـــ كربولان . وأى أثر أعظم من لير ، وأشد تجهما من تاجر البندقية ، وأبهر من روميو وجوليت ، وأبهى من ريكاردوس الثالث ؟ وأى بدر يلقى على هذا البناء ضياء أعجب من حلم ليلة الشتاء ؟ وأى عاصمة ولو كانت لندرة تثير حوله ضجة هائلة كما تثير روح مكبث

الهائلة الضجيج ؟ وأى حلية من خشب الزان أو البلوط تبقى بقاء أو تللو ؟ وأى نحاس أصلب من نحاس هملت ؟ كلا : لن يوازى بناء من الحجر أو الصخر أو الحديد هذا الروح . روح العبقرية العميق . روح الله يتجلى به على لسان الانسان . ورأس فيه فكرة هو القمة . أما أكداس الأحجار فجهود ضائعة . وأى بنـاء يساوى فكرة ؟ انبابل لدون ايزاس ، وخوفو لأصغر من هوميروس ، والكوليزيم لأقـل من جوفنال ، وقصر اشبيلية قزم الى جانب سرفانتس ، وكنيسة القديس بطرس فى روما لا توازى كعب دانت . فكيف تستطيعون وان جهدتم أن تقيموا برجا فى رفعة هذا الاسم : شكسبير ؟ » .

« فكتور هيجو »

وصدق ملتون ، وصدق فكتور هيجو . فأنت لا تعنى اذ تذكر شكسبير أأقيمت له تماثيل أم رفعت له نصب واهرام . وأنت لا تذكر الى جانب اسمه ما تذكره الى جانب اسم نابليون من عماد فندوم أو قبر الانفاليد . بل أنت اذ تذكر شكسبير تنسى كل ما فى العالم غير ما خلف شكسبير ، غير هذه التركة الخالدة من الشعر السامى فوق كل مراتب الشعر ، والذى يزداد سموا كلما ازددت فيه امعانا ، حتى لتنسى الى جانبه كل شعر وكل موسيقى وكل فن لأنك ترى فيه عالما كاملا من الأشياء والناس والآلهة خالقه خيال يندمج فيه كل خيال ، وفن يتلاشى أمامه كل فن . ولتنسى الى جانبه الأعجاب فى الحياة بأى شىء سواه . هذا شكسبير لم يكن ملكا ولم يكن غازيا ولم يكن عظيما فى قومه ، بل كان ككل نابغة وكل عبقرى رسولا تؤديه رسالته حتى لتحرقه . ومن هذا

الأذى ، ومن هـذا الاحتراق تنعطر الحياة بأريج تلك الرسـالة وتزداد بهذه الأريج شـعورا كلما ازداد عطر الاحتراق والأذى ذيوعا وانتشارا .

نعم ! لم يكن شكسبير ملكا ولا غازيا ولا عظيما فى قومه . بل كان مؤلف روايات وكان مهرجا . كان عمله فى الحياة أن يبعث السرور والنشوة الى نفس الجمهور ثم لا يناله أكثر الأحيان من هذا الجمهور الذى أضحكه غير السخط والازدراء . ومات شكسبير وانطوى دور المهرج فظل أهل عصره ينكرون عليه مقامه كمؤلف وينعتونه بأنه لم يحدث جديدا وبأنه غراب اكتسى بريش الطيور الجميلة فلم يصنع أكثر من أن سرق ما كتب غيره . لكن الزمن الدائم الكر والذى يصهر تراث الماضى فيستخلص جوهره من خبثه ، لم يجد فى شكسبير الا جوهرا يشع فى المستقبل الى قرون وقرون بعده ، فلا تزداد الا تطلعا اليه واعجابا به . وهذا الزمن وجد فى الهام شكسبير الشعرى علما وحكمة ، فنفى عنه حسد أهل عصره وأقام له من المجد ما عبر عن بعضه ملتن شاعر انكلترا الأول بعد شكسبير : وهيجو مقـدم شعراء فرنسـا ومترجم شكسبير الى الفرنسية .

واذا لم يكن شكسبير عظيما فى قومه فليس فى تاريخ حياته ما يقف النظر عنده الا أن يكون خلقه الثائر ونفسه المتمردة على الخلق وعلى الفضيلة .

ولد فى ستراتفورد — أن — ايفن فى ٢٣ ابريل سنة ١٥٦٤. أى فى عصر الملكة اليصـابات أحد عصـور انكلترا الزاهرة ، وفى القرن السادس عشر عقب الانقـلاب الدينى العظيم الذى

قام به مارتن لوثر وتأثرت به انكلترا أكثر مما تأثرت به أية أمة غيرها . وكان أبوه جون شكسبير محترما فى قومه لأنه كان يملك ثروة تغنيه عن غيره ، جاءه بعضها من كده وبعضها من زوجه . وقد اختلف الرواة فى الصناعة التى كان يزاولها جون بين أنه كان تاجرا أو مزارعا أو جزارا . ويذهب كثيرون الى أنه كان يزاول هذه المهن جميعا كما يفعل الكثيرون من أهل القرى والبلاد الصغيرة . ولمكانته من قومه انتخب فى مجلس بلدته القروى ونيطت به أعمال قاضى المصالحات . وفى سنة ١٥٧٧ ساءت حال جون شكسبير المالية حين كان ابنه وليم ما يزال ، وهو فى الثالثة عشرة من عمره ، فى بداءة تعليمه . فاضطر للاستعانة به فى كدح الحياة . وجعل الفتى — على قول بعض مترجميه — « يقتل العجول لأبيه ويلقى أثناء يقوم بعمله خطبا رائعة الأسلوب على سامعيه » . وكذلك انقطع عن الدرس وشغل بهم الحياة حتى تزوج فى الثامنة عشرة من عمره من أناهثواى ورزق منها فى ٢٦ مايو سنة ١٥٨٢ فتاة أسماها سوزان وتوأمين غلامين فى فبراير سنة ١٥٨٥ .

على أن هموم الحياة ومشاغل الاسرة لم تغير شيئا من خلقه المضطرب الثائر . فقد أولع منذ صباه بالشراب حتى كان فيه مفخرة قريته ، كما أنه كان لا يتعفف عن سرقة الصيد من أملاك كبار الملاك وبخاصة من أملاك السير توماس لوس كبير قضاة قصبته . وكم خضع من أجل ذلك لهوان الضرب ومذلة العقوبة . وفيما هو يوما يجارى أهل قرية مجاورة فى الشراب سكر حتى لم يستطع العود الى أهله . فلما أصبح ذكر حاله وما آل اليه أبوه الذى أدخل السجن بسبب ديونه ففضل هجرة بلد أصبح لا احترام له

بين أهله برغم ماكان يشعربه فى نفسه من تفوق على أقرانه ، أن كان قد بدأ يتغنى بشعر ينظمه ، فهجر ستراتفورد الى لندرة وهو لا يدرى ما يستطيع أن يفعل فيها .

ودخل العاصمة العظيمة خالى الوفاض يضنيه الضنك والعوز فأسرع الى حرفة من أحقر الحرف . ذلك أنه كان ينتظر بخيول المتفرجين على أبواب المسارح فاذا انقضت ساعات التمثيل نفحوا هذا الخادم بما تجود به أنفسهم . ولعل لهذه الحرفة الوضيعة حظا غير قليل فيما يدين به العالم اليوم لشكسبير من رواياته الخالدة . فمن سبيل هذه الحرفة استطاع شكسبير أن يعرف بعض الممثلين وأن يكسب عطفهم وأن يلتحق بعد ذلك باحدى الفرق فى أدوار تافهة . لكنها كانت سلمه الى أدوار خير منها . ومع انه لم يكن يوما ممثلا بارعا ولم يصل الى النبوغ فى التمثيل الا ما كان من نبوغه فى دور طيف والد هملت فان خشبة المسرح هى التى دفعته الى كتابة روايات تشهد الأجيال المتعاقبة تمثيلها معجبة مقدسة .

وكما تدهشك أن تكون حرفة شكسبير الحقيرة سبب هذا المجد العالمى فقد يدهشك كذلك أن تعلم أن ظرفا آخر لا يد له فيه قد عاون الشاعر فى عمله . ذلك أن اضطرابات العاصمة الانكليزية أدت الى اقفال مسارحها ما بين ١٥٩٢ و ١٥٩٤ . واذ كان شكسبير قد بدأ يولع بالنظم والتأليف ووجد من معونة بعض ذوى النفوذ ما أغناه عن اتباع الفرق التمثيلية فى تجولها ، فقد ظل مدى هاتين السنتين مكبا على دراسة اللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية ، مكبا على النظم والتأليف . وخلالهما استشف مظاهر نبوغه وعبقريته وميوله التمثيلية . فكتب فى ابريل سنة ١٥٩٣ قصيدة فينس وادونيس

Venus and Adonis كما كتب فى مايو سنة ١٥٩٤ رواية لوكريس وأهداها الى لورد سوذامبتن • ويقال ان اللورد شجعه على الاستمرار فى عمله وأعانه بألف جنيه دفعها له فمكنه من زيارة شمال ايطاليا واتقان لغتها ، التى كان قد بدأ يدرسها فى لندرة ، والوقوف على كثير من الأساطير الايطالية التى استعان بها فى رواياته • وفى أثناء زيارة ايطاليا بدأ يكتب مقطوعاته التى نشرت بعد ذيوع اسمه والتى أهدى أكثرها الى لورد سوذامبتون كما جعل يؤلف للمسرح روايات أمل فى تمثيلها بعد انقضاء الاضطرابات وعود الحياة الهادئة الى عاصمة بلاده •

وفى صيف سنة ١٥٩٤ فتحت دار التمثيل أبوابها وعاد شكسبير الى المسرح وبدأ يقدم رواياته لتمثل • ولم تكن قوة هذه الروايات لتخفى على أحد وبخاصة أنها كانت تمثل حياة ذلك العصر وأخلاقه أدق تمثيل • لذلك لم يلبث شكسبير أن حاز من ذيوع الصيت ما خلع عليه اسم الممثل البارع وان كانت براعته الحقة فى تواليفه • وكان من أثر ذلك أن شارك شكسبير بنصيب فى أرباح مسرح (الجلوب) الذى كان يشتغل فيه ، فاستطاع بذلك أن يشترى فى بلدة ستراتفورد دورا وضياعا وأن يعيش فى رغد ونعمة وأن يعيد أباه وأهله الى حب الحياة • وكما يسرت شهرة شكسبير له سبل العيش فقد فتحت أمامه أبواب العظماء وأنالته عطف الأسرة المالكة ورفعت بذلك من مقام التمثيل والممثلين الذين كانوا قبل ذلك بمكان من الضعة والحقارة يشعر الانسان به حين يقرأ من مقطوعات شكسبير ما كتبه أثناء مقامه بايطاليا وما فيه من برم بالحياة وألم لازدراء الناس مهنة لم يكن له كى يكسب العيش

مفر من احترافها • وزاد المهنة رفعة أن مثل شكسبير فى حضرة الملكة اليزابيت وأن نال من عطفها ، وان يك قد تنكر بعد ذلك لها حتى لم تذرف عليها عينه دمعة عند موتها ولم تتحرك شاعريته بعبارة ألم لرثائها •

وبقى شكسبير يؤلف فى السنة الواحدة الرواية والروايتين ويمثلها مع زملائه الذين كانوا واياه على خير وفاق • وقد أثار تاريخ تأليفه كل رواية من رواياته مباحث شتى حتى وضع (اومندمالونى) كتابا سماه « محاولة لتحقيق الترتيب الذى كتبت به روايات شكسبير »

(An attempt to ascertain the order in which the plays of Shakcspeare were written).

كذلك أنكر بعض النقاد نسبة بعض الروايات له كما أنكر بعضهم وجوده •

وفى سنة ١٦١٠ اعتزل المسرح وترك لندرة الى ستراتفورد حيث عاش عيشا هادئا مكتفيا بما جمعه من مال مستمرا مع ذلك فى كتابة رواياته • ويذهب بعض مؤرخيه الى أنه كان مع ذلك يعود الى لندرة الحين بعد الحين ويشترك فى تمثيل بعض الروايات حتى احترق مسرح الجلوب فى ٢٩ يونيو سنة ١٦١٣ أثناء تمثيل رواية هنرى الثامن • هنا لك انسحب شكسبير الى قريته ولم تبق له عناية بغير رفاهته ، فعاش عيش ذوى اليسار وطلق التمثيل والتأليف جميعا وجعل يقرض الناس بالفائدة مما أدهش كثيرين ممن كتبوا عنه • قال تين : « خاتمة غريبة تبدو لأول نظرة خاتمة تاجر لا خاتمة شاعر • أفنعزوها الى هذه الغريزة الانكليزية التى ترى السعادة

فى حياة رجل الريف صاحب الملك حسن الايراد كريم الأصل الحاصل على أسباب الرغد المطمئن بين الناس الى مكانته واحترامه والى سلطته العائلية ومكانته من قومه ؟ أم أن شكسبير كان كفولتير رجلا موزونا وان يك خيالى الذهن يحتفظ بقوة حكمه خلال نشاط شاعريته ، حذرا لتشككه مقتصدا لحاجته الى الاستقلال عن الناس ، قديرا ، بعد أن يحيط بكل ما مر بخاطر الانسان ، أن يرى مع كانديد أن الخير كل الخير فى أن يزرع حديقته ؟ أما أنا فأميل لافتراض يدل عليه رأسه الملىء المتين ، ذلك أنه لكثرة ما أنتج خياله المتموج قد نجا كما نجا جيتى من مخاطر الخيال المتموج . وانه فى تصويره الشهوات قد بلغ ما بلغه جيتى من تخفيف حكم الشهوات اياه . وان الاندفاع لم يحدث فى سلوكه انفجارا لانه كان يجد فى الشعر مصرفا لاندفاعه . وان رواياته حفظت عليه حياته لأنه ألم من خلالها بكل ما فى الحياة الانسانية من هوس وتعس ، فاستطاع أن يجلس بينها وعلى ثغره ابتسامة مطمئنة مكتئبة ، وأن يسمع ليسرى عن نفسه هذه الموسيقى الاثيرية التى أبدعها فى رواياته . وأريد أن أفترض أخيرا انه كان فى جسمه ، مثله فى سائر تكوينه ، أحد رجال جيله العظيم ، وعصره العظيم ، وان متانة العضل كانت عنده مثلها عند رابليه وتسيان وميكلنج وربنس ، توازى حساسية الأعصاب . وان الماكينة الانسانية كانت يومئذ أقوى بناء وأحسن بلاء فكانت تستطيع أن تقاوم عصف الشهوات واندفاعات الهوى . وان النفس والجسم كانا ما يزالان متوازنين فكان النبوغ يومئذ زهرا وثمرة ، ولم يكن مثلما هو اليوم مرضا » .

* * *

قد يكون التصوير الذى فرضه تين لحياة شكسبير صحيحا • لكنه لا يزيد على انه فرض فى رأى تين نفسه • على انك اذا أردت أن تقف على أسرار شعر شكسبير وراوياته فقد وجبت دراسة ذلك كله دراسة لا يتسع المقام هنا لأكثر من الالمام بشىء منها الماما يسيرا •

نشأ شكسبير ، كما قدمنا ، فى العصر الذى عقب الانقلاب الدينى الذى قام به مارتن لوثر وتأثرت به انكلترا أكثر مما تأثرت به أية أمة غيرها • وكان الذين أخذوا بالمذهب الجديد ما يزالون متأثرين قبل كل شىء بأساسه وهو حرية التفكير• وكان انهيار قيود الكثلكة هو البادى أمام الأنظار • ولم تكن بعد قد تركزت فى النفوس قواعد المذهب الجديد تركزا ثبت الايمان بها تثبيتا يحول دون تحطيمها • كما لم تكن خلقت حول المذهب الجديد هـذه الأوهام المحسنة التى تهون على الناس عبء الحياة فيخضعون لها طائعين — لذلك كله كانت جماعة ذلك العصر فى انكلترا تسيغ الالحاد ولا تنزعج لاعلانه ولا تضطرب أمام ما يرتبه أصحابه عليه من تقشف أحيانا واستهتار واباحة أخرى وشك ثالثة ، واعتدال فى الحياة وفى المتاع بها اعتدالا يبقى عليها ويطيل • ولعل هذه الظاهرة كانت ذات أثر فيما رأينا من سلوك شكسبير ومن استباحته سرقة الصيد • وهى لا ريب كانت قوية الأثر فى رواياته • فأنت ترى فيها من التجديف ومن الغواية ، مصبوبين فى أجمل قالب وأبهاه ، ما لا يحتمله عصر غير عصره الذى كان مجاورا للعصور الوسطى والذى لم يتخلص من خرافاتها وان أباح لنفسه هدم هذه الخافات • وكما أثر العصر فى شكسبير من ناحية حرية تفكيره فقد أثرت فيه

هذه الخرافات من ايمان بالسحر وبالجن حتى لترى كثيرا منها فى رواياته . ثم ان هذا العصر الطليق المجاور للعصور الوسطى كان عصر اضطرابات ومجازر ، وكان القتل أمرا شائعا فيه حتى لترى الرجل تقطع عنقه لغير سبب الا أنه أنكر على الملك سلطانه الدينى أو أنه أغضب رجلا ذا سلطان باشارة أو بكلمة . أضف الى ذلك ذيوع عادة المبارزة وانتهائها فى أحيان كثيرة الى قتل أحد المتبارزين . وهذا الاستهتار بالحياة الانسانية هو سر ما نرى فى أكثر روايات شكسبير من مجازر فظيعة تنتهى أغلب الأمر الى موت أشخاص الرواية جميعا . ثم ان التمثيل على النحو الذى نعرفه اليوم كان فى ذلك العصر ما يزال فى دور نشأته حتى لم يكن معروفا فى كثير من البلاد ومن بينها فرنسا . فلم تكن قد تقررت له قواعد كالتى تقررت بعد ذلك من وحدة الزمن والمكان والحادث . ولذلك أنت ترى فى شكسبير مناظر مختلفة فى الفصل الواحد قد لا يكون بينها أية صلة ، وقد يفصل بين المنظر والمنظر مئات الأميال . ثم انك ترى كذلك فى هذه الروايات خلطا عجيبا من أحط ما تنزل اليه الجماعة فى حياتها العادية التافهة ، ورفعة لا تدانيها رفعة فى سمو الخيال وتصوير فعل الشهوات فى النفوس .

وهذه الظواهر التى تجدها سائدة فى دول أوربا كلها فى ذلك العصر كانت أكثر وضوحا فى انكلترا . ومرجع ذلك أن الخلق الانكليزى بطبيعته خلق ثائر طموح للحرية يفتديها بالدماء . وكان كذلك فى تلك العصور الماضية أكثر مما هو اليوم . ولذلك كانت انكلترا أسرع من غيرها الى الأخذ بالمذهب الدينى الجديد . ولذلك كانت مظاهر القسوة وما تلده من قتل وتعذيب أكثر تفشيا بين

هؤلاء السكسونيين • وكان من شأن السحر عندهم مالا تعجب بعده لطيف هملت ولا لساحرات مكبث • ثم كان من استهتار الناس بالحياة ما ترى آثاره فى شعر شكسبير مما يجعل المتقشفة والمتصوفة أشد على الحياة حرصا من أهل هذا الزمن • فليس عجيبا اذا هذا الذى نرى فى شعر شكسبير من مجازر وخرافات وان خيل لبعضهم بادىء الأمر أن فيه شيئا من العجب يدعو الى عدم تصديقه •

واذ كان علم شكسبير راجعا الى ملاحظة الطبيعة أكثر من رجوعه الى دراسة الكتب ، وكانت معلوماته التى استند اليها فى تأليف رواياته لا تزيد عن معارف سطحية فى التاريخ والفلسفة والاجتماع ، فان كثيرا من رواياته لا تعتمد على أكثر من أساطير سمعها أو قرأها فى الكتب التى يتناولها الناس جميعا وفى مقدمتها تاريخ العظماء لبلوتارك • فرواية هملت تعتمد على أسطورة دانمركية ينكرها أكثر المؤرخين • ورواية روميو وجولييت أحدوثة ايطالية يغلب أن يكون شكسبير قد سمعها أثناء سياحاته فى شمال ايطاليا أو قرأها ولم يستتمها فى بعض الكتب • ذلك أن هذه الأحدوثة تنتهى بأن روميو لما بلغه موت جولييت حضر الى قبرها وبلغ من ألمه أن طعن نفسه بالخنجر ، لما كانت جولييت لم تتناول السم بل تناولت مخدرا فقد استيقظت وروميو ما يزال فى النزع فبث كل منهما لصاحبه لاعج غرامه • وطعنت الفتاة نفسها بالخنجر الذى زج به محبها فى أعماق قلبه • ولم يشر شكسبير الى هذه الواقعة الجديرة بأن تجرى على أوتار ربة شعره بأرق أنغام الحب والألم فدل بذلك على أنه لم يعرفها •

هذا التحليل للمحيطات التى وجد فيها شكسبير قد يفسر

طريقة وضعه رواياته وقد يهدى الى أسرار ما ترى فيها اليوم مما نعتبره عند عدم وقوفنا على هذه المحيطات خرافة غير لائقة بعبقرية فذة كعبقرية شكسبير • لكنه مع ذلك لا يدلنا على شيء من سر عظمته ولا يهدينا الى كثير من سر شعره • والحق أن البيئة والزمن وحدهما لا يفسران نبوغ النابغة ولا عبقرية الشاعر وان بينا مراميه وكشفا عن أغراضه • فأما العبقرية فلازمة ذاتية وهبة قدسية تنفح بها الطبيعة شخصا من الناس على حساب مواهب أخرى • وعبقرية شكسبير كانت فى ملاحظتـه وفى خياله وفى شـاعريته وكانت فى ثقوب نظره ثقوبا يستطيع معه أن يرى دخيلة النفس الانسانية وأن يصفها وصفا حسبه الناس بادىء الأمر غواية شاعر ، ثم أثبت العلم أنه الحقيقة العلمية التى لا تقبل نزاعا ولا جدلا •

وكانت مظاهر الطبيعة فى أرق صورها وأجملها أول ما فجأ خيال شكسبير • فأنت لا تقرأ له رواية ولا مقطوعة الا وجدت من وصف هذه المظاهر وصفا موسيقيا بديعا يدلك على مبلغ تأثيرها فى أعصاب هـذا الشاعر الدقيق الحس تأثيرا يجعله يندفع الى الاعجاب بالجمال وتقديسه الى أقصى حدود الاعجاب والتقديس ، فيظهر أثر ذلك فى شعره ، ويظهر فى رعشة موسيقية قوية رقيقة فى قوتها ، متجاوبة ثائرة فى تجاوبها ، تهز نفسك هزا وتسحرك عما حولك وتصل بك حتى ترى أمام خيالك مارسمه خيال شكسبير ماثلا واضحا • وقد بلغ من تأثير هذه الصورة فى نفس الشاعر العظيم أن حلت منه محل التفكير حتى فى شأن الحياة الانسانية • فالرجل الغاضب كالطبيعة الثائرة • وما يترتب على ثورة الطبيعة من آثار هو بعينه عند شكسبير ما يترتب على غضب الانسان من

آثار • والطبيعة فى سيرتها العادية تافهة حتى اذا ملكتها الثورة أبرقت وأرعدت وعصفت وأهلكت الحرث والنسل • كذلك الانسان فى سيرته العادية تافه حتى اذا ملكته الشهوة أسرف فى الحب أو فى البغض أوفى الايثار أوفى التشفى والانتقام • والطبيعة خاضعة لظروف لا سلطان لها عليهـا ، والانسان خاضع مثلها لظروف لا سلطان له عليها • وكما تسيِّر الغرائز الطبيعة تسيِّر الغرائز الانسان • فكل صورة للطبيعة لها مثلها فى الانسان • ولذلك كان أسلوب شكسبير وكان خياله خيالا تصويريا فى وصفه وفى احساسه وفى شهواته وفى تفكيره • اقرأ مكبث حين يصف آثار جريمته وكيف لا تستطيع البحار أن تمحو ما خلفت من دم على يديه • واقرأ هملت فى ثورته على أمه وفى سائر هذياناته الحكيمة • بل اقرأ قيصر واقرأ فى قيصر خطاب انطونى • اقرأ ما شئت من شكسبير تر هذا التقديس لصور الطبيعة وهذا التفكير المصوغ فى قالب تلك الصور •

وكما يندفع شكسبير الى تقديس مظاهر الطبيعة ويتخذ من صورها صور تفكيره ، فهو لا يرى فى غرائز الحياة غير الاندفاع لا يقوم على أساس من روية ولا تفكير ، وانما يقوم على الغرائز الانسانية البسيطة هى التى توجهه وتصرفه • فالحب عنده لا يحتاج الى تحضير ولا سعى من جانب الرجل لكسب المرأة بل هو اندفاع من جانب شابين كل منهما نحو صاحبه • اندفاع رقيق كل الرقة قوى كل القوة • اندفاع شعرى عذب يتغنى فيه كل من المحبين باهازيج الهوى على نغمة موسيقية حلوة كانما كوبيدون اذ رمى عن قوسه فأقصد القلب رمى مع القوس الوتر ، فأخرج هذا الوتر

من أعصاب كل المحبين أنات وآمالا وأحلاما لذيذة ويأسا فاجعا لا يعرف الشعر فى كل الأمم شيئا منه مثل ما عرف على لسان شكسبير . استمع الى أنغام أوفليا فى حبها هملت وتوجعاتها حين اليأس الذى أدى بها الى الموت . واسمع هذا التجاوب الحلو بين روميو وجولييت يجعل من الحب جنة نعيم ليس بعدها جنة نعيم . ثم اقرأ ثوران الغيرة وضجيجها والتهابها فى نفس أو تللو مما لا مثيل له فى أقوى ما تصل اليه موسيقى فاجنر . وخيال شكسبير يصـــل من ذلك فى بعض الأحايين الى حـــدود يعجز أقـــوى خيال عن تصورها .

وكما تحرك الغرائز المحبين تحرك الناس جميعا فى كل تجارة الحياة ، فليس الملك على خلاف الناس جميعا لأنه ملك ، بل هو يحب أهله وأبناءه ويدللهم ما دام بعيدا عن مباشرة شؤون الدولة. وهو فى هذه الشئون يتأثر بغرائز الانسان وشهواته كما يتأثر أى انسان سواه . والرجل السيىء الذى خلقه شكسبير فى شخص ياجو وفى شخص شيلوك تاجر البندقية ينقاد للغرائز الانسانية انقياد الوحش أوتللو والناقم هملت وان كانت صورة هذه الغرائز تختلف من شخص الى شخص حسب مزاجه . وهذا الاختلاف هو الذى جعل من أبطال شكسبير أشخاصا ذوى حياة انسانية صحيحة تشعر واياها اذ ترى تمثيل الروايات على المسرح فى حين انك اذ ترى روايات راسين وكورنى مثلا ، وهما من أكابر كتاب فرنسا فى القرن السابع عشر ، تحس المؤلف هو الذى يتكلم وترى أفكارا تروح وتجيء على المسرح كل وظيفة الممثل أن يقوم بالقاء

الألفاظ التى تؤديها من غير أن تظهر له شخصية حية تنسيك أنه ممثل وتنسيك أنه يقوم بدور تمثيلى .

ولقد أقر النقاد جميعا لشكسبير بهذه الميزة وان رأى بعضهم أنه يسرف فى تصوير أشخاصه اسرافا يجاوز المعقول ، ناسيا أن هؤلاء الأشخاص هم من عصر شكسبير وأنهم من أبناء خياله الشعرى المتوقد . وكما اتهم بالأسراف ظلما فى هذا فقد اتهم بتهمة أخرى أثبت العلم خطأ اتهامه بها . فقد ذهب بعضهم فى وقت من الأوقات الى القـول بأن شكسبير يخالف الطبيعة والمعقول فيما يقرره لبعض أشخاص من تصرفات . من ذلك مثلا أنك ترى مكبث يرتكب جريمة القتل فتتلوث يداه بالدماء ، ثم هو مع ذلك يظهر فى أماكن لايأمن أن يراه الناس فيها ويصيح بأن مياه البحار لاتغسل جريمته . وعلى الرغم من الحاح لادى مكبث فانه يظل يتحدث عن جريمته ولا يدارى شيئا من آثارها . فهذا فى رأى النقاد الذين أشرنا اليهم تصرف غير معقول . أليس أول ما يصنع المجرم أن يعمل ليـدارى جريمته ؟ لكن العلم الجنائى أثبت أن شكسبير على حق وأن الطبيعة الانسانية تدفع بالمجرم الى مكان جريمته وتكرهه أكثر الأحايين على الاعتراف بها .

وليس مثل مكبث الا واحدا من أمثال كثيرة فى ثقوب نظر شكسبير واستشفافه حقيقة الغريزة الانسانية .

* * *

هذا بعض ما تأثر به شكسبير فى شعره . وهو قليل من كثير يستحق العناية به وبحثه . والآن أخشى أن أكون قد أطلت فى حديث لم أكن أقصد الى الاطالة فيه وان يكن القول فى شكسبير

قصيرا وان طال • فلنجتزىء بما تقدم • وبأن شكسبير بعد أن أقام فى ستراتفورد مكتفيا من العيش بطمأنينته ونعمته ، ظل حتى سنة ١٦١٦ ثم مرض فكتب وصيته بما يملك الى ابنته سوزان غير تارك لزوجه الا قليلا • وفى هذه السنة مات ودفن من غير كبير احتفال ، الى أن اضطر العالم بعد أجيال ليقيم له من المجد ما يبقى على الأجيال حتى آخر الزمان •

برسى بيش شلى

— ١ —

ظهر السادس عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٢٢ ، فى صحو جو جميل ، كان لورد بيرون ، والشاعر لى هنت ، والبحار ترلونى ، وقوفا فوق رمال الشاطىء الايطالى على مقربة من ليفورنو يحيط بهم عدد من أهل تلك المنطقة ويقف الى جانبهم جماعة من الضباط والعساكر الايطاليين ، وكلهم محدق ببصره الى نار تضطرم قد بوركت بالنبيذ صب عليها وبالملح ألقى فيها ويفوح منها ريح اللحم الانسانى ، وكلهم واجم مخلوع القـلب ذاهب فى تيهاء الهلع والذهول . وظل هذا المنظر المروع أمامهم ثلاث ساعات تباعا يهز نفوسهم هزا فلا يزدادون ازاءه الا وجوما وذهولا ، وتندى عين بعضهم بالدمع ثم تذرفه أن لاتستطيع حبسه . ويبلغ الهلع والروع أثناء ذلك من لورد بيرون مبلغهما فيلقى بملابسه على الرمل وبنفسه فى الموج يسبح خلاله حتى يصل الى زورقه « البوليفار » . ويحدق ترلونى بالعظام تحترق وباللحم تذيبه النار ، ثم يرى القلب مع ذلك كبيرا كبيرا ، فما يزال منه قلب كامل لم يذب ولم يحترق ، فيجذب هذه البقية المقدسة بيده . وتبدأ النار بعد ذلك تخبو رويدا رويدا تاركة وراءها حفنة من تراب هى كل ما بقى من رفات قيثارة الشعر الانكليزى شلى . ويحمل ترلونى الحفنة الى الأرملة البائسة مارى شلى لتتولى ويتولى هوولى هنت معها حملها الى مقابر البروتستانت

فى روماكى تستقر هناك فى أرض غريبة عن ثرى الوطن ، ولكن لتسعد مع ذلك باستقرارها الى جانب رفات عزيزة محبوبة هى رفات وليم شلى ابن الشاعر البكر من زوجه مارى . ويقع هذا المنظر المروع وتنقل تلك الرفات القدسية الى روما ، ولم يكن شلى قد بلغ الى يوم وفاته فى الثامن من أغسطس تمام الثلاثين من عمره ، وان كان قد خلف من شعره على الحياة ما لا يزال فخر الشعر الانكليزى عذوبة وموسيقى يأخذان بالنفس ويملكان على المرء حسه ولبه ويبعثان الى كل ما ينشدانه ويترنمان به الحياة والخلد ، سواء أكان ما ينشدانه ويترنمان به انسانا أم طيرا أم حيوانا أم جمادا أم مجرد خيال لا وجود فى الحياة له . ذلك بأن الحياة كانت تسرى فى كل ما لامس نفس شلى لتبقى قائمة به قرونا ودهورا بعد موت باعثها . وكذلك كانت فجيعة الشعر فى هذا الشاب الذى خلف الحياة مذ كان على أعتاب الحياة مما يزيد ذكراه قوة وجلالا ، وان كانت هذه الذكرى فى غير حاجة الى مزيد من قوة أو جلال . فلقد كتب لكل بيت من شعر برسى بيش شلى منذ ترنم هو به الخلود وكتب له الجلال .

ولم يكن لورد بيرون لينسى ساعة فراره أمام المنظر المروع ما كان عليه زميله وصديقه من خلق عظيم ونفس بلغت من السمو أرقى سماواته . فهذا الشاعر الشاب ، الذى ولد فى الرابع من أغسطس سنة ١٧٩٢ وتوفى فى الثامن من أغسطس سنة ١٨٢٢ ، قد حلق به جمال الخلق فى سماء الشعر الى مالم يرتفع اليه معاصر له ، والى ما لم يسبقه اليه أحد فى رأى كثيرين ، وما لم يسبقه اليه غير شكسبير فى رأى آخرين . وكان ارتفاعه هذا ليس قائما على خياله

الملتهب وشاعريته الفياضة وكفى ، بل كان قائما ، فوق ذلك وقبل ذلك : على قوة فى النفس قل أن يكون لهـا نظير . قوة بدأت مظاهرها منذ الطفولة وتجلت أثناء الصبا وازدادت وضوحا فى صدر الشباب الذى كان ، وهو صدر شباب الشاعر ، خاتمة حياته. وكانت أجلى مظاهر هذه القوة واضحة فى ايمان الرجـل برأيه وصراحته فيه واعلانه اياه وسلوكه سبيل الحياة على موجبه وان أدى لذلك ثمنا فاحشا أن عده الناس مجنونا وان نفرت منه الجمعية الانجليزية أشد النفور حتى اضطرته ليهجرها منذ أول شبابه وليعيش السنوات الخمس الأخيرة من حياته تحت سماء ايطاليا الدائمة الصفو والابتسام والتى تظل من صور الجمال وبدائع الفن ما يزيد فى الهام الشاعر . هذه الشجاعة وهذا الايمان اللذان اعتبرا جنونا هما أساس شاعرية شلى وهما مصدر الهامه . لكنهما لم يكونا كذلك عند لورد بيرون الابيقورى المستسلم لسلطان الزهرة الناهل من ورد بناتها جميعا الحائز لذلك غاية الاعجاب من أهل عصره وأكبر تقديرهم اياه . لذلك كان طبيعيا أن يرى فضائل زميله وأن يقدرها ، وكان طبيعيا أن يفر من منظر النار تحرق مثوى هذه الفضائل وتذره رمادا .

وكثيرون ممن عرفوا شلى من كانت تأخذهم الدهشة لفضائله ، ومن كانت تزيد دهشتهم لشجاعته وصراحته . ذلك أن صورته وتكوينه لم يكونا ينمان عن هذه الفضائل فيه ، وان كانا ينبئان بشاعريته وقوة خياله . فقد كانت فى نظرته وفى ملامح وجهه وفى جمال شعر رأسه أنوثة عذبة تحدث عن رقة ولين لا عن صلابة وشدة. وكان يضوع منه شذا المحبة والعطف بما لا يلتئم مع القوة على

النضال والقسوة فيه • وكان جسمه الطويل النحيل كأنه قصبة هذه القيثارة التى شدت بأجمل الأنغام وتغنت بأحلى الأهازيج • كذلك لم يكن مولده ولا كانت مكانة أهله فى الجمعية مما يزيل دهشة من بلغت الدهشة منهم بشجاعة شلى وصراحته فى اعلان ايمانه حتى حكموا عليه بالجنون • فقد ولد فى أسرة نبيلة جمعت الى النبل المال • وكانت بطبيعة هذين العاملين محافظة ، لتظل من طريق محافظتها ناعمة بمالها ونبلها • كان جده السير بيش شلى بارونا وكان غنيا وكان لا يفتأ يدأب لزيادة ثروته • وكان أبوه تيموذى شلى قاضيا وعضوا فى البرلمان ، وكان قصرهم بفيلدبليس على مقربة من هورشام احدى أعمال سكس محاطا بحدائق وأحراش تدعو الى المتاع بها والطمأنينة لها • وكان جده السير بيش قد جعله بالوصية وارثه مما يدر عليه ايرادا سنويا ستة آلاف جنيه فى ذلك الزمان ، سبحان من يدرى كم ألوف تعادلها فى زماننا اليوم ! وتلك كلها أسباب دعة وبلهنية وليست أسباب نضال صلب وصراع للجمعية وللحياة فيها لا يعرف الهدوء اليه سبيلا • ولو أن صاحبها أوتى من هبة الشعر ما أوتيه شلى لكان طبيعيا أن يسلك الطريق التى سلكها بيرون من الانكليز وعمر بن أبى ربيعة من العرب • لكن شلى ضرب بالمال والجاه والدعة عرض الأفق وترك بيت أبيه وترك أهله جميعا ولم يقتض من وصية جده الا بمقدار ما يكفيه حاجة العيش ، وانطلق فى الحياة هائما يجلى بها الفضيلة ويؤدى رسالة الجمال ، ولم يكن له من أدائها بد ، فى أنغام قدسية من موسيقى السماء • ويؤديها ذاهلا عما أحاط بحياته من أحزان ومتاعب متجها بكله الى هذا الوجود المحيط به ، مفنيا نفسه فيه كى يفنى الوجود

كله فى نفسه فترده الى العــالم وحيا سماويا يختلط بالنفوس جميعا ويتنقل على الأجيال الى ما شاء الخلد أن تكون للانسانية أجيال تتعاقب .

وكان لجماله ولرقته أثر بالغ فى حياته وفى تفكيره وفى شعره . جعله هذا الجمال المزدان بخواتم شعره وعيونه العميقة الزرقة ولونه الناصع النظيف ويديه ورجليه الجميلة التكوين وما اتصل بذلك من حسن تحسده عليه كل فتاة فى مثل سن الطفولة التى كان فيها يوم ذهب به أبوه الى مدرسة (سيون هوس) فى برتنفورد ، بالغا فى رقته وظرفه وحلو طبعه . ونشأت هذه الصفات الى جانب جماله عن نفس حية حساسة تأنف القسوة وتتنزه عنها وترى فى عدم النظام وسوء الاتساق ما يؤذيها ويثيرها . على أن هذه الصفات جعلت منه فى المدرسة سخرية زملائه وموضع عبثهم ولهوهم ، مما بعث نفسه غضاضة ومضضا . فلما انتقل به أهله الى مدرسة « ايتون » حيث يتعلم أبناء النبلاء وذوى المكانة لم يزدد لنظامها الا بغضا ولمعاملة زملائه التلاميذ فيها الا مقتا . فقد كان وما يزال من نظام التربية فى هذه المدرسة أن يخدم الصغار فيها من هم أكبر منهم سنا وأقدم فى المدرسة عهدا . وكان الصغير الخادم عرضة لكل أنواع الأذى والاهانة من كبيره . كان يمسح له أحذيته ويأتمر بأمره فى كل حاجة يحلو له أن يأمره بها ، ثم كان هذا النظام يقتضى مع ذلك ألا يصبر أحد على اهانة زميل له اياه وأن يدفع القوة بالقوة والعدوان بالعدوان . ولذلك كانوا جميعا يتقنون لعبة (البوكس) ليدفعوا عن أنفسهم وليردوا اعتداء

المعتدى عليهم ، لكن هذا كله لم يرق الصبى شلى فلم يذعن له . لم يرض أن يكون خادما ولم يرض أن يجعل حق القوة أساس خلقه . لكن هو نظام المدرسة الذى تابعته وتابعه منذ أجيال ، فهو لا يؤمن بصلاحه ولا باتفاقه مع الخلق الفاضل والكرامة الانسانية ، فلا يمكن أن يرضى عنه وأن يخضع له : لا يمكن أن يكون خادما ولا أن يخالط أولئك الذين يقضون سحابة نهارهم فى ملاكمة ومصارعة تقوى بها عضلاتهم وأبدانهم على حساب عقولهم وأرواحهم . لذلك اعتزلهم ولجأ الى وحدة لم تزدهم له الا احتقارا ، ولم تنجه من سخريتهم وأذاهم ولطمهم ولكمهم . لكن رقته لم تؤد به الى ضعف ابائه وأنفته ولم تجعل منه ذلك الطفل المستذل الذى يخضع لسلطان الأقوى ويأتمر بأمره . بل كان يقارضهم سخرية بسخرية واحتقارا باحتقار . وكان يدفع عدوان أيديهم عليه بعدوان مثله ، وان يك عدوانا متفقا مع هذه الأنوثة فى تكوينه . عدوان عض بالأسنان وهبش بالأظافر بدل اللكم بقبضة اليد مما كان يتورم له وجهه أحيانا . وهو لذلك لم يكن يباديهم العدوان ولا يتحكك بهم . بل كان يتركهم فى ألعابهم ورياضتهم العنيفة ليأخذ هو كتبا محببة اليه مما وضع كتاب الثورة فى فرنسا وأنصارهم فى انكلترا ومما وضع جماعة اليونان الأقدمين ، ثم ينطلق بها بين الأحراش والغياض حتى يصل الى حافة النهر حيث يجلس فينسى نفسه فى المتاع بما فى كتبه وبمشهد هذه الطبيعة الساحرة حوله وبتأمله اياها والتفكير فيها . ولعل أشد ما تأثر به من قراءاته كتاب وليم جودوين : (العدل السياسى) . وكان وليم جودوين من أشد كتاب ذلك العصر تأثرا بمبادىء

الثورة الفرنسية ودعوتها الى الحرية المطلقة فى التفكير ، وما ترتب على هذه الدعوة من خروج على طائفة رجال الدين وتعاليمهم ومن المبالغة فى ذلك الى انكار الدين نفسه • على أن جودوين يختلف مع كتاب الثورة الفرنسية ورجالها أشد الاختلاف فيما يتعلق بوسائل تحقيق الاصلاح الذى يريد ادخاله على النظم وعلى قواعد الجمعية • فكان يرى العقل والمنطق وحدهما وسيلة الاصلاح ، وكان ينفر أشد النفور ويطعن مر الطعن على الالتجاء للعنف ولوسائل القوة وضروب القسوة • ودفعه تفكيره الحر هذا الى انكار أكثر القواعد التى تقوم عليها جمعية عصره • دفعه الى انكار الملك الخاص الا بمقدار حاجة الشخص له والطعن لذلك على الثروات الواسعة • ودفعه الى انكار الزواج على أنه نظام ، لأنه مناط فكرة الملك الخاص • وانتهى من تفكيره الى وجوب اقامة الجمعية على أساس من العقل وحده ، والى القول بأن هذه الأسس لو وضعت على صورة صحيحة زال ما يشكو منه الناس من بؤس وشقاء وجريمة ، وأضحت العقوبة وصمة فى جبين الانسانية • ولذلك كان لا يكفيه أن يطلب الغاء عقوبة الاعدام ، بل كان يطلب الغاء العقوبات جميعا •

فى هذه المبادىء التى وضعها جودوين كثير سبقه اليه روسو وتأثر به أهل فرنسا ورجال الثورة فيها • على أن المبالغة هى التى أدت بهم لينكروا حتى الدين الطبيعى الذى دعا روسو اليه • وليجعلوا الالحاد وسيلتهم الى حرية الفكر • ولعلك ان التمست تفسيرا لهذا وجدته فى تشبث رجال الدين يومئذ بسلطانهم تشبثا كان يزداد كلما شعروا بسلطتهم معرضة للنقص ثم الاضمحلال •

على أن واحدا من هؤلاء الذين دفعهم تعصب رجال الدين للمجاهرة بالالحاد لم يلبث أن عاد الى نوع من الايمان فيه جمال وله جلال ، ودعا اليه عن يقين واقتناع لم يكن لرجال الدين حظ منها • ولقد تأثر شلى فى الأيام الأولى من شبابه الى أبعد مدى بكتاب جدوين ورأى فى نظم الجمعية السياسية والاجتماعية والدينية مالا يتفق مع حكم العقل ، واقتنع بأن مرجع هذا كله الى تشبث رجال الدين بأن يخلعوا على كل دقيقة وجليلة من نظام الجمعية ثوبا من القداسة يحول دون التفكير فى معالجة أو ادخال أى اصلاح عليه • أليس نظام الزواج قد طبع بميسم الدين ؟ أليست عروش الملوك أحيطت بسياج من القداسة الدينية ؟ أليس التملك والتوارث وكل ما هو من شؤون هذا العالم الدائم التغير والتطور قد سبك فى قوالب الدين التى يقولون انها لا تقبل التغير ولا التطور ؟ • لذلك مال شلى الى ناحية الانكار على أنه الوسيلة لكل اصلاح ما دام الانكار هو الوسيلة الوحيدة للحرية فى التفكير والشعور والالهام والايمان •

الى جانب هاته المطالعات التى كانت تثير سخرية أبناء ايتون من شلى كانت طبيعة الحساسية الفياضة بالشعر وبما يلهم الشعر من تعلق بما وراء الطبيعة تدفعه الى دراسات أخرى جعلت زملاءه فى المدرسة يطلقون عليه لقب (المجنون شلى) • فقد كان يعنى بالسحر والسيمياء ويعتقد فى الجن والأطياف ويرى فى الهواء والماء شياطين وآلهة كانت تحيا فى خياله وتصبح ذات كيان ووجود ، لكثرة مطالعاته فى أساطير اليونان وتاريخهم • واتجه عقله متأثرا بهذه الناحية من نواحى طبيعته يلتمس أسرار العلم ويريد أن

يكشف عن مخبوء قوى الكهرباء والضوء . ولذلك كان شديد الولع بأن يكون لديه معمل كيموى صغير يرضى طلعته العلميـة والسحرية . على أنه كان كلما ازدادت فى هذا الباب بحوثه ثبت لدى زملائه جنونه ، فلم يستمع له أحد قولا ولم يرض أحد عن نظرياته الجريئة فى الحياة وفى الحب وفى الاصلاح الذى أولع هو به بعد الذى أفاد من مطالعاته . بل كانت كل محاولة من جانبه لاقناعهم برأيه مثارة احتكاك بينهم وبينه وسببا للكمه ولطمه .

وزاده تحديهم ايمانا بضرورة اصلاح الجماعة وتغيير أسس نظامها ومقومات حياتها . لكنهم لم يكونوا يسمعون لما يريد أن يقوله لهم فى هذا برغم أنه لم يفكر فى كراهيتهم بسبب ما يصل اليه من أذاهم وان كان دائم التفكير فى اصلاحهم ، برا بالانسانية وعطفا عليها . فلما لم يجد منهم سميعا جعل من أخواته البنات ومن ابنة عمه هاريت جروف تلميذاته فى أجازاته المدرسية يلقى عليهن تعاليمه ويطالعهن برسالته . ولقد كن بطبيعة الحال ألين من زملاء المدرسة عريكة وأسلس قيادا . وكانت اليزابث كبرى أخواته أشدهن ايمانا به وتقديسا له واعجابا بكل ما يقوله . هو يرى الشر فى الملوك والأغنياء والقسس ، ويرى الخير عند البؤساء والفلاسفة. اذا فالخير عند هؤلاء والشر فى أولئك . وهو يرى الزواج نظاما تعسا ، وانما يجب أن تقوم صلات الرجل والمرأة على أساس من الحب المقدس ، فالزواج اذاً نظام تعس . وكم كانت شـاعريته الوليدة تخلع على صور الحب التى يقصها أمام الفتاتين من باهر الألوان ما يسحرهما عن كل ما سوى الحب مما يقوله ويجعلهما تؤمنان به من غير بحث فيه . أليستا يافعتين تتقدمان الى الصبا

ويبدأ فى دمهما مسرى رغباته ؟ والحب عنوان هـذه الرغبات وطليعتها . وشلى شاب جميل حلو الحديث عذب النفس ، له من نوازع الصبا ما لهما ويطير على أجنحة الحب مطارهما . ولئن كانت ابنة عمه هاريت ترى فى حديثه عن الزواج واعتراضه عليه تجديدا لا تميل اليه نفس الأنثى الحريصة على أن تجد من الجمعية كل حماية وعناية ، فلعل الحب الوليد الذى ينشأ بينها وبين شلى يكفل من بعد اعتداله ويدفعه ليعدل عن أوهام الاصلاح فى نظام الأسرة المقدس على الزمان . وان هو لم يعدل من بعد فهى ما تزال بعيدة عن التفكير فى الزواج وفى الارتباط به أو بغيره . يكفيها اليوم أن تخرج معه ومع أخته ، وأن تسمع لعذب حديثه وحلو ترنمه ، وأن ترى فى نظراته وابتساماته لها ما يسليها عن نظرات يجمل بها أن تعتنقها لتزيده بها تعلقا ولها ابتساما . وكانت اليزابث تشعر فى بعض الأحايين أن قد طال بها المقام وأن قد سمعت من نظريات أخيها واستمتعت من عطفه بما يكفيها بقية يومها فتذره وابنة عمها وحيدين يتبادلان نجوى الهوى وحلو حديث الغرام . ثم يعودان متخاصرين يسرى الى جسم كل منهما دفء جسم صاحبه .

وكانت أيام أجازته المدرسية تنقضى فى هذه السعادة الكاملة ، فهو يدعو الى مذهبه فتاتين بديعتى التكوين والفتاتان تؤمنان به وتبادلانه حبا خالصا : حب أخت ترى فى أخيها نبوغا تفخر به ويزيدها حبا له ، وحب فتاة تصبو الى ما يدفع الحب اليه كل فتاة وفتى من تخليد الحياة فى أجيال وأجيال ، على أن يكون تخليدا ترضاه الجماعة وترعاه . فاذا انقضت الأجازة عاد الى ايتون مترفعا عن الســاخرين منه مكبا على قراءاته وبحوثه العلمية والسيمية

منتظرا يوما يعود فيه الى تلميذتيه يحدثهما من جديد عن مذهب جودوين ويتحدث اليهما عما نكب به رجال الدين الجاعة من أسس فاسدة .

وأتم دراساته بايتون وذهب به أبوه فى اكتوبر سنة ١٨١٠ فألحقه باكسفورد . وفيها تعرف الى شاب من أمثاله اسمه جفرسون هوج دهش بعد قليل من تعارفهما لكثرة مطالعات صاحبه ولعنايته عناية خاصة بالعلوم والميكانيكا . وقد زادته هذه العناية دهشة حين رأى فى غرفة شلى من الأنابيب والزجاجات ومولدات الكهرباء ما جعلها معملا عجيبا . لكن هـذه العناية لم تكن لتصرفه عن مراجعة هيوم ولوك وفولتير وهولباخ وعن مداومة الدراسة فى كتاب جودوين . وكان من دواعى عجب هوج أن يكون لهؤلاء المتشككة كل ما كان لهم من سلطان على ذهن صاحبه المتجه بطبعه الى ناحية التأملات الروحية . لكن عجبه هذا لم يمنع اعجابه بشلى الذى كان يخرج معه كل صباح يجوبان الاحراش فينطلق شلى مرحا يجرى وينط ويلقى بنفسه مقتحما الماء اذا هو صادفته بحيرة من البحيرات ليعود بعد رياضته هذه الى علمه والى تأملاته ، ويعود كذلك الى كتابة القصص والنشرات . فلقد بدأ مع ابنة عمه ومع أخته قصة زاستروزى . وها هو ذا يكتب قصة أخرى يجعل عنوانا لها (القديسة ارفينى) يروى فيها شيئا من تفكيراته . ثم ها هو ذا كذلك يضع نشرة يجعل عنوانها (الحاجة الى الالحاد) ويوقعها باسم جروميا ستكلى ويعمل لنشرها فى كل مكان لينتهى بسبب ذلك الى طرده من اكسفورد والى هجره بيت أبيه والى ما كان بعد ذلك من حياته المشردة .

وكان فى وسعه أن يتوقع ما ترتب على هذه النشرة من نتائج ، بل لعله توقعها ولم يحفل بها ، أو لعل الدافع الذى أدى به لكتابة هذه النشرة لم يكن مما يمكن دفعه أو مقاومته . فقد بعث الناشر ستكديل الى مستر تموذى شلى خطابا يخبره فيه بأن ابنه بعث له بقصة القديسة أرفينى وأن فيهـا من الآراء مالا يسيغه الجمهور وما يبعث الناس على القيامة ضده . فكتب مستر تموذى للناشر بأنه غير مستعد أن يدفع له شيئا من نفقات الطبع والنشر . وانتظر حضور ابنه فى أجازة عيـد الميلاد ، فلما حضر ألفى الجو حوله متجهما وألفى النـاس من أهل هذه البلاد يتهامسون بالحـاده ويزورون عنه وينأون بجانبهم ، وتحدث اليه أبوه ساعيا أن يقنعه من طريق المناقشة فاذا برسى أقوى منه حجة وأسطع برهانا ، واذا الأب يقنع آخر الأمر بأن يقول له فى غضب : انى أومن لأنى أومن . على أن غضب مستر تموذى وتهامس الناس وانصرافهم عن شلى لم يؤثر فى نفسه ولا دعاه الى التفكير فى أمرهم . لكن ما أثر فى نفسه وبلغ منها وأثار حزنها ما كان من ابنة عمه هاريت ، فهو لم يكن يشك فى عمق ما بينهما من حب عمقا وصل الى شغاف القلب ، فليس يستطيع أمر من أمور الحياة أن يغير أحدهما على صاحبه أو أن يعدل بهما عما تفاهمت نظراتهما عليه من تقاسم الحياة والاشتراك فى ورد ما فيها من جمال وسعادة . لكنه ما لبث بعد عودته أن تحدث الى أخته اليزابث ، التى ظلت وحدها صادقة الود له ، وسألها عن هاريت وشأنها حتى تولاه الجزع حين سمع منها أنها انصرفت عنه كما انصرف عنه غيرها ، وأن حبها تطايرت جذوته حين علمت أن أهلها والمحيطين بها لا يرون زواجها من هذا الذى

جنت به من قبل وجن بها . وعبثا ذهب شلى وقابل هاريت وحاول اقناعها ، فقد ألفاها أشد حرصا على المتاع بنعيم الجمعية من ملبس وحلى ورقص ، منها على الأفكار التى يسبح هو فى سماواتها متوهما أنه يسعد العالم باقناعه بها . وألفاها أشد حرصا على علاقاتها بأبويها علاقة اطمأنت لها منذ مولدها منها على صلتها بشاب لاتدرى ما عسى أن يكون المستقبل معه .

تولى شلى الجزع ، فكتب باكيا ثائرا الى صديقه هوج خطابا يذكر له فيه أنها لم تبق له وأنها انقلبت تكرهه لأنه متشكك كما كانت هى من قبل متأثرة بتعاليمه ، ويعلن ثورته على التعصب ويقسم أنه لن يعفو عنه ، ويعلن أنه ، وان لم يكن يقر الانتقام فهو يرى الانتقام من التعصب عدلا بل واجبا ، وأنه سيكرس كل لحظة من حياته لمحاربته ، لأن التعصب هو الذى يهدم الجمعية ويشجع العقائد الفاسدة التى تحطم أقدس الصلات وأرقها وأعزها . وله عن ثورته هذه العذر ، أنه لم يكن يتوقع أن تحطم تعاليم الدين أشرف عاطفة وأسماها ، وأن تستل من بين الجوانح حبا قائما على التفاهم وحسن ادراك الحياة والتوجه الى ما فيها من جمال لعبادته والتسبيح بحمده . وكيف كان له أن يتوقع هذا وقد كان يرى فى الحب عاطفة قدسية تسمو بالنفس الى ما فوق منافع الحياة ومطامعها وتحلق بها فى أجواء أثيرية تشهد منها بدائع هذا الخلق جميعا متجليا فيما يقع عليه الحس من صور جماله . والحق أن الحب عند شلى كان له معنى أسمى بكثير من معناه عند غيره . هو لم يكن يرى فيه مجرد رابطة نفعية وشركة للتعاون على حمل عبء الحياة ، بل كان يريده امتزاجا روحيا لاستشفاف ما حولنا من

جمال هو مصدر الحياة ، وشركة فى حب هذا الجمال فى متباين صوره ومختلف ألوانه . ولعل أجمل ما يستطيع انسان أن يعبر به عن هذا المعنى ما عبر هو به فى قصيدته (آبيسيشديون) حيث يقول ما ترجمته : « لم أتصل قط يوما بهذه الطائفة الكبيرة التى يوجب مذهبها على الفرد أن يختار من بين الجماعة كلها رفيقة أو صديقا وأن يلقى بالباقين ، وان يك لهم ما لهم من جمال وحكمة ، فى جمود النسيان ... فالحب الصادق يختلف عن الذهب والتراب فى أنك كلما شاطرتهما أخذت منهما وأنقصتهما ، على حين هو يشترك مع الفهم الذى يزداد بريقا كلما ازدادت الحقائق التى ينبعث نظره اليها ، وهو كالخيال يستمد نوره من الأرض والسماء ومن أعماق أهواء الانسان ومن ألف مرآة وألف ضلع ، ثم يملأ الوجود بالأشعة الباهرة يقتل بها جرثومة الخطأ بما يسلط عليها ضياؤه من سهام كأنها أشعة الشمس . وياضيق قلب ينحصر حبه ، وعقل يقف تفكيره ، وحياة تنتهى غايتها ، وذهن يقف خلقه عند شىء واحد ، وصورة واحدة ، يبنى لذلك بها قبر خلده » .

اذا فالدين والعقيدة الاجتماعية والنظام الذى يحصرنا فى دائرة هذا الحب الواحد والتفكير الواحد والغاية الواحدة والخلق الواحد، يبنى لنا قبر خلدنا ، وهو لذلك يفسد أمر الجماعة ويقضى على خير ما فيها من عواطف وأسمى ما فيها من الهام . فعلى الذين أوتوا ما أوتى شلى من هبة أن يقوموا فى وجه هذا الضيق فى القلب والعقل والذهن وأن يصلوها من حربهم نارا حامية .

وعاد شلى الى اكسفورد كئيب النفس حزين الفؤاد ثائر القلب والعقل معتزما أن يشن الغارة على التعصب وأن يفسح الطريق

للتسامح والحب والمغفرة والجمال . وكان أول ما صنع من هذا أن أذاع نشرته (الحاجة الى الالحاد) موقعا اياها باسم غير اسمه وموزعا لها على كل من ضيق التعصب دائرة قلبه وعقله . فقد بعث بها الى رجال الدين والى المعلمين والى المشتغلين بالسياسة ، ثم عرضها فى مكتبة باكسفورد لم تلبث أن اعتذرت عن عرضها لأول ما احتج أحد رجال أهل الدين عليها . وقد افتتح هذه الرسالة بقوله « الحس أساس كل معرفة » ، وسار فيها بلهجة ملتهبة يطعن كل قيود الدين ويحطمها . وأبلغت الجامعة أن شلى هو ناشرها ، فسألته ، فأبى أن يجيب ، فقررت فصله . واحتج صديقه هوج على هذا التصرف من ادارة اكسفورد ، فتقرر فصله هو أيضا !! وترك الصديقان الجامعة عائدين الى لندن منتظرين فيها تطور الحوادث وتصاريف الزمن ، مكتفيين فيها بغرفة اعتبرها شلى مأواهما الأخير .

ولما علم مستر تموذى شلى بفصل ابنه من اكسفورد ثار ثائره واستشاط غيظا وبعث له برسالة يخبره فيها أنه لن يمده بمعونة أو مدد الا اذا هو رجع الى فيلدبليس وتلقى فيها الدروس على من يختارهم هو له من الاساتذة . فرد شلى على أبيه يرفض ، فى أدب ، شروطه . ولم يقنع الأب بهذا الرفض فذهب الى لندن وقابل بروسى وصاحبه هوج وحاول اقناعهما بالحجة ليعدل شلى عما كتب فى رسالته عن الالحاد . ومع ما سلكه من طرق التلطف والمجاملة فقد لقى فى ابنه صخرة لا تتزحزح وألفى فيه اباء وقوة عزيمة لم يستطع التغلب عليهما ، فتركه عائدا الى فيلدبليس من غير أن يعطيه درهما ، ولعله كان يرجو أن تضطر الحاجة الابن الى أبيه فينتهى الى الاذعان . أو لعله كان أشد حرصا على سمعته منه على فتاه . وعلى

أى الحالين فقد ظل شلى مصرا على رأيه مرتفعا عن أن ينزل عنه مستخفا بما يتهدده من ضيق ذات اليد ، فما كان المال ليوازى عنده يوما شيئا اذا هو تعارض مع ايمانه برأيه • وبقى معه هوج أياما فى لندن ثم غادرها اطاعة لأبيه الذى ألحقه بمكتب محام يتعلم الحقوق فيه • وأقام شلى من بعده فى العاصمة الانجليزية وحيدا ليواجه الحياة وزعازعها وليستعد لنضال الجمعية التى اضطرته الى عزلته ، مؤمنا بأنه سينتهى الى الظفر بها والتغلب عليها •

— ٢ —

أقام شلى فى العاصمة الانجليزية وهو أقل تألما لاختلافه مع أبيه ولمغادرته الجامعة وانقطاعه عن الدراسة المنتظمة منه لتنكر ابنة عمه هاريت جروف له وازدرائها حبه وانفصالها عنه • لذلك كان أكثر تفكيرا فى هذا الحب المحطم منه فيما يقيم به أود حياته • وفيم عسى يفكر من شؤون العيش وقد كان قانعا بما دون الكفاف حتى لتكفيه بضعة بنسات طعام يومه • فأما هاته التى عقت الحب وعقت آراء جدوين وعقت المبادىء السامية جميعا ، فهى اللغز الذى يوجب العناية ، وهى الداء الذى يتطلب للبرء منه علاجا حاسما •

وأكب يقلب هذه المسألة على مختلف وجوهها حتى خيل اليه يوما أنه عثر فى حجة منطقية على الدواء الناجع لها والحل الصريح للغزها • هو لم يكن يحب من هاريت جسمها ولا كان يقف اعجابه عند جمالها • بل لئن أعجب بحسنها على أنه بعض صور الجمال الذى زينت به الطبيعة الوجود ، فانما كان حبه منصبا كله على سمو ذهنها لادراك نظرياته ونظريات جدوين فى الحياة ونظامها والتسامح وضرورته والحرية وتقديسها والجمال وعبادته • وهذا هو ذهنها

قد فتر عن ادراك ذلك كله وهبط الى مستوى الأذهان العامة وأصبح شيئا آخر غير جدير بأى حب أو تقدير . فماذا بقى بعد ذلك منها جديرا بالحب أو دافعا للتشبث بها والحرص عليها ؟ أو لو عشق انسان فى فتاة جمالها تراه عاشقا الدود الذى يحول اليه جسمها بعد انتقالها الى قبرها !. وقد دفن من هاريت ذلك الذهن الوضاء المرتفع الى مراقى ذروة التفكير والذى اتصل من قبل بذهن شلى وروحه ، وقد اندست الى قبره ديدان الأوهام والأباطيل . فلينس شلى هذه العاقة اذا وليسلكها فى سلك البائسات الحقيقات بعطفه ورحمته .. لكن ..! لكن هذه الحجة القاطعة التى أرضت عقل شلى لم تطفىء فى قلبه جذوة زادها عقوق البائسة ضراما . ولعل مرجع السبب فى هذا الى غدر هاريت لما كان يرجو فى صحبتها من تعاون على محاربة الأوهام المفسدة المندسة الى نفس الجماعة أكثر مما يرجع الى شىء آخر . فالصحيح أنه لم تكن بينه وبينها صلة حب على نحو ما يفهم هو الحب . ولذلك لم يطل فى قلبه لاعج الهم ولا ظلت جذوته مستعرة الا ريثما وجد فى هاريت أخرى ، لا تقل عن الأولى جمالا ولا ذكاء ، ذلك الاستعداد للسمو معه فى سماوات الجمال والالحاد والتسامح وكل ما دعا كتاب الثورة الفرنسية وتابعهم جدوين فى الدعوة اليه .

فلقد كانت أخواته البنات يتعلمن فى مدرسة للبنات بحى كلابهام ، وكانت رشيدتهن هلن شلى تتناول من أختها الكبرى اليزابث رسائل تبعث فيها بما لديها من نقد كى تعطيه هلن لبرسى لتعوضه بعض الشىء عن اهمال أبيه اياه . وكان برسى يذهب الى مدرسة البنات هذه يحمل بعض الهدايا لأخواته لأنه كان يأبى أن

يستأثر بما تبعث به اليه أخته • وما لبث أن تعرف الى بنات المدرسة حتى بدأ يفكر فى اقناعهن برأيه وحملهن على اعتناق نظرياته ومبادئه • وكانت هاريت وستبروك من أكثر أولئك الفتيات رقة وأحلاهن ابتسامة وأغردهن صوتا ، وكان جمالها يضىء مزدانا بشعرها الذهبى وخدودها المتوردة وشبابها الضاحك الى ورود ربيعه ، وكانت ، على أنها فى السادسة عشرة من عمرها ، صغيرة القد طفلة النظرة يفيض المرح من وجودها كله ويضوع منها سرور طرب يجعل كل ما حولها طروبا ضحوكا • وقد أتقنت القراءة والالقاء فزادت عذوبة صوتها وتغريده حياة وروحا • وعنى أبوها مستر وليم وستبروك بأن يجعل منها ضريبة لبنات النبلاء ليجزى الحظ بذلك عما كان هو مفتتح حياته حين كان يعمل فى الفنادق • لذلك كانت شديدة الحرص على الاتصال ببنات النبلاء زميلاتها فى المدرسة ، وكانت أشد بأخوات شلى اتصالا • فلما رأت الشاب النبيل الجيل برسى يتردد على أخواته وقع من نفسها وتوددت اليه وأظهرت أساها لالحاده وحاولت أن تصده عنه وأن تقنعه بمثل ايمانها وايمان الجمعية كلها • لكنها ما لبثت أن اتصلت به حتى تأثرت بروحه وحتى رأت فيما يدعو اليه بهاء وجمالا لا شىء مثلهما أو يقاربهما فى تعاليم الكنيسة ورجال الدين • فالحرية الأثيرية الأجنحة الطائرة فى فضاء طلق تسبح معه فى جمال الوجود ناهلة ورد كل ما فيه من صور هذا الجمال الذى يحمل اليها شذى الحب وعبقه فيملأ بهما قلب المستمتع بنعيمها من غير أن يثقله بقيد من زواج أو من تملك أو توارث ، ومن غير أن يرهقه بالقوانين أو التكاليف ، هذه صورة جذابة ليس لها فيما حفظت من تعاليم الدين نظير ، الا أن يكون ذلك

فى العالم الآخر وبعد انتقالنا من هاته الحياة التى نحسها و نلمسها . ولو أننا تابعنا شلى لاستطعنا أن ننعم بها فى الحياة نعيم المؤمنين بها بعد الموت . فما لهذا العصفور الجميل هاريت والتفكير فى الموت ، وما لها واكراه خيالها على اقتحام صورة الموت المرعبة الى ما بعدها لترى ما يخيلون لها من نعيم وهناء وجمال ؟ ما لهذا العصفور وهذا الاجهاد مادام رسول الجمـال والحب شلى يضع له الجنة فى يديه ، جنة لا تقف حدودها عندما يزين من تعاليم ويصقل من صور وآراء ، بل تبدو حقيقة ملموسة فى جمال صورته ، وفى نبله وثروته الواسعة وعذوبة نفسه وطيبة قلبه وحبه الانسانية كلها حبا جما ؟ أوليس خيرا لها أن ترفعها هذه الأيدى الرقيقة الحنون ، أيدى شلى ، الى جنات الحب ونعيمه ، من أن ينشب الفناء فيها أظافره السوداء لينقلها بعد ذلك الى جنات النعيم ؟ لذلك ما لبثت أن آمنت بكل ما يقول وأن أصبحت مثله تلميذة لجدوين ولمن أخذ عنهم جدوين حتى أفلاطون ، وأصبحت لا تجد سعادة فى لحظة أكثر من تلك التى ترى فيها شلى فى المدرسة أو التى تذهب له فيها ببيته فى شارع بولونيا تحمل اليه ما تعطيها أخته هلن من مال . فقد كانت هلن تبيت بالمدرسة ولا تستطيع الخروج منها فى حين كانت هاريت تذهب كل يوم الى بيت أبيها فتجد الفرصة للمرور بصديقها ووليها وأستاذها ومحبوبها .

وكان لها ريت أخت متقدمة فى السن الى ما فوق الثلاثين اسمها اليزا ، تقوم منها مقام أمها المتوفاة . وقد سرها ما عرفت من صلة هاريت بشلى ، كما سر بذلك أبوها واعتبره خطوة أولى يرقى بها الى مصاف النبلاء . لذلك لم يسؤه يوما مرضت فيه هاريت أن

دعت اليزا شلى الى مخدع نوم أختها وأن جلس عند أقدامها الى ما بعد منتصف الليل • وكان من أثر جلوسه اليها أن برئت من مرضها وأن عادت اليوم التالى الى صحتها والى تغريدها وأن تزايد من بعد ذلك وجدها به حتى صار هياما وتدلها • لكن شلى لم يكن ينظر اليها نظرتها اليه • بل كان يرى فيها حياة الروح وسمو الذهن الى الاقتناع بآرائه ومبادئه مما يعزيه عن روح ابنة عمه هاريت جروف التى دفنت فى قبر الأباطيل ونخر فيها سوس الأوهام • كان يرى فيها ضياء جديدا غير هذا النور الذى خبا ، وشريكة فيما يسميه هو الالحاد فى حين هو الايمان بالعدل والحق والجمال • واذا هى لم تكن من طائفة النبلاء فلعل فى تحريرها من قيود هذه الطائفة ما يكفل بقاءها على عقيدتها الجديدة وثباتها فى ايمانها الذى أوحاه هو اليها • وما أجمله ايمانا يتحلى به رأس جميل كله الحياة وكله المحبة وكله العواطف المتأججة •

واطمأنت نفس شلى الى تلميذته والى الحياة وعاوده الرجاء فى صلاح الانسانية كلها ، وان كانت هذه الصلة قد أدت الى فصلها من المدرسة كما فصل هو من اكسفورد من قبل • وزادته طمأنينته هذه شوقا الى أخته اليزابث أشد من عرف من تلاميذه ايمانا به وحبا له • وفيما كان يفكر فى الطريقة التى يعود بها الى فيلد بلاس مر خاله الكبتن بلفلد بلندن وتقابل واياه • وكان الكبتن رجلا كثير التجوال فى مختلف أنحاء العالم ، فكان لذلك واسع الصدر متسامحا لا يطيق أن يفهم كيف يؤدى اختلاف أب وابنه فى الرأى الى تعصب الأب وتصميمه على أن يميت ابنه جوعا • فأخذ شلى معه الى داره بككفلد ليعيد الصلة المقطوعة وليكفل

للابن عيشه . وكانت فى ككفلد مربية هى مس هتشنر رومانية الجمال تتخطى فى طمأنينة الى الثلاثين من عمرها وتدين بالمبادىء الحرة ولكنها تؤمن بالله . فأخذ الشاب نفسه بأن يشفيها مما سماه « هذا المرض » وقبلت هى أن تتلمذ له ، مدفوعة أغلب الأمر بسحر جماله وعذوبة روحه أكثر من اقتناعها بآرائه ومبادئه . واستعان الكبتن بلفولد الدوق نورفلك على التوفيق بين شلى وأبيه . فلم يحتج المستر نموذى لأكثر من كلمة الدوق كى يعود برسى الى أهله وكى يرى أخته اليزابث . وارتضى الأب أن يرتب لابنه مائتى جنيه سنويا لا يقيدها شرط ولا يؤثر ترتيبها فى حرية شلى بأية صورة من الصور .

ولقد فاضت السعادة بشلى أثناء سيره من بيت خاله لبيت أبيه لغير شىء الا اطفاء شوقه لأليزابث . لكنه لم يلبث الا قليلا بعد ما رآها حتى بهت وعلاه الذهول : هل هذه هى اليزابث التى يعرفها ؟ لقد كانت تؤمن بايمانه وتدين بمبادئه . وكانت عونه على هاريت جروف حين تنكرت له وعقت مبادئه وعادت الى مثل أوهام العامة وعقائدها . فكيف بها هى الأخرى تفعل فعلة هاريت وتثور به وبمبادئه وتجعل كل همها أن تجيل الطرف فيمن حولها من الشبان وأكبر رجائها أن تجد منهم زوجا صالحا ؟ أفترى أولئك الفتيات وبنات جنسهن جميعا ضعيفات غاية الضعف متى تحركت الأمومة فى أحشائهن حتى ينزلن خاضعات لسلطانها عن كل شخصيتهن ، ويتجهن بوجودهن كله تلبية لرغبات هذه الغريزة فيهن باحثات فى أقرب ما يجاورهن عن مستقبل وادع مطمئن للنسل الذى تحمل أرحامهن ؟ وهل ينسين ساعة بحثهن هذا كل ما يسمو اليه الحب

من معان وما يطمئن المحب اليه راضيا من تضحيات فى سبيل تحقيق هذه المعانى ؟ ألا تعسا لنظام الجمعية الزائف القائم على الكذب والوهم المدعم بالقسوة والدماء ! فهو الذى يقضى على أذهان بنات حواء هذا القضاء القاسى .

وعبثا حاول شلى أن يعيد اليزابث الى حظيرته العليا وأن يردها كى تفسر النفس على صور من السمو لا يطيقها الا الموهوبون الذين أرسلتهم الأقدار للرقى بالانسانية درجات جديدة فى سبيل الكمال ، وجعلت من جهادهم فى سبيل رسالتهم لذة عيشهم وسعادة حياتهم . لقد ذاقت الفتاة ما تقدمه الجمعية من صنوف المتاع وما تقتضى ثمنه اذعان بنيها للنطاق الذى ترى فيه الحفيظ على كيانها . لقد ذاقت هذا المتاع المادى القريب الى متناول اليد ، وهاهى ذى ترى فى الأمومة صورا أخرى من المتاع لا سبيل لها الى نيلها الا الاندماج فى قطيع الجماعة وتقديس أوهامه وترهاته . أفتنأى بجانبها عن هذا المتاع لتقف من الجماعة موقف أخيها ، وتنظر العيون اليها شزرا ، وليسم القانون متابعتها عواطف قلبها عهرا ؟! كلا ! ولئن كان شلى أخا صادق الأخوة ، فأول واجبه أن يبحث لأخته عن زوج نبيل غنى جميل تستكمل به كل ما فى مادة الحياة من متاع وتؤدى به للأمومة واجبها .

ويئس شلى من أخته كما يئس من قبل من ابنة عمه ، فلم تبق له لذة فى مقامه بين أهله . وجاءته دعوة من هوج كى يذهب اليه فى يورك ، وأخرى من فتاتى وستبروك ، وثالثة من خاله الكبتن بلفلد ، ولكنه تردد فى قبولها جميعا ثم فضل عليها دعوة أحد أقاربه الى بلاد الغال على شاطىء البحر ، آملا أن يجد من جمال

طبيعة تلك البلاد ومن تلاطم الموج والصخر ما يسكن ثورة نفسه وما يبعث الى قلبه السلوان عن مصابه فى ذهن أخته . وفى مقره الجديد نصب نفسه رسولا يدعو الى الحرية والحق والتسامح ، فى رسائل كانت تستنفد أكثر وقته يكتبها الى هاريت وستبروك والى مس هتشنر والى هوج والى غير هؤلاء ممن يأنس فيهم ميلا الى الرقى نحو الكمال . ولم يطل به المقام فى عزلته الجميلة حتى تسلم رسالة من هاريت تذكر له فيها أن أباها يريد أن يعود بها الى المدرسة التى فصلت منها ويطلب اليها أن تنكر تعاليم شلى كى ترضى ناظرة المدرسة عن رجوعها ، وأنها اعتزمت أن تنتحر كى لا تلبى ما يريدونها عليه . فرد شلى عليها يسكن من روعها وبعث الى أبيها يلومه لما يحاول من اكراه الفتاة عليه . وغضب أبوها لتصرف هذا الشاب الذى كان راضيا من قبل عنه مغضيا عن تعاليمه حين كان يحسب أنه سيتزوج ابنته ثم اذا به كغيره من أبناء النبلاء يغرون الجميلات من بنات الطبقات الأخرى ثم ينأون عنهن ازدراء لمنبتهن . ولم تطاوع هاريت أباها على أن يكون ذلك شأن شلى ، فكتبت اليه من جديد تشكو ، وذكرت له أنها ، متأثرة بخطابه ، عدلت عن فكرة الانتحار ، ولكنها تريد الفرار معه . فترك الغال ، حين تسلم رسالتها ، وذهب الى لندرة كى يحاول اقناع أبيها بأن لا حق له فى اكراه ابنته على غير ما تريد ، آملا أن تبقى الفتاة فى رعاية مستر وستبروك مع بقائها مؤمنة بالحياة الجديدة التى اختار هو لها سبيلها . فلما رأته الفتاة تعلقت به وألحت عليه كى يفرا معا ليقيما حيث يشاء . وحاول هو أن يردها عن رأيها فكان جوابها : لكنى أحبك ولا صبر لى على بعدك .

هنا وجم شلى ، وزاده وجوما اللهجة الصادقة القوية الملتهبة التى اعترفت الفتاة فيها بحبها اياه . لكنه هو لم يحبب منها عذوبة صوتها ولا جمال تكوينها وانما أحب منها سمو ذهنها وجمال روحها ! على أنه اهتز مع هذا لاعترافها ، وشعر معه بسموها على ابنة عمه وعلى أخته . انها تحبه وتريد الفرار معه مزدرية أوهام الجماعة وعقائدها مستعدة للاشتراك معه فى نضالها لهدايتها واصلاحها . فلم يستطع فى تداول نفسه بين اهتزازها اعجابا بهذا الاعتراف ، وشعورها بأن ليس يشغلها هذا الحب الذى تريد الفتاة أن يبادلها مثله ، الا أن يملس على شعرها وأن يسكن من روعها وأن يعدها بصدق اخلاصه لها وأنه سيكون الى جوارها عند أول نداء يصله منها . وكفى الفتاة أن تسمع منه هذه الكلمة ليزول عن وجهها شحوب جاءته به أيمان أقسمها أبوها بأن شلى ضلل بها وأنه لا يحبها ، وليعود الى لونها تورده والى وجودها شبابه وفرحه .

وكتب شلى يقص على هوج ما حدث . فأجابه صديقه ناصحا اياه ألا يفر بالفتاة الا أن يتزوجها . واذا كان لا يؤمن بالزواج ويرى فيه نظاما تعسا ، فليس من حقه لذلك أن يشقى فتاة تحبه . فلن يصيبه هو من هذا الفرار خسارة ولن يناله منه أذى . أما هى فستكون ان لم تتزوجه منظورا اليها بعين الازدراء حيث سارت ، مغضوبا عليها من أبيها ، محرومة من عطفه ومعونته ، شاعرة لذلك بألم قد يجنى فى نفسها الطفلة على حبها اياه . فاذا كان شلى لينفذ مبادئه وتعاليمه ولينفصل حين ذلك عنها ، فماذا يكون أمرها وأيان يكون مصيرها ؟ أفلا يكون بهذا مسلما اياها للتعس والشقاء

وتكون التعاليم التى يريد بها سعادة الانسانية مؤدية بالفتاة الى البؤس والسقوط لغير ذنب الا أنها أحبته ؟ ..

وصدمت شلى قوة حجج صاحبه فتراجع أمامها وتردد فى وعده الفتاة أن يكون الى جانبها لأول ما تدعوه اليها . لكن الفتاة لم تمهله فى تردده بل بعثت اليه بعد أسبوع من تركه اياها تدعوه اليها . ولم تطل فى نفسه المعركة بين المبدأ والواجب . فذهب اليها مذعنا للواجب معتزما أن يفر بها وأن يتزوجها تاركا بين يدى القدر ما يؤول اليه أمرهما من بعد .

وغادرا عاصمة انكلترا قاصدين عاصمة ايقوسيا وقضيا فى سياحتهما أياما شعر شلى خلالها بحياة جديدة تسرى الى قلبه وعاطفة حلوة تتحرك بين جوانحه . لقد فر عصفوره معه طائرا عن العش الأبوى حبا له وغراما به ، فلم يك حديثها معه عن الحب هذا الحديث القديم يسموان فيه الى التفكير فى المعانى التى يريد هو أن يحيط الحب بها ، بل أصبح حديث غرامها هى وتدلهها ، وأصبح حديثا دلالة الألفاظ فيه دون دلالة النظرات والبسمات والقبلات . ها هى ذى تستيقظ الى جانبه فاذا عيونها اليه معسولة ندية النظرة كلها الشوق والهوى، واذا أذرعها تطوق عنقه وأصابعها تعبث بشعره وقدها الصغير يجتمع كل ما فيه من حياة صاعدا الى قلبها كى يبعث بها الى فمها فتطبعها على فمه قبلة فيها كل قلبها وكل حياتها وكل حبها . وها هى ذى النهار كله تشدو اليه بأغاريد حبها وهواها ، ثم هاهى ذى الليل تطوق ثغرها ابتسامة السعادة ويهفو الى أذنه تردادها لاسمه حين أحلامها بهنائها ونعيمها . لذلك لم يكادا يصلان الى أدنبرج ويختاران فيها مسكنا حتى أتم زواجه

منها وملكه اياها • وكذلك قضيا أياما نسى فيها شلى نفسه ورسالته واستسلم فيهـا بكله الى المتاع بحب هاريت حبا بعث الى كل ما يحيط بهما من بحر وشجر وجبل وزهر شذى جعلها تضوع بريح الحب هى الأخرى وتزداد على جمالها جمالا وسحرا •

ثم آن لشلى أن يعود الى تأملاته وتفكيره ، فاذا هاريت فى شـغل عنها بحبها له وعبادتها اياه • فان هى شاركت فيها كانت صدى له يرد اليه تأملاته هو فى صوت عذب وحديث حلو • لذلك ود شلى ، مع اطمئنانه لعزلتهما وسعادته بحبهما ، لو أن صديقه هوج كان معهما • وكأنما كانت الأقدار فى هذا طوع رجائه • فـلم تك الا أسـابيع بعد عودته الى التـأمل والتفكير حتى جـاء هوج فى أجـازة له يقضيها عند صـديقه • وقد بهرته روعة جمال هاريت الى حد كاد معه يمل حديث شـلى وبحوثه ونظرياته • وسر شلى بأن أتاحت له ضيافة هوج خروج هاريت معه للنزهة وتركه هو لقراءته وتأملاته • فلما آن لهوج أن يعود الى يورك اقترح عليهما أن يذهبا معه اليها • وسافر ثلاثتهم فلم يجد شلى فى يورك جمالا يغذى روحه المستعرة الظمأ للجمال • وزاده هما أن لم يصله من أبيه المال الذى اتفق على أن يبعث له به • فسافر الى ككفلد ليرى خاله الكبتن بلفلد وترك زوجه فى حماية صديقه الى أن يبعث اليها بأختها • ولم يملك هوج نفسه من أن يذكر لهاريت أنه يحبها • فصدته الفتاة عنها وقاومت هجوم هواه يوما واحدا ، أن حضرت أختها فى اليوم الثانى فحالت بينهما • ولما جاء شلى وأخبرته بخبر هوج لم يزد على أن لام صديقه على سوء صنيعه ، ثم غادر المنزل مسافرا ومعه زوجه وأختها اللتان

رأتا فى صنيع هوج ما لا يمكن معه احتمال مرآه • وعاد هوج من مكتب المحامى الذى يشتغل فى رعايته فألفى المنزل خلاء وان لم يخبره بالسفر أحد !! •

واختار شلى الذهاب الى منطقة البحيرات اذ كان يقطنها الشاعران الكبيران سوذى وكولردج • وكان شلى قد بدأ يقرض الشعر ، فهو يطمع فى مثل عظمتهما ويرجو أن يكون من شعراء منطقتهما • ولما كان دوق نورفلك يقيم كذلك فى هذه المنطقة ، وعلم بمجيء شلى اليها ، فقد كتب يدعوه وزوجته الى قصره • وهناك عرف صديقا لسوذى ذهب به الى بيت الشاعر الذى كان يحل من نفس شلى أسمى مكانة وأرفعها • لكن شلى لم يلبث أن تولته الدهشة حين ألفى زوجة سوذى أبعد ما تكون عن الهام الشعر وان كانت ربة دار مضربا للمثل • ولما دار بينه وبين سوذى الحديث ، بهت مما سمع • فسوذى ، هذا الشاعر الفحل ، يقول انه متدين وأنه مسيحى ! وهو يحب المال ويطمع فى كسبه ! وهو يعيش كما يعيش الناس ويفكر تفكيرهم ! أليس هذا عجبا ؟ ثم ماذا ؟ ثم عثر فى مجلة على مقال لسوذى يصف فيه ملك انكلترا بأنه خير ملك جلس على عرش • وعلم أن سوذى يقصد من هذا الى أن يخلع عليه الملك ألقابه • اذا فهو رجل يسخر ضميره لمطامعه ولا يرجو من الحياة الا ما يطفىء ظمأه لنعيم المادة • اذا هو لا يستحق احتراما ولا تقديرا • ليكن له من ملكة الشعر ماله ، فلن توحى ملكة أيا تكون باحترام صاحبها اذا نزل باخلاقه وبعمله فى الحياة الى المستوى الوضيع الذى لا يطمع الناس منه الا فى كاذب الجاه وفى اكتناز المال •

أما سوذى فعجب لأمر شلى وصلابته فى رأيه وان لم ير فى ثورته بالدين الا مرحلة من مراحل التفكير يمر بها الشباب الذكى جميعا ثم يعودون الى نوع من الايمان له روعته وجلاله . بل لقد كان شديد الاقتناع بأن سيكون ذلك شأن شلى ، لأن نفسه نفس شاعر ، ونفس الشاعر لا تطيق الالحاد وما يصور الالحاد من عدم . ولأن نفس الشـــاعر تخلق فلا تستطيع أن تنكر الخلق . ولأنها جميلة فلا معدى لها عن الايمان بالجمال . ومن يدرى أى مصير كان قد أعده القدر لايمان شلى لو أن منيته لم تعاجله فامتد به العمر حتى رأى من عبث الأقدار بالناس والحياة أكثر مما رأى !! .

وكان من حظ شلى ألا يفجعه القدر حتى يسرع الى أن يعوض عليه فجيعته . فكما عوضه عن هاريت جروف بهاريت وستبروك ، كذلك عوضه عن سوذى بمن يؤمن به ألف مرة أكثر من ايمانه بسوذى ، فقد عرف اذ ذاك أن وليم جودوين حى يرزق وانه يقيم بلندن وأنه يستطيع أن يراه . لذلك ســارع فكتب الى مؤلف (العدل السياسى) رسالة كلها الاعجاب به والرجاء فى الاستماع له .

على أن شلى كان يومئذ فى شـــغل بمشروع كبير لم يدع له الفرصة كى يسرع الى لندن للحاق باستاذه الروحى العظيم . ذلك أن الكاثوليك من أهل ارلندا كانوا يعاملون معاملة شاذة ، سببها أنهم على غـــير البروتستانية دين المملكة ودين الغالبية . فكانوا محرومين من مناصب الدولة غـــير معترف لهم بكثير من الحقوق المدنية المقررة للانسان . وقد رأى شلى فى هذا فرصة سانحة ليعلن حربه على الظلم وليناذى بالمساواة بين الناس جميعا لا يفرق الدين بين أحد منهم ولا يجعل له فضلا على غيره ، وليشن

الغارة على رجال الدين وما يدعون اليه من تعصب ، وعلى الملوك وما يحيطون به رجال الدين من رعاية يردها رجال الدين اليهم بدعوة الناس الى تقديس عروشهم والاذعان لظلمهم واعتباره بعض ما أراد الله لخيرهم . ولهذه الغاية وضع نداء مطولا دعا فيه الى مبادئه ، وفى مقدمتها التسامح ، والى هذه الأفكار التى خلفتها الثورة الفرنسية وراءها . لكن الثورة كانت قد أخفقت فى نظر النـــاس من أهل ذلك العصر ، لأنها بعد ما قدمت فداء للحرية والمساواة ما قدمت تضحيات وبعـــد ما قضت عليه من رؤوس أطاحتها وثورات عصفت بها ، لم تبلغ من غايتها أكثر من أن قدمت أبناء فرنسا كلهم طعاما لشهوات نابليون الحربية وأن أجلسته امبراطورا على عرش الجمهورية . وسر اخفاقها فى نظر شلى وجدوين وكثيرين من كتاب العصر ومفكريه انها اعتمدت لتحقيق غاياتها على القسوة والعنف ، فمهدت السبيل لنفور الناس منها تنفسهم الصعداء لانقضاء عهدها . ولو أنها جعلت الرحمة والتسامح وبر الانسان بالانسان وتفاهم الأخ مع أخيه أساسا لها ، لحققت على الأرض كل غاياتهـــا وان احتاجت الى زمن أطول مما كان يقدر رجالها لنجاحها . ولهذا دعا شلى الى مساواة الكاثوليك بسائر الانكليز فى الحقوق والتكاليف ، طالبا الى الكاثوليك أن يتمسكوا بحقهم فى هذا من غير أن يلجأوا الى عنف أو دماء . واتخذ مقرا لدعوته فى دبلن بيتا أقام فيه مع هاريت واليزا ، وجعل يوزع على الناس نداءه الحار الملتهب لهذه المبادىء السامية . وقد خيل الى بعض أصدقائه أن البوليس لابد أن سيقبض عليه وأن أهل ارلندا سيلتفون حوله . لكن هؤلاء سخروا من رسول حريتهم الذى

لم يبلغ بعد العشرين من عمره ، ووجدوا فيه وفى زوجه الطفلة الرقيقة موضع دعابة وعطف مما جعل البوليس لا يهتم لهما ولا يعبأ بهما . والحق أن شلى كان مخطئا كالذين رأوا معــه أن اخفاق مبادىء الثورة الفرنسية يرجــع الى التجائها للعنف والقسوة . فالثورة الفرنسية ، ككل ثورة غيرها فى العالم ، لم تبدأ لتحقيق المبادىء التى أعلن أهلها أنهم يريدون تحقيقها . بل هى بدأت أول أمرها لأسباب اقتصادية بحتة . وكان الذين سبقوها من أمثال روسو وفولتير وديدرو قد نادوا بأن سعادة الناس تتم اذا تحققت المبادىء التى أعلنوها . فلما دكت قوائم عرش فرنسا وأزيح كابوس الجوع وبدأ الذين ألقت اليهم ظروف ذلك العصر مقاليد الأمر يفكرون فى الطريقة التى يسعد الناس بها تناولوا المبادىء التى كان الناس من قبل يقرأونها فتلذهم قراءتها من غير أن يؤمنوا بها . وكان كثير من حكام المصادفة أولئك أقل الناس ايمانا بفائدة المبادىء التى أعلنوا أنهم يريدون تطبيقها ويحاربون من يقف فى سبيلها ؛ لكنهم كانوا يفعلون ما يفعلون من ذلك استبقاء للسلطة فى أيديهم وتخلصا ممن قد ينازعهم اياها . فهم اذن متعصبون لمصالحهم كرجال الدين ممن يحاربهم شلى سواء بسواء . لكنهم وحدهم هم الذين يبلغون هذه المبادىء السامية الى ذهن الجماهير ، لأن الجماهير لا تفهم الا اللغة الدموية الوضيعة : لغــة القسوة والارهاب والبطش . ولو أن شلى استطاع أن ينزل من سمائه العليا الى هذه المرتبة لأحاط الجمهور به ولهتف له ولتابعه ولولغ واياه فى الدم ولابتهج لهذا المنظر الذى يحرك فيه حيوانيته الأولى ثم لثبت قليل أو كثير من هذه المبادىء فى ذاكرته يستظهرها بعد

رجوعه الى وعيه . أما وشلى يخاطبه بلغة السماء ويتحدث له عن حب الانسان للانسان وتسامح الانسان مع الانسان ، فلا مطمع له فى أكثر من سخرية الجمهور به سخرية شابها العطف على شبابه وعلى جمال زوجته .

وعبر شلى وصاحبته البحر من جديد الى بلاد الغال يائسا من أولئك الكاثوليك الذين لايفهمون . وظل يتنقل فى مختلف بلاد الشواطىء البحرية زمنا لم يهتد فيه الى مسكن يسر به ، فغادرها متجولا فى نواح مختلفة حتى اهتدى فى لنموث الى منزل أعجبه فأقام به : أعجبه لما يحيط به من مناظر شعرية جميلة يزيدها عنده جمالا عزلتها وقلة اختلاف الناس اليها . وفى هذا المنزل قبلت مس هتشنر دعوته فجاءت لتقيم معه . والحق أنه كان بحاجة الى صديق روحى يبادله الرأى ويدرك واياه صورة الحياة . فلقد ظلت هاريت طفلة ، ولم تزد على ما كانت عليه تلميذة . وكان هو يومئذ فى بدء نشاطه الشعرى يضع أولى قصائده الكبرى المعروفة فى ديوانه (بالملكة ماب) أودعها ما وصل اليه من فلسفة . وكان يريد من يردد شعوره ويقدر آراءه... فلما أراد محاولة أن يجد من هاريت ذلك الشخص تبدى له أنها لا تتذوق الشعر ولا تفهم الفلسفة . لذلك طار سرورا من مجىء مس هتشنر وطلب اليها أن تزيد فى تهذيب زوجته . ولعل هذه كانت طلائع التباين فيما بينهما تباينا ينتهى الى الافتراق والى انتحار هاريت غرقا ويدس فى حياة شلى هما ناصبا يظهر أثره من بعد فى كثير من شعره .

— ٣ —

أقام شلى بالمنزل الذى اختاره فى لنموث ومعه زوجه هاريت

وستبروك وأختها اليزا ومس هتشنر حتى أوائل خريف سنة ١٨١٢.
ومن لنموث وجه شلى الى القاضي لورد اللنبرا خطابا كان أعظم أثرا وأشد وقعا من كل ما حاول فى أرلندا ، وكان وما يزال ينبىء عن قوة شلى فى النثر بما لا يقل عن قوته فى الشعر . فقد حكم هذا القاضى على مستر ايتون بالسجن والتعذيب ، لأنه نشر كتابا يطعن على المسيحية وينكر فيه المعجزات والبعث ، ويرى فى التثليث نظرية لا يقبلها العقل . ولم يدر بخلد أحد أن يجعل من هذا الحكم موضع طعن ان كانت للأحكام فى كل أمة قداستها . على أن كتابا فى فرنسا وفى غير فرنسا ممن يعجب بهم شلى لم يترددوا حين رأوا فى حكم ظلما عن أن يكرسوا الكثير من جهودهم لرفع الظلم بالعمل لاعادة النظر فى الدعوى . وهذا فولتير جعل من قضية كالا الذى حكم عليه بالاعدام وبتجريد أبنائه من ثروتهم موضعا لحملة انتهت باعادة النظر فى الحكم وباعادة شرف كالا اليه بعد اعدامه وازالة ما ترتب على الحكم الأول من نتائج بالنسبة لأبنائه ووارثيه . والحكم على مستر ايتون أجل فى نظر شلى خطرا ، فهو لا يقتصر على ادانة انسان من الناس بل يدين حرية الفكر والتعبير عنه ، ويقيد العقل بقيود تضطر حر الرأى الى النفاق للجماعة مخافة ما ينزل به من عقاب ، وتحول بين الجماعة والاستفادة من تفكير ذوى المواهب الذين تبعثهم الأقدار ليداوموا السير بالانسانية الى ناحية الكمال . لذلك وجه الى اللورد اللنبرا خطابه القوى مفتتحا اياه بقوله : « مولاى — أما وللمركز الذى دعتك بلادك لتقوم فيه ما له من أهمية ، فالتبعة المترتبة عليه هى لذلك أعظم خطرا . ويجب لذلك عليك مداومة النظر فى أنك لم تحكم خطأ

بالعقاب على فاضل أو بالمكافأة لناقص ••• وصحيح أن القوانين القائمة تحميك من محاسبة أية سلطة دستورية اياك بسبب الحكم الذى أصدرته على مستر ايتون • لكن ليس ثمة أى قانون يستطيع حمايتك من سخط الأمة عليك وعدم موافقتها على حكمك ، وليس ثمة قانون يحول بينك وبين حكم الأعقاب عليك اذا كان للأعقاب أن تعنى بذكر شأنك » • ثم ينطلق شلى مندفعا : — « لكن بأى حق تعاقب مستر ايتون ! ليس هنالك الا سوابق عتيقة من أيام تحكم الكهنوت وظلمهم هى التى يمكن الادراع بها لاهانة الانسانية والعدالة هذه الاهانة المزرية • فأى رجل أضر به مستر ايتون ؟ وأى جريمة ارتكب ؟ ولم لا يسير حيث يشاء كما يفعل سائر الناس، ثم لم لا يعيش كما اعتاد أن يعيش ؟ وأية غاية ترجى من حبس هذا الرجل الذى اتهم بأنه لم يرتكب ما يشين شرف انسان ؟ » ويسوق شلى الحجج بعد ذلك يأخذ بعضها برقاب بعض يدلل بها على أن التسامح ملاك سعادة العالم واخاء الانسان للانسان والوسيلة الوحيدة لاستعلاء الحق والفضل ، وأن التعصب والاضطهاد لم يجرا على الانسانية الا ويلات كانت أداتها أمثال لورد اللنبرا • ويسوق هذه الحجج فى لهجة قوية تظهر فى مثل قوله :

« ان نظام الاضطهاد لا يضارع عجزه ولؤمه الا اضطراب المنطق فيه • فالمطابع مثقلة بما يسمى (تهكما فيما أظن) الأدلة المثبتة للمسيحية ، وهى كتب حافلة بالمطاعن والأكاذيب على منكريها ، وقوامها أن كل من يرفض المسيحية مجرد من الادراك والشعور ، وسبيلها أن تقرر ما لا دليل عليه ، وأن تتخذ من الأباطيل الشائعة المنفرة ، مبادىء أولية صحيحة ، ومن النتائج المستخلصة من هذه

المقدمات المفترضة ، بنى شاهقة المنطق . ولكن اذا كان الأساس واهيا فما الحاجة الى مهندس ينبئنا بتداعى البناء ؟ واذا كانت حقيقة المسيحية لا نزاع فيها فلماذا توضع هذه الكتب ؟ واذا كان الموجود من الكتب كافيا لاثباتها فما وجه الحاجة الى جدل جديد ؟ واذا كان الله قد تكلم فلماذا لم يقتنع العالم ؟ واذا كانت المسيحية ينقصها علم أعمق وبحث أشق لاثبات حقيقتها ففيم اللجوء الى القهر فيما لا يسع سوى العقل الانسانى أن يؤديه على وجه يرضيه ؟ » .

وهو يعود بمثل هذه اللهجة ، ناعيا على التعصب ، داعيا الى التسامح ، محاولا التدليل على أن الاضطهاد لن يخفت صوت الحق ولن يكون من أثره الا دفع الجماعة لتقديس ذكرى من حل الاضطهاد به ، على نحو تقديس المسيحيين لعيسى لغير شيء الا تعذيب اليهود اياه ، وذلك حين يقول :

« من الحقائق التى لا سبيل الى نقضها أنه لو لم يكن اليهود همجا متعصبين ، أو لو أن عزيمة بونتياس بيليت كانت كصراحته ، لما استطاع الدين المسيحى أن يستفيض ، بل لما أمكن أن يوجد . فيا من أعز آرائه عليه رهن بمثل هذا الخيط الضعيف ، وأعلق عواطفه بقلبه مصدرها يعتوره الشك ! تعلم على الأقل التواضع ، واعترف بأن من الجائز أن تكون تربيتك وظروفك قد سولت لك التسليم بقواعد لا ينهض عليها دليل ولم تثبت صحتها على وجه مقنع مرض ، واعترف كذلك على الأقل بأن فساد رأى أخيك ليس بالسبب الكافى الذى يجعله أهلا لكرهك . أمن أجل أن انسانا مثلك ينكر أن عقيدتك معقولة ، يكون حقيقا بعقاب التعذيب

والسجن ؟ واذا سلمنا بجواز الاضطهاد الدينى فما أوسع الباب الذى يفتح ويقتحم منه المتعصبون من كل لون على سلم المجتمع وسلامه ! وأى وحشية وفظيعة دموية لا تتقلب مباحة ؟ ولكنى أسأل : أليس ذلك الرجل الذى ينكر صحة عقيدة شائعة أحق بتعظيم المجتمع منه بسخطه وغضبه ؟ لأنه اما أن يثبت زيفها وعقمها (وبذلك يقضى على ماهو زائف ولا طائل تحته) واما أن يتيح لأنصارها الفرصة لاثبات صدقها وجمالها . وهذا — على التحقيق — لا يمكن أن يكون جريمة . فان من يهب وقته للبحث الحر والتحقيق الجرىء فى كبرى المسائل التى ترجع فى مرد أمرها الى طبيعتنا الاخلاقية ، يكون أجدر بتشجيع المشترعين المتنورين منه بأن يحيق به انتقامهم . وأحب أن تعلم يا سيدى اللورد أن أغلال الحديد لا تقيد ولا تخضع روح الفضيلة . وانها تسمو فوق وحشية المحابس وقسوتها ، وترتفع حرة جريئة الى حيث لا تقدر روحك أن تحلق وراءها من مقعدك الفخم فى القضاء . ولست أدعوك لتحذر أن تنسيك مسيحيتك أنك انسان ، ولكنى أعظك أن تستعجل ذلك العصر الذى يقبل علينا مسرعا فى ظلم نظام القهر الحاضر ، والذى تكون فيه مجالس القضاء حقيرة مأجورة ، وتكون السجون منازل لكل ما هو شريف وصادق » .

ويصل الى القمة من حججه حين يستشهد التاريخ على أن الظلم لم يخفت صوت الحق بل قضى على الظالمين ، وذلك فى عبارة بالغة غاية الابداع ، حين يقول :

« سقى سقراط السم لأنه اجترأ أن يكافح الخرافات التى كان مواطنوه يلقنونها وينشأون عليها ، ثم ما عتمت أثينا بعد موته بقليل

أن تبين لهـا ما فى حكمها عليه من الظلم فاتتصفت له من متهمه « مليتاس » ورفعت سقراط الى قريب من مراتب الأرباب .

« وصلب المسيح لأنه حاول أن يهذب طقوس موسى ويستبدل بها ما هو أدنى الى الانسانية وأشبه بالخير . ولقد أعلن قاضيه على الملأ اعترافه ببراءة ساحته ، لكن الشعب الجاهل المتعصب أبى الا الفعلة الشنعاء ، فسرح براباس القـاتل الخائن وقدم المسيح الوديع المصلح قربانا لاله اليهود الدموى . ثم مضى الزمن وتبدلت الأحوال وتغيرت معها آراء الناس وراح الغوغاء — على عادتهم من التطرف — يرون فى صلب المسيح خارقة . ولم تعوزهم شواهد المعجزات وآياتها — وما أكثرها فى عصور الجهالة — ليثبتوا بها أنه كان من الله ، ودارت هذه العقيدة فى النفوس مع العصور والتقت بأحلام أفلاطون ومنطق ارسطاليس ، واكتسبت القوة والسعة والامتداد حتى تقررت ألوهية المسيح وصارت المنازعة فيها مجلبة للموت ، والشك فى صحتها جريمة وعارا » .

« والمسيحية الآن هى الديانة المقررة ، فمن أراد أن ينازع فى ذلك فعليه أن يوطن نفســه على أن يرى السفاكين والخونة يتقدمونه فى اعتبار الرأى العام . الا اذا كانت عبقريته كفاء شجاعته وآزره من ظروف الأحوال ما يكفل له أن ترفعه الأجيال المقبلة الى مصاف الآلهة وأن تضطهد الناس باسمه وفى سبيله كما اضطهد هو باسم من كانوا أسبق منه الى الفوز بعبادة العالم » .

ثم يختتم خطابه بقوله :

« ان الزمن ليقترب مسرعا حين يعيش المسـلم واليهودى والمسيحى والمؤمن والملحد معا فى جمعية واحدة يتقاسمون متساوين

ما ينشأ عن اجتماعهم من فوائد ويتحدون مرتبطين بروابط الاحسان والحب الأخوى . وأرجو لمولاى اللورد أن يرى ذلك اليوم » .

ولما أتم شلى خطابه هذا حاول العود لاتمام قصيدته « الملكة ماب » . لكن حياة لنمث بدأت تثقله وتدفع الملال الى نفسه ، ذلك أن الغيرة دبت الى نفس زوجته من مس هتشنر فرأت فيها منافسا لها دس الهم الى حياتها . وربما وجد شلى الوسيلة الى الدفاع عن ضيفه لو أنه وجد منها ما كان يرجو من مشاركته فى تفكيره والهامه ، بما يزيده تحليقا فى سماء الشعر ينهل فيها كل ما يريد من صور ومعان وألوان . وزاد فى همه أن رأى هاريت لا تتابعه فى جولات خياله وذهنه بما يزيده قوة على قوته وسموا على سموه ، بل وقفت تتلفت الى ما حولها تبتغى من متاع الحياة مثل ما ابتغت من قبلها أخته وابنة عمه . حينذاك أيقن شلى أن لا سبيل للبقاء فى وحدة الريف واعتزم العود الى لندن عله يجد فى الجماعة مسليا عن هذه العواطف الوضيعة التى بدأ المحيطون به يشغلون بها ذهنه ، وفى مقابلة جدوين منشطا لروحه فى توثبها للعمل على سعادة بنى الانسان اخوته . واختار فى العاصمة فندقا صغيرا أقام وصحبه فيه . ثم ذهب مع زوجته فى يوم من اكتوبر يزور استاذه فى موعد حدده . وكان جدوين يقيم بمنزل صغير يتصل بمكتبة يطبع هو فيها كتبا للأطفال ويبيعها . ذلك أن مكانته التى بلغها بعد نشره كتاب (العدل السياسى) والتى دعا فيها الى هدم نظم الزواج والاسرة والنزوع الى صورة مخففة من الشيوعية كانت قد ضعفت بمقدار عظيم . فلقد كان يوم كتب هذا الكتاب

قسيسا خرج على زمرته وأطلق العنان لفكره • لكنه ما لبث بعد ذلك أن تزوج من ماری ولستنكرافت ، التي ماتت تاركة له ابنة دعتها باسمها ماری ، وابنـــة أخرى من زوجها الأول هي فاني املای • ولم يمض على موتها حين حتى تزوج مرة أخرى من جارة له كانت تبدی اعجابها به ، وكانت ذات ابنة من زواج أول هين جين كليرمون • وقد اجتمعت الأسرة فى انتظار زيارة شلی وزوجته لم يتخلف منها الا ماری ، التي تزوجها شلی من بعد ، لأنها كانت على سفر فى ايقوسيا • وقد ربطت هذه المقابلة الأولى بين شلی وزوجته وجدوين وأسرته بأقوى الروابط • على ان فانی وجين ، وكانتا فتاتين ذواتى جمال وعلم ، ما لبثتا أن رأتا شلی واستمعتا اليه حتى أظهرتا غاية الاعجاب بجمال نفسه وسمو ذهنه وتوقد خياله ، وحتى شـــعرت كل واحدة منهما فى أعماق نفسها بميل نحوه دفعها الى التقرب منه والعمل لاجتذابه ، وشعر هو من ناحيته بأنهما أكثر من هاريت معرفة وأقدر على تتبع البحوث الفلسفية وتذوق جمال الشعر •

ومن طريق أسرة جدوين تعرف الى أسرة نيوتن ؛ وكانت أسرة متأثرة بتعاليم الثورة الفرنسية وبالثقافة الفرنسية الى حد ملك لب شلی • وكيف لا تملك لبه ولم تقف عند التهذيب تأخذ منه بأعظم نصيب ، بل ذهبت الى أبعد من ذلك فطبقت فى كثير من نظم حياتها مبادىء الانسانية التى أعلنتها الثورة • لم يكن أحد من أفرادها يأكل اللحم وكانوا جميعا يميلون الى ناحية الحياة الطبيعية التي دعا روسو اليها بقدر ما تسمح به ظروف الحياة • ومن ذلك أن كانوا يتركون أطفالهم عراة ما داموا فى الدار • وقد قارضوا شلى اعجابا

باعجاب وتقديرا بتقدير ٠ وشاركتهم فى ذلك أخت لمسز نيوتن تدعى مدام دبوانفيل تربت هى وابنتها فى فرنسا ونشـأت على تعاليمها ٠ وكذلك استطاع أن يجد فى المدينة منجاة من تلك الوحدة التى أثقلت كاهله فى لنموث والتى اضطرته الى هجر تلك البقاع الجميلة المحبوبة التى ألهمته خطابه الى لورد اللنبرا والتى كان يتمنى لو أتم فيها قصيدته (الملكة ماب) ٠

وزاده أنسا الى المدينة وحياتها أن استطاعت زوجته ، أو أختها اليزا على وجه أصح ، أن تجعل عيش مسز هتشنر معهم محالا حتى لتطلب هى مغادرتهم شاكية ما أصابها بسبب دعوة شلى اياها من انقطاعها عن المدرسة التى كانت تعمل فيها ومن سوء سمعة زعمت انها علقت بها لاتصالها برجـل هو من الجمعية موضع الريبـة ٠ ولقد اقتطع لها شلى من أربعمائة الجنيه التى كان يعيش عليها مائة كاملة ورتبها لها لتعيش منها برا بها وتقديرا لتبعته فى دعوتها ٠ وعلى أثر سفرها عاد الى جو الاسرة طمأنينته وعاودت هاريت ابتسامتها وعادت هى الى تغريدها ٠ ومع ما كانت تلمح اليه بعض فتيات جدوين من ميلها الى التجمل بما لا يتفق مع بساطة الحياة الطبيعية ، ومع ماكن يتهامسن به مشفقات على شلى من أنه لم يتزوج الشابة التى تسعده وتلهمه ، فقد ابتهج هو بعودها اليه وفتح لها من جديد كل قلبه ٠ ثم زاده بها شغفا أنها حملت ، فود أن يستعيد واياها ألوان متاعهما السابق ٠ لذلك هجرا العاصمة ومعهما أليزا وسافرا الى أرلندة والى الغال لا يبتغيان من رحلتهما هداية أحد ولا الدعوة الى جديد ، وانما يرجوان أن تحدثهما أماكن شهدت غرامهما بأهازيج هذا الغرام لتزيد فى أنغامه الثائرة من حنايا

جوانحهما ما يزيدهما صبابة وهوى • وكانا سعيدين طوال رحيلهما مطمئنين الى حبهما • على أن مادعا فى الحقيقة الى هذه السفرة ثورة قامت بنفس شلى جعلته يحس فى أعماق نفسه من غير أن يستظهر أمام بصيرته أن شيئا قد اندس بينه وبين هاريت يوشك أن يفصل بين قلبيهما وأن يبتر صلة حبهما • وكان رجاؤه أن يعود الى ملك عصفوره اذا أزال من نفس عصفوره الوهم أن احدا ينازعه فيه • وكان رجاء هاريت أن تعود الى ملك صاحبها وأن تنزل به الى مستوى النــاس الذين يعرفون للحياة المادية قيمتها ويعملون على الاستمتاع بكل مظاهرها على نحو ما يستمتع غيرهم بها •

وتقدم بهاريت الحمل ، فلم يك بد من عودهم الى العاصمة مرة أخرى • ووضعت بنتا أسموها (يانت) جعلت أمها أشد حرصا على صلاتها بالجمعية وعلى محاكاتها اياها • وفيم كان زواجها من حفيد البارون شلى صاحب الثروة الضخمة والضياع الواسعة اذا كانت لا تطمع فى حياة ضريباتها النبيلات ؟ بل فى حياة العامة من الناس ؟! ولعلها كانت لا تغلو فى هذا الميل لو أن أختها اليزا لم تكن دائبة التحدث لها عنه والعود بها الى أن ذلك كان كل رجائها ورجاء أبيها من صلتها بشلى • واضطر هو آخر الأمر الى الاذعان لمشيئتها، فاقتنى لها عربة ولم يرفض أن يصحبها مرة الى بائع الحرائر وأخرى الى صانعة القبعات • ثم ألحت عليه ، وعاونتها اليزا فى الحاحها ، أن يعمل على استعادة صلته بأبيه • واضطرته ، فكتب له يرجو زوال ما بينهما من قطيعة • لكن هذا السعى أخفق أن أصر مستر تموذى على أن يعلن ابنه النزول عن آرائه والعود الى حمى الجمعية ونظامها • وأحفظ رفض شلى شروط أبيه قلب أليزا وقلب هاريت

وزاد فيما بين الرجل وزوجه من شقة خلف كان لا يزيدها تعاقب الأيام الا انفراجا • وكان من أثر ذلك أن جعل شلى يجد المسرة فى مقامه بين أسرتى جدوين ونيوتن وفى السفر وحده الى حيث تقيم مدام دبوانفيل مع ابنتها كورنليا ترنر يقضى فى ضيافتهما أياما وأسابيع • بل لقد أقام عندهما فى احدى الضيافات شهرين متتابعين تاركا هاريت وأختها ينعمان بما تشاء أهواؤهما التى هوت الى مستوى أهواء الجماعة الانسانية • وكان اعجابه بكورنليا يزداد يوما فيوما حتى انقلب حبا وحتى فكر فى اختيارها رفيقة حياته •

لكن أسرة نيوتن كانت ، برغم حريتها فى التفكير وتطبيقها صور تفكيرها فى طعامها وفى حدود المنزل ، أسرة ارستقراطية النزعات فى علاقاتها المدنية ، فلم يرقها هذا التفكير من جانب شلى فى مخالطة كورنليا • وأدرك هو هذا فاكتفى بسعادته بين أولئك السيدات الرشيقات البالغات من عذوبة النفس وسمو الادراك ما لم يكن يجده الا فى جماعة جدوين • على أنه أدرك وجوب الانقطاع ولو الى حد عن تكرار زياراته لهؤلاء وأولئك وأكب حتى فرغ من (الملكة ماب) وقد أودعها كل ما دار فى نفسه عن الحياة من خواطر وما وقع عليه أثناء مطالعاته من معارف وأفكار وجعلها كأنها كتاب الرسالة التى ظن أن القدر ألقى عليه ابلاغها للناس • وكم كان غضبه لتدهور عقلية الجماعة شديدا حين قابلوا الملكة ماب بفتور لم تتخلص من أثره بعد أن علا فى الشعر نجم شلى • بل لقد ظلت حتى اليوم منظورا اليها على أنها دون ما أبدع بعد ذلك من معجزات الشعر بكثير •

ولقد كان واجدا عن فتور الجمهور بازاء قصيدته عزاء لو أنه

وجد فى هاريت أو فى غيرها عطفا عليه يقوى عزمه ويشد قلبه . لكن هاريت كانت على العكس من ذلك قد أمعنت فى اهماله حتى لم تأب الظهور فى الجمعية مستندة الى ذراع الضابط رايان الذى جعل يتردد عليها بحجة أن له بأختها اليزا معرفة قديمة . وقد حاول شلى أن يسترد قلبها وأن يحول بينها وبين الانحدار الى أعمق مما انحدرت اليه ، لكنه ألفى هـذا القلب تحجر فلم تعـد تهزه بازائه عاطفة ولا يحركه نحوه ذكر للماضى ولا رجاء فى المستقبل .

وانه لفى يأسه من هذه الناحية اذ أقبل عليه جدوين يستعينه فى متاعب مالية أعانه شلى من قبل على مثلها . وطار شلى الى داره راجيا أن يجد فى صحبة جين وفانى بعض السلوى عن عقوق هاريت وجحودها قداسة حبها . ولم يخنه القدر ولا نبا به حظه هـذه المرة . فقد طالما تحدث اليه جودوين عن ابنتـه مارى وذكائها ونشاطها وحسبها المعرفة ومثابرتها على النهل من موارد العلم ، ولطالما وصفتها له جين وفانى على أن ذكاءها يعدل جمالها . وما كانت أشد حاجة شلى ليجد الملاك الذى يجمع الى الجمال الذكاء والى عذوبة الروح سمو النفس والى طهارة الضمير عظمة القلب ،والذى يضىء جمال وجهه بما فى الوجود من قوى الفضل والخير الكمينة مبعثرة فى ثناياه . ما كان أشد حاجته الى أن يهب كل ما فى قلبه من حب للوجود لتلك الجميلة التى يضىء وجهها بكل جمال الوجود . وألفى مارى ساعة وصـل الى بيت أبيها قد عادت من ايقوسيا وجلست بين جين وفانى اللتين قدمتاه اليها وذكرتاه بحديثهما عنها كما ذكرتا له انهما حدثتا أختهما عنه . ولم تلك الاسويعة تحدثت مارى اليه فيها حتى سحرته عن نفسه ، فجعلته يرى فى جمالهـا

وشبابها ورقتها تلك الرشاقة النسوية مجتمعة الى النشاط والطلعة الذهنية التى تميز الشبان ؛ اجتماعا كان يراه دائما صورة الكمال الانسانى فى خير ما يستطيع الفن أن يكون . والحق أن مارى كانت ذكية الجمال تنطق قسمات وجهها الرقيقة غاية الرقة بما تنطوى عليه جوانحها من أنفة ، وتنم عيونها الكستنائية اللون عن شيء من الألم لم يعرف شلى مصدره الا بعد ما علم أنها تزور كل يوم قبر أمها تقرأ عنده كتبها وتستودعه همها وشجنها ، وقد أجابت طلبته أن يصحبها كل يوم الى هذا القدس تنطوى صفائحه على أقدس حب امتلأ قلبها به منذ طفولتها . وأمام هذا القدس ارتبط القلبان اللذان جعلا كل يوم دأبهما الصلاة له : ارتباطا وتعاهدا على أن يكون كل منهما لصاحبه حتى آخر الدهر .

ولما علم جدوين بما بين ابنته وشلى حال بينهما ومنعه عن بيته ، فأجج بذلك نيران قلبه وجعله يعتزم اصطحابها والفرار واياها ، وأيقن ان لن يؤنبه ضميره من ناحية هاريت بعد ما ظهر منها أنها لا تعنى بغير ماله . فدعا بها من الريف الى لندرة وأخبرها بعزمه وبأنه جعل لها راتبا يكفيها عيشها . لكن العصفور رقيق التكوين فلم يحتمل الصدمة فمرض ، ثم حاول أن يسترد صاحبه اليه فلم يفلح أن كان قلب صاحبه قد أصبح فى ملك غيره .

— ٤ —

كانت أبواب أوربا قد فتحت أمام الانجليز بعد ذهاب نابليون الى البا ، فلما أبلت هاريت من مرضها اتفق شلى ومارى وصحبتهما جين أن كانت تشعر بميل نحو شلى فسافروا الى سويسرا وجاسوا خلالها حتى لوسرن . على أن مقامهم بين جبالها وعلى شواطيء

بحيراتها لم يطل أكثر من ستة أسابيع عادوا بعدها الى بيت صغير على شواطىء التمس أقام ثلاثتهم فيه . ولقد أدى هذا القرار ومعاشرة شـلى لمارى من غير زواج بينهما لمقاطعة جدوين اياه وتحريمه بيته عليه وعلى اللتين فرتا معه ، وذلك رغم ما كان لشلى على جدوين من فضل امداده بالمال فى ظروف كان هو وزوجه هاريت فى أشد الحاجة اليه . بل لعل هذا الاسراف من جانب شلى كان أهم ما غير قلب عصفوره عليه ودفعها الى الحرص على أن تمتع من الحياة بما يمتع به غيرها من مثيلاتها مما كان يراه زوجها سخفا غير لا ئق بالنفوس السامية . ولم يكن جدوين وحده هو الذى قاطعه ، بل قاطعته كذلك أسرة نيوتن ومدام دبوانفيل ، وانقطع عليه كل سبيل لرؤية كورنلياترنر . ولم يبق له من أصدقاء يزورونه غير صديقه القديم هوج وصديق استحدثه فى الزمن الأخير يدعى بيكوك .

على أن عزلة شلى مع خليلته وجين لم تحل دون التهاب قلبين بحبه التهابا دفعهما الى مايشبه الجنون . فقد شعرت زوجته هاريت وستبروك من يوم أعلن اليها عزمه على الاتصال بمارى جدوين أن ضرام الحب الذى كان قد خبا فى قلبها ، حتى صارت لاترى عليها من بأس فى التحبيب الى أمثال الضابط ريان ، تلهبه الغـيرة من جديد . وأى شىء أفتك بقلب امرأة من رؤيتها امرأة أخرى تسلبها رجلها وتسلبها معه هناءها ومجدها ؟ انها لترى حقا لها أن تعذب من تجب وأن تصد عنه وأن تلاطف غيره . ولترى واجبا على محبها أن يرى فى صدها من علائم الدلال ما يقتضيه مضاعفة التودد لها والاذعان لكل أمرها والتماس الصفح عما دعا الى هجرها ، وان

لم يك شيء قد حدث يوجب التماس الصفح عنه • بل لترى واجبا كذلك عليه ألا يقتضيها اسعاده أو تهوين الحياة عليه • فان فعل فهو أثر لا قلب له والأنانية ملء نفسه • أما ان رأى فى امرأة أخرى ملاك سعادته فأحبها فتلك الجريمة والطامة الكبرى ، وتلك المرأة الغادرة هى أحط من حملت أرض أو أظلت سماء • وكذلك كانت مارى فى رأى هاريت • وقد ازدادت لها بغضا وعن شلى اعراضا حين بعث اليها يستضيفها عنده فى بيت مارى • أف لهما من منافقين ! • وأف لهذه اللعينة مارى التى لا تراها هاريت تعدلها رشاقة ولا جمالا ولا عذوبة صوت ولا حلاوة روح ، بل التى لم تؤت أى حظ من الجمـــال ، بل التى تستحق أن تسحق وأن تعض بالأسنان وتمزق بالأظافر • ولئن كان شلى قد ضعف أمامها كل هذا الضعف فلتنتقمن منه هاريت شر انتقام •

كان ذلك شأن هاريت • أما فانى املاى فقد جعلت تحس فى بيت جدوين وحدة ممضة مؤذية ، وتشعر بنفسها غريبة ليس لها فى البيت أم ولا أب ولا صديق ، ويلذعها قلبها بذكر ما كان يفيض به ازاء شلى من حب واخلاص • فها هو ذا شلى قد آثر مارى عليها • وهذه حين قد وجدت فى نفسها الجرأة لتصحبهما • أما هى فلم يبق لها فى الحياة الا أن تنظر الى أشباح اليأس تحيط بها ، وأن تتمنى لشلى فى نفس الوقت الهناء والسعادة • وكيف تراها تحمل له أى ضغن ولم يكن تفضيله مارى جدوين عليها الا حلقة من سلسلة سوء الحظ الذى أحاط بها منذ مولدها حتى لجعلها تؤمن بأنها ولدت تحت طالع من النحس لا سبيل لمغالبته • ألم يمت أبوها فتزوجت أمها من جدوين ثم ماتت هى الأخرى تاركة اياها يتيمة

الأبوين لامعين لها فى الحياة الا بر هذا الرجل الذى استبقاها عنده رأفة بها واشفاقا عليها ! فاذا فضل عليها شلى أختها لأمها فليس ذلك أقسى ما أصابها به القدر • وبحسبها أن تظل على اخلاصها له ورثائها لما وصل اليه من فقر اضطره ليعيش وامرأتين معه عيش كفاف ودون الكفاف • بل لقد أثقلته الديون حتى اضطر دائنوه الى أن يلجأوا للقضاء فجعل رجاله يتعقبون شلى يريدون القاء القبض عليه كى يفى بديونه أو يسجن • ولولا يقظة فانى واخطارها شلى بالأمر وفراره من متعقبيه لذهبوا به الى السجن ، ثم لما تحرك قلب أبيه لاستخلاصه بعد الذى كان بينهما من قطيعة وجفاء •

وناء شلى بهذه الوحدة وثقل عليه حملها وأنهكه الى جانبها هذا العيش الضنك الذى لم يتعود فى نعومة أظفاره ، فانهدت قواه واندس المرض الى صدره وأظلمت الدنيا فى عينيه ورأى شبح الموت مقبلا يبتلعه • كم كان من قبل سعيدا مع هاريت ! وكم كان سعيدا بحديث صديقاته والمعجبات بنبله وجماله وذكائه وسمو روحه ! ثم كم كانت السعادة تفيض عنه منبعثة اليه من قلب الرفيقة الجميلة العطوف مارى ! وها هو ذا يرى نفسه معها منفردا يتحاشاه الناس ويفرون منه فرارا ثم لا يكون له عنهم من بديل الا مرض قاتل • يا لليأس ! أيتها الآلهة ، آلهة الخير والنعمة والسعادة ! أحق أنك جميعا قد تخليت عن هذا الرجل لغير شىء الا أنه صديق الفضيلة المخلص ونصير الحرية الصادق ! أو حق أنك حكمت عليه بالموت لأن جمعية النفاق والوهم والباطل قد ابتعدت عنه ، خشية أن يفضح نوره ما فى ظلماتها من رجس وشقاء وجريمة ؟ ليكن • فهذه مارى ما تزال تحنو عليه وتبعث اليه من

دفء قلبهـا المملوء حبا ما يستبقى خيط الرجـاء معلقا فوق هاوية اليأس .

لكن خيط الرجاء هـذا لم يمنعه من أن يرى الهاوية وكل ما حوته . بل لم يمنعه من أن يحدق فيها ببصره ويستمد من مناظرها المؤسية الهاما ساميا أوحى اليه أولى قصائده الوجدانية الكبرى : « الاستور أو روح الوحدة » . وبطل هذه القصيدة شاعر شاب طوف فى الآفاق وجاب أقطار العالم أن رأى الوسط الذى يعيش فيه والجو المحيط به لا مهبط فيه لوحى الهدى ولا مبعث لسمو الالهام . « وأدت به خطاه طائعة مسبح أفكاره السامية الى زيارة ما خلفت الأيام الخالية من خرائب الآثار . فزار أثينا وتير وبعلبك والبطيح الذى كان مقاما لبيت المقدس وأبراج بابل المهدمة والاهرام الخالدة ومنفيس وطيبة وكل ما تخفيه تلال الحبشـة السوداء الصحراوية من عجائب النقوش على المسلات والمقابر وآباء الهول المحطمة . وهناك خلال المعابد الخربة حيث تقوم العمد والصور العجيبة لما هو أعظم من الانسان ، وحيث ترقب شياطين الرخام أسرار نيران الزوال ، وحيث يعلق السلف أفكارهم الصامتة على صمت الجدران المشتملة اياه — هناك ، أمهل الخطا مستذكرا العالم فى صباه محدقا طوال النهار المحرق بهذه الصورة الصامتة . وما كان القمر اذ يملأ الصالات العجيبة بظلاله المتموجة ليقفه دون متابعة استذكاره . بل ظل يحدق ويحدق حتى أضاء خلاء عقله نور كأنما هو الالهام القوى جعله يرى من خفايا الزمن يوم ولد ما يهز النفس» وهناك جاءت له صبية من بنات العرب بطعامه فكبلها غراما . لكنه ما لبث أن عاود تسياره خلال بلاد العرب والعجم والهند ، جوابا

ربوع الأرض وأقطارها باحثا عن الحقيقة ، حتى اذا كان يوما مستلقيا خلال غابة تظله رأى أثناء نومه « صبية مبرقعة تجلس الى جانبه وتتحدث فى أنغام مهوبة خفيضة بصوت كأنه صوت روحه حين يستمع اليه فى هدأة تفكيره .. وكانت المعرفة والحق والفضيلة مدار حديثها . كذلك كانت الآمال الكبرى فى الحرية المقدسة وما الى هـذه الآمال من أفكار هى أعز الأفكار عليه . ثم كان الشعر أن كان هو شاعرا » . وتجلت الصبية له فى خلال هـذه الآمال والأفكار والمنى فاذا جمال شخصها عدل جمال نفسها . واندفع محاولا ضمها اليه والامساك بها ، لكنها تراجعت ثم ابتلعتها ظلم النوم . ولم تجده محاولته اعادتها الا أن أيقظته الهزة فاذا القمر ينحدر الى المغيب وتباشير الضياء ترتفع خلال سجوف الليل . « اذن ضاعت هذه الصورة الجميلة ، وضاعت الى الأبد فى تلك الصحراء الواسعة لا طرق فيها ، صحراء النوم الكالح ! أفيؤدى باب الموت الأسود الى جنتك العجيبة أيها النوم ؟! » وينطلق الشاعر مفكرا أثناء تطوافه مستذكرا صورة النوم الجميلة ملفيا جمالها فى كل ما تخلع الطبيعة على الوجود من جمال . وفيما كان عند اليونان بصر بزورق لا مالك له فألقى بنفسه فيه ودفعه الى لج الموج يتقاذفه رجاء أن يجد الى الموت سبيله . وتدافع الموج والزورق حتى دفع به الى جبال القوقاز فى نهر تحيط به أحراش وغابات ، وهو خلال ذلك كله ما يكاد ينجو من خطر حتى يفجؤه خطر جديد يقرب له الأمل فى النجاة بالموت والعود الى صورته الجميلة التى أراه النوم اياها . وفى هـذه السياحة يشدو شلى متغنيا ببهاء الطبيعة وحلو حديثها العذب الى نفس بطلة الشاعر المشوق للموت

حتى يصل ببطله الى غايته . وفى سياحة الزورق هذه بين موج البحر وفوق لجة النهر يصف شلى فى النهر الذى أبدعه خياله ما نقل بصره الى حسه من آثار حين عوده من سويسرا راكبا نهير الميز ونهر الرين وما على شواطئهما من بدائع الجمال ، ويصف منابع التمس التى زارها بعد عوده الى انكلترا وحين هده المرض ، ويصف تلك المناظر الساحرة التى تهز القلب والفؤاد — مناظر شواطىء التمس كانت وما تزال مثال جمال قل فى الجمال نظيره .

قال شلى مقدما قصيدته هذه لقرائه : « والصورة ليست خالية من العظة لأبناء الحياة الحقيقيين . ذلك أن الشاعر فى عزلته وانحصار خواطره فى نفسه ، تثأر منه شياطين عاطفة قاهرة ما تزال تطارده وتخب به لتبلغ واياه الى الدمار السريع . على أن الذين لا يخدعهم خطأ سخى ولا يدفعهم ظمأ قدسى الى شك المعرفة ، ولا تضللهم خرافة باهرة ، ولا يحبون شيئا على هذه الأرض ولا يتعلقون بأمل وراءها ، ويقفون بمنأى عن التعاطف مع أبناء جنسهم ، لا يسرون بأفراح الانسان ولا يأسون لأحزانه — هؤلاء وأمثالهم يبوءون بلعنة عادلة : يذوون لأنه ما من أحد يشاطرهم الاحساس بطبيعتهم ، فهم أموات الأحياء لا هم أصدقاء ولا عشاق ولا آباء ولا هم من أبناء الدنيا ولا المحسنين الى بلادهم — وأخلق بالذين لا يحبون بنى جنسهم أن تكون حياتهم عقيمة وأن يهيئوا لأرواحهم فى كهولتهم قبرا موحشا » .

وانك لترى كل تلك المعانى التى أوردتها المقدمة متجلية فى أبهى صورها وأعظمها جلالا وروعة فى هذه القصيدة التى لا تزيد على سبعمائة وعشرين بيتا ، والتى تمثل حياة النفس لعباد الوحدة

وعشاق الطبيعة ، مصورة فى ألحان سماوية الموسيقى الى حد يحملك معه على موج أنغامها حتى لينسيك فيها جمال الأنغام بديع الصور ولينسيك ابداع الصور روائع التفكير ، ولتنسيك روعة الفكرة جمال النغم ثم تتزاوج الأنغام والصور والأفكار فيلد تزاوجها صورة الشاعر الشاب شلى فى وحدته المنقطعة وأمله المتهدم فى الحياة ومواجهته الموت فى رعدة تتغلب عليها قوة نفسه ، وانتصاره بعد ذلك على الألم وعلى المرض وعلى الوحدة وعلى الموت بهذه القطعة الخالدة من موسيقى شعر الآلهة .

وفيما كان شلى فى هذه الحال توفى جده السير بيش وآل اليه بالوصية ايراد سنوى يبلغ ستة آلاف من الجنيهات . ولو انه لم يكن فى شغل بتفكيره وبشعره ، ولم يكن ينظر الى مزيد المال على أنه جريمة تدفع الى النقص وتزرى بالفضيلة ، لناصب أباه الخصومة حتى يصل الى كل ما اوصى به جده . لكنه لم يرد الانقطاع لعرض الدنيا اذا وجد ما يسد حاجته ويكفيه شر دائنيه . لذلك قبل أن يرتب له أبوه من ذلك الميراث كله ألف جنيه فى السـنة تكفيه وتكفى مارى ، وتكفى من يلوذ به من صحبه . وردت اليه هذه الطمأنينة المادية شيئا من سكينة النفس كان فى أشد الحاجة اليه ليتغلب على مرضه . وتغلب بالفعل عليه . وبدأ فى سماء المجد يتألق له نجم ان لم يكن ساطعا سطوع نجم بيرون فقد كان موضع التقدير من بيرون نفسه . على أن الأقدار لم تكتب لنفسه طول سكينة يوما من الأيام . فقد بدأت مارى على جمال حكمتها ورجاحة عقلها تحس الغيرة لوجود جين معهما فى البيت . وزاد لهيب هذه الغيرة ضراما حين حملت فلم تستطع ملازمة شلى مما جعل جين

تصحبه فى جولاته وتعود واياه متوردة الخد فياضة القلب بما يبعثه شلى الى كل ما يتصل به ومن يتصل به من جمال الوجود . وما عسى أن يصنع شلى بازاء غيرة ماري الا أن يطأطىء لارادتها ويخضع لمشيئتها ، وبخاصة أن جعلها الحمل فى حالة عصبية تثير معها كل مناقشة اياها لمشيئة تعلنها دموعا تذرى وأنات ألم تقطع النياط الحساسة لقلب محبها الصادق الاخلاص ، والذى لا يرى مع ذلك فى الحب معنى الاثرة الذى يذكى الغيرة ، بل معنى التسامح التام والاشتراك مع كل من فى الوجود فى الاحساس والعاطفة . واضطرت جين لمغادرة المنزل وفى نفسها من الحب لشلى ما بغض ماري اليها ودفعها للتفكير فى الانتقام لانفتها الجريحة . ولم يعوزها طول بحث لتدبير الانتقام . فاذا كانت ماري تعتز بخليلها وما له من نبل ومجد ومال فلتتخذ هى خليلا لها أعرق من شلى نبلا وأعظم مجدا وأكثر مالا . وليكن هذا الخليل لورد بيرون نفسه . ولم تلق فى تحقيق غايتها عنتا . فلم يكن بيرون ينظر للحب نظرة شلى ولا كان يعبأ بالعفة ولا بطهر القلب . على أن ماري استراحت حين علمت بنجاح صاحبتها ولم يبق بعد عندها موضع للغيرة منها .

وظلت ماري فى سكينتها حتى وضعت طفلا لثمانية أشهر من الحمل فلم تقدر له الحياة . ولم يطل بها الحزن عليه أن حملت مرة أخرى وان وضعت غلاما أسمته باسم أبيها وليم . لكنها برغم سعادتها بهذا الطفل الثانى ورغم شعورها بكل ما فى الامومة من مزيد فى الحياة ، جعلت تحس وحدتهما وسط الجمعية الانكليزية تزداد وطأتها ثقلا عليها وعلى برسى . وأكثر من الشعور بالوحدة كان شعور آخر يهيج غيرتها بمقدار ما يهيج آلام زوجها ويبعث

الى نفسه نوعا من لذع الضمير طالما حاول اخفات صوته ، ثم ظل مع ذلك دائبا على تعذيبه • فقد أصبح هجره هاريت موضع حديث الناس وموضع لغو أصدقائه • وكان اجماعهم منعقدا على أن البائسة لم تأت اثما ولم تجن ذنبا ، وانما الذنب والاثم على شلى الذى هجرها وتبدل بها غيرها وظن أن لم تبق له جريرة عندها مادام قد ضمن لها ولأبنائها منه رزقها • وألح بالزوجين هذا الشعور فانتهيا الى استحالة المقام بانكلترا وضرورة هجرها الى حيث لا يعلم قصتهما أحد • واذ كانت هواجس مارى قد هدأت من ناحية جين وكانت هذه وحدها هى شريكة حبهما وصلتهما منذ نشأتهما ، فقد سمعا اليها حين اقترحت عليهما السفر الى سويسرا للمقام عند ضفاف الليمان على مقربة من جنيف • وزاد مارى اطمئنانا الى اقتراح صاحبة سرها ان علمت انما حملها عليه اعتزام بيرون أن يسافر الى تلك الناحية فرارا من اتهام الجمعية الانكليزية اياه بمعاشرة اخته اوجستا • فلن تعود بين جين وشلى اذا أية صلة ما دام بيرون سيقوم منها مقام شلى من مارى • واذا فليسافر ثلاثتهم الى ضاحية جنيف ولينتظروا هناك مقدم النبيل العظيم •

ووصل الجوار ثم وصلت الصداقة ما بين بيرون وشلى ، وزاد الصلة بينهما أن ظلت مقيمة عند شلى مترددة آناء الليل وأطراف النهار على بيرون • على أن أمتن ما قوى صلتهما كان الوسط الذى يعيشان فيه ، وسط سويسرا الشعرى البديع الذى يوحى الى النفس والقلب والفؤاد ما يملؤها شعرا ويزيدها للجمال قدرا • وكان هذا الوسط ، أول تعارفهما ، فى أجمل فصوله • فقد نزلا جنيف ابان بشائر الربيع فى مختتم ابريل ومفتتح مايو حين تبدأ

حياة الطبيعة يقظتها من سنة الشتاء ، وحين تبدو أوراق الشجر فى زهو خضرتها الجديدة ما يزال لها كل صباها وكل ما للصبا من بهاء وروعة ، وحين الثلوج ما تزال تغطى قمم الجبال وتكسو عوالى سفوحها كساء يتباين ضياؤه أثناء النهار ويكسوه شفق المغيب كما يكسوه مطلع الشمس ، من الأحمر القانى الى الأحمر المتورد ، بما يملأ خيال الشاعر بأجمل الصور ، وحين تنعكس سفوح الجبال وقممها الرفيعة على سطح مياه البحيرات حين يكون هذا السطح هادئا ، فاذا دفعت الريح المــوج متلاطما فوقه رأيت السفوح وأشجارها والقمم وثلوجها تموج متلاطمة هى الأخرى . قوى هذا الوسط صلة الشاعرين أن وجدا فيه خير مسرح لخيالهما المتوقد وأن شعرا فى شغاف قلبيهما بحب له يزداد استعارا كلما ازدادا من هذا الجمال الساحر نهلا . وذلك فرق ما بين حب الطبيعة وحب المرأة ، بل هو فرق ما بين حب المرأة وما بين حب كل جمال غيرها فى العالم . حب المرأة أنانى أثر غايته الحيازة والملك والمذلة والاسترقاق . فكل شركة فيه تنتهى الى الجريمة عهرا كانت الجريمة أو غيرة تنتهى الى القتل وماهو شر منه . أما حب الجمال فى غير المرأة فهو الحب الذى يفهمه شلى وينادى به ويدعو الى الشركة فيه . هو تقديس الجمال فى كل مظاهره والاشتراك فى هذا التقديس ليزداد بالاشتراك سموا وجلالا . وكم كان لجمال سويسرا واشتراك شلى وبيرون فى تقديسه من أثر فى شعرهما . على أنه مع ذلك لم يقرب بين روحيهما ، لأن كل واحد منهما كان يختلف عن الآخر فى نظرته الى الحياة تمام الاختلاف . فقد كان عقل شلى وقلبه وشخصه وكل وجوده شعرا خالصــا . كان لا يعرف شهوات

الانسانية ، ولا يخلط بنفسه وضيع عواطفها ، وكان لذلك يرى جمال الكمال ملموسا محسوسا ، وكان يصور كل ما يقع عليه حسه وكل ما يجيش بقلبه فى أنغام من الشعر والنثر لا أثر لغير روح الجمال وعبادته فيها • وانك لتعجب حين رجوعك الى ديوان شعره والى رسائله وكتبه ، اذ ترى كل سانحة من السوانح وكل منظر من المناظر وكل ما اتصل بشلى فى يقظته وفى نومه ، قد اكتسى ثوب الجمال ، واذ ترى هذا الجمال مصورا أنغـاما قدسية يختلط عليك حين تقرؤها أشعر هى أم موسيقى أم رسـم وتصوير • أما بيرون فكان شاعرا ، ولكنه كان انسانا له كل شهوات الانسان قوية غالبة عليه متحكمة فيه ، وكان يرى الجمال من خلال هـذه الشهوات فيشدو به فى شعره ساميا بهذه الشهوات نفسها الى سماء الشعر ملبسا اياها شفوف الجمال • وكان بيرون مشغوفا بالمجد تتسلط عليه شـهوته الى حد أشفق معـه عليه شلى كما أشفق عليه لضعف روحه ونزوله الى مراتب الانسانية الوضيعة رغم ما أنعمت به آلهـة الشعر عليه من جمـال فى النفس وسمو فى الفكر • وكم حاول أن ينزع به الى غير ما تدفعه اليه شهواته ، وأن يجذبه الى ناحيته ، ناسيا أن ليس فى مقدور انسان تحوير طبعه • ولم يتغير عليه بعد ما افترقا ، بل جعل يراسله طمعا فى انقاذه من براثن شهواته التى كانت فى نفس الوقت مصدر كل وحيه والهامه •

وبرغم ما امتلأ به قلب شلى من جمال سويسرا فقد كان دائم الحنين الى بلده • وكان حنينه قويا منذ أول مغادرته شواطئها وان كانت هى التى ألجأته الى هجرها والفرار منها • قال فى خطاب بعث

به الى صــديقه بيكوك يعبر عن تحنانه : « انكم لتعيشون على شواطىء نهر مطمئن بين تلال خفيضة تغطى الغابات سفوحها . ثم انكم لتعيشون فى بلد حر لا يحول بينكم وبين ما تعملون قهر ، وتطمئنون فيه الى ما يقع فى ملككم . وما بقيت هناك ممالك وما بقيت اعتبارات الأثرة التى تنطوى فكرة المملكة عليها ، فأنا واثق من أن انكلترا أكثر الممالك حرية وتهذيبا . ولعلك كنت حكيما فى اختيار طريق حياتك . على أنى وعدت واحتذيت مثالك فلن آسف على ما رأيت من ممالك أخرى . فلدينا لاريب كثير من الخشب والطيب ، وكثير يزدرى وكثير يمكن السمو به نحو الكمال . لكن ذلك كله لا يعرفه ولا يحس به من لم يبرح حدود وطنه . وما دام الانسان على ما هو عليه فان التجربة التى جربها لن تدعوه لاحتقار الأمة التى ولد فيها . بل على العكس من ذلك ، هو لن يقدر ما يربطه بوطنه من حب حتى يجعله الغياب عنه أشــد شعورا بجماله . فشعراؤنا وفلاسفتنا وجبالنا وبحيراتنا ، وقرانا ومزارعنا التى لا شبيه لها عند غيرنا — كل هذه روابط لن تنبت ولن تتحطم أو أصبح ولا ادراك عندى ولا حس لى » .

وربما فات شلى أن يذكر شيئا آخر يربطه بانكلترا ولا يقل عن كل ما ذكر قوة . ذلك عصفوره هاريت وابنتــه يانت وابن هاريت المنسوب اليه وان أنكر هو أبوته . فلقد كان كثير التفكير أثناء وجوده على شواطىء ليمان فى هاته التى ترك وان كان يعلم أنها فى طمأنينة مادية بما أجراه عليها من رزق وما يجريه أبوها عليها من رزق مثله . وكان يعلم من أخبارها أنها ساء سلوكها وانحدرت الى مستوى يقرب من الدعارة ، فكان يحس على نفسه فى ذلك

بعض التبعة ، ويحاول اقناع نفسه بما يزحزح التبعة عنه . ولئن كانت هاريت قد أساءت اليه أفليست بانت ابنته ويجرى فى عروقها الدم الذى يجرى فى عروقه . لكنه لم يكن يستطيع الاسراع الى مغادرة سويسرا ومارى متعلقة بها جريحة القلب من سوء صنيع مواطنيها بصاحبها وبها . لذلك اقتنى بالاشتراك مع بيرون زورقا جعلا من رياضتهما عليه فوق لج الليمان مستوحى لالهامهما . وكثيرا ما كانت تصحبهما مارى وجين ، فتتغنى هذه الأخيرة بصوتها الحلو الرقيق توقيع أنغامه على موجات هواء الجبال العذب الصافى ما يزيد الهواء والبحيرة والجبال جمالا وما يزيد الهام الشاعرين روعة وقوة .

على أن جين كانت قد حملت من بيرون منذ كانا فى انكلترا وآن لها وهم فى سويسرا أن تضع طفلة دعتها كلارا اللجرا . من يومئذ بغضت الى نفس بيرون . وازداد لها بغضا حين تحدث اليه شلى فيما يريد أن يصنع بالطفلة وبأمها . وكان بيرون فى هذا الظرف غليظ القلب مغاليا فى التبجح باحتقار خليلته واحتقار النساء جميعا واعتبارهن متاعا لشهوة الرجال الى حد لم تطقه الذكية الأنوف مارى ولم تطق معه البقاء على مقربة من هذا الذى يدعوه الناس نبيلا فاذا نبله قحة ، ويحسبونه شاعر الحب فاذا حبه شهوة واذا شعره غلظة كبد حتى على ابنته . واقترن هذا الشعور عندها بعاطفة البر بأبيها ، وذكرت تعاليمه السامية وآراءه فى المودة والتسامح والحب ، وشاركت شلى فى فكرة العود الى الوطن ، فكتب الى بيكوك يطلب اليه أن يستأجر له دارا (فيلا) على شواطىء النهر وبين الأحراش والغياض .

وعادوا الى لندن وفى عزم شلى أن يستقر بوطنه طول حياته ، غير ذاكر أن لا سلطان لأحد من الناس على مصيره ؛ جاهلا ما خبأته الأقدار له من فواجع تقض مضجعه وتضطره الى المقام بقية أيامه بعيدا عن انكلترا . فقد كانت فانى املاى تراسلهم حين كانوا بسويسرا ، وكانت رسائلهم لها تبعث الى حياتها البائسة خيطا من نور الأمل فى رؤيتهم يوما من الأيام . فلما عادوا الى لندن وعاشوا فيها عيش يسار استمتعت به جين ، مع وجود أمها فى بيت جودوين ترهق فانى وتعذبها فى حين كانت فانى أحق بهذا اليسار الى جانب أختها مارى ، ولما كانت لا تستطيع الالتجاء الى بيت شلى لتعلق قلبها به تعلقا يجعلها لا تطيق المقام الى جنب مارى ، بعثت اليهم صباح يوم من سنة ١٨١٧ بخطاب من برستول تقول فيه : « اننى ذاهبة الى مكان أرجو ألا أعود منه أبدا » . فسارع شلى بالسفر الى برستول ومنها عرف الى أين سافرت الفتاة ، وذهب الى الفندق الذى نزلت به فألفاها انتحرت بالسم وتركت خطابا تذكر فيه أن بؤسها كان سبب اختزالها أيامها وقضائها على حياتها .

وهز هذا الحادث قلب شلى وأعصابه . وزاده اهتزازا ما ذكرته مسز جدوين من أن فانى انتحرت لفرط حبها اياه حبا ضاع كل أمل فى أن يجد ما يحييه . وعن هزة قلبه يعبر فى أبيات ستة يقول فيها : « أصابت الرعشة صوتها ساعة رحلنا وما كنت أدرى ان القلب الكسير مبعثها ، فرحلت ولم أعن بما ألقت من كلمات . ايه أيها البؤس ! ان هذه الدنيا الفسيحة كلها ميدانك » على أن قلبه بلغ غاية الاضطراب لحادث آخر ليس دون هـذا الحادث

شناعة ولا قسوة ، ذلك أن هاريت بلغ من انخراطها فى اللهو أن حملت من أحد عشاقها وأن تقدم بها الحمل وأن شعرت اذ ذاك بما يتهددها من عار يسقطها أمام شلى ، ويرفع مارى فى نظر الجمهور عليها ، ويوقع على رأسها ما كانت تزعم أنها تدبره من أسباب الانتقام . فذهبت الى نهر ألقت بنفسها فيه ، فماتت منتحرة هى الأخرى . ولم يكن بين انتحارها وانتحار فانى الا أيام . وذكرت التيمس خبر انتحارها وسببه من غير أن تذكر اسمها . وكان هذا الخبر أقسى مما يستطيع شلى أن يطيق : دعارة ، فحمل ، فانتحار . يااللعار ! ويابؤس أبنائه بأم تلك خاتمتها ! ويابؤسه هو بحياة تسير مسرعة الذبول الى أوراق الربيع منها فتهجره ابنة عمه هاريت جروف وتعقه أخته اليزابث وتغتبط للتخلص من مس هتشنر وتتجافاه كرنلياترنر وتنتحر بسببه فانى املاى وهاريت وستبروك. ترى ألم يأن لهذا البؤس أن ينتهى وللقدر أن تهدأ عليه ثائرته ؟ .

لكن لا ! فقد طلب حضانة أبنائه من هاريت فخالفه فى ذلك أبوها وتقاضيا فأنصف القضاء الجد ، بحجة أن عقيدة شلى فاسدة ويخشى أن ينشىء أبناءه عليها . وانما خفف من هذا الحكم أن عهد القضـــاء بالحضانة الى من اختاره شـــلى مطمئنا على اقامته فى تربية أبنائه .

وأتاح له انتحار هاريت أن يعقد على مارى وأن تعود لذلك صلته بجماعة جدوين . وكان العوز قد ألح بمؤلف (العـــدل السياسى) حتى صار عالة على شلى هو أيضا وحتى جعله يعود الى الاستدانة من جديد . ولم يكن جودوين وزوجه وحدهما هما اللذان كفل شلى فى ذلك الظرف ، بل أعان صديقه لى هنت وكان

له خمسة أولاد من زوجه ماريان ، وأعان صديقه بيكوك كى يتابع كتابة روايات رأى شلى فى كتابتها خيرا واصلاحا للجماعة. مع ذلك كله، مع الاضطراب المالى ومع انتحار فانى وهاريت فى أيام ، ومع منازعة وستبروك اياه فى حضانة أبنائه ؛ فقد تحصن شلى بارادته الصلب وحاول أن يقهر كل هذه الآلام ويتغلب على كل المتاعب . وشلى ، على رقته وايثاره وعبادته الجمال وتعلقه بأنغام الشعر ، كان ذا عزيمة لا تعرف المستحيل ولا تقف فى سبيلها عقبة من العقبات . تحصن بهذه الارادة وحاول أن يظهر أمام الجمعية وكأن لم تفجعه فاجعة ولم تغير الحوادث التى مرت من نفسه . فابتاع بيتا ظريفا فى مارلو أقام فيه مع مارى وابنه وابنته منها ومع جين وابنتها من بيرون . على أن الارادة الصلب والعزمة القوية تستطيعان مغالبة الوجود وقهر المستحيل ما دامت الروح التى تحركهما وتصدران عنها مطمئنة قوية لم يندس اليها ما يضعفها ويزعزع ركنها . فأما أن ضعفت الروح واهتزت قوتها المعنوية فقل على الارادة وعلى العزيمة وعلى كل قوة من قوى النفس السلام . وقد هدت الحوادث التى مرت بشلى من روحه فتضعضعت وضعفت . وشعر بهذا الضعف فانطلق ملتمسا الوحدة كى يخفى عن الناس ضعفه . والأنوف المعتز بقوة نفسه لا يشعر بجرح ينال منه مبلغ شعوره بأن يراه الناس ضعيفا مثلهم خاضعا لتصاريف القدر خضوعهم . فى هذه الساعات التى ينال المرض فيها من جسم ذلك الأنوف أو تنال الحوادث من نفسه ، يود لو أن الانسانية كلها ولو أن أقرب الناس اليه من ذويه وأهله لم يكن حوله منهم أحد ليطلع على ضعفه أو يشاهد هبوط نفسه . وجعل شلى يذهب الى جزر

التمس المنقطعة يقضى فيها نهاره وشطرا من ليله يشاهد الطيور السابحة فى الماء والمحلقة فى الجو ، ويحاول استعادة سكينته بالتحليق فى عالم الشعر واستمداد القوة الروحية من وحيه . ولم يكن فى استمداده هذه القوة يرجو غير ما كان يطمع فيه أول صباه من تحقيق سعادة بنى الانسان . فقد زادته الحوادث التى كرت عليه ايمانا بأن نظام الجماعة الفاسد هو الذى دفع الى هذه الكوارث المتوالية وتلك المآسى الفاجعة التى تذهب باللب وتصدع القلب . وكانت قصيدته الكبرى الثانية — ثورة الاسلام — والتى كان يصقل فيها من قبل أن تفجأه الحوادث تباعا ، قد فرغ منها أو كاد . فوضع قصيدة أخرى أسماها « لاون وستنا » ضمنها مسارح أفكاره فى ذلك الظرف العصيب من حياته . وضعها أثناء تلك الجولات فى أحضان الوحدة مقتضيا نفسه أن يكون فيها مثال سمو فوق المرض والألم وكل أسباب الضعف الانسانى الذى لا يليق بأمثاله ممن يؤمنون بأنهم يقبضون بيدهم على ناصية الوجود .

ولم تكن جولاته ولا كان شعره ليرد اليه طمأنينة نفسه أو ليدفع عنه غائلة همومها . بل لقد جنت هذه الهموم على صحته وردت اليه مرض صدره وجعلته يفكر جادا فى وسيلة البرء من علته . كتب الى جودوين فى ٧ ديسمبر خطابا يصف له فيه حاله جاء فيه : « وكانت صحتى أسوأ بالفعل . فان مشاعرى لتهبط أحيانا الى حد الذهول والموت ، ويبلغ بها التوتر أحيانا أخرى الى حد غير طبيعى من التهيج . ولأقتصر على مثل ما يعذبنى خاصا ببصرى . فان أوراق الحشيش وغصون الأشجار البعيدة لتبدو لناظرى بدقة

مكرسكوبية • فاذا أقبل المساء غرقت فى بحار من الهبوط وضعف الحياة وبقيت مستلقيا — فى كثير من الأحايين — ساعات على المضجع وأنا بين النوم واليقظة فريسة تهيج ذهنى مؤلم أشد الألم • ذلك أمرى الا فى قليل • أما الساعات التى خصصت للبحث فقد اخترتها بعناية من بين الساعات التى استطيع المقاومة فيها • على أن ذلك كله ليس هو سبب تفكيرى فى السفر الى ايطاليا ، طمعا فى أن تنقذنى منه • كلا ! بل لقد عاودتنى نوبة صدرية • ولئن كانت قد انتهت الآن غير تاركة وراءها أثرا لوجودها الا أن هذا العرض دلنى على حقيقة المرض الذى يؤويه صدرى • ومن مصلحتى أن يكون هــذا المرض بطبعه بطيئا وان الانســان اذا عنى بتتبع تقدمه استطاع التغلب عليه والبرء منه فى جو دافىء • فاذا عاد هذا المرض على صــورة واضحة أصبح واجبا على أن أسارع بالذهاب الى ايطاليا • على أنا انما نسافر حين يصبح السفر واجبا محتوما ، لمخالفة هذا السفر لمقاصدنا أنا ومارى متأثرين بعواطفنا نحوك • وأحسبنى فى غنى عن أن أذكرك ، فضلا عن آلام الذين يعيشون بعد موت عزيز عليهم ، بسلسلة النتائج السيئة التى تترتب على موتى • وانما يحملنى على هذه الصراحة القاسية ما بدا لى من أنك لم تدرك حقيقة مقصدى • فليست الصحة وانما هى الحياة التى أبحث عنها فى ايطاليا • ولست أبحث عنها من أجلى ، فأنا أشعر بالقدرة على نفسى ازاء مثل هذا الضعف ، وانما أبحث عنها من أجل أولئك الذين تفيض عليهم حياتى سعادة ومنفعة وأمنا وكرامة ومن بينهم من ينقلب عليه أمر هذا كله الى النقيض اذا أنامت » •

وما يشير اليه شــلى من سوء فهم جدوين اياه هو تأويل

جدوين سفر صهره الى ايطاليا بانه الفرار من معونته المالية . على أن مارى لم تبرح انكلترا حتى كفلت لأبيها عن طريق شلى رزقا يقيه فى شيخوخته ، كما كانت طوال اقامتهم فى ايطاليا لا تنفك تعينه بتخصيص ما يقع لها ثمنا للروايات التى تكتبها لمعونته ، وبدفع شلى ليزيد فى هذه المعونة جهده . ولعل احساسها بحاجة شلى الى السفر كانت أشد من احساسه هو . فقد أثقلتها جين وابنتها وطمعت حين وجودهما على مقربة من بيرون أن يضمها اليه . على أنهم ظلوا ينظمون شؤونهم ويبيعون دارهم فى مارلو ويقتضون الناس فيها ما يستطيعون اقتضاءه منهم حتى استطاعوا اعداد أهبتهم للسفر ، وسافروا فى منتصف مارس سنة ١٨١٨ قاصدين ميلانو ليذهبوا بعد منها الى البحيرات الايطالية آملين أن يجد شلى فى شمسها وهواء الجبال عندها ورقة الطبيعة المحيطة بها ما يشفى صدره ويرد اليه سكينة نفسه .

— ٥ —

غادر شلى انكلترا قاصدا ايطاليا فى مارس سنة ١٨١٨ . غادرها مستصحبا زوجه مارى وابنيهما وليم وكلارا ، ومستصحبا كذلك جين كليرمون التى كانت تطمع فى أن ترى ابنتها من بيرون فتروى غلة قلبها الظمىء شـوقا لها . ومروا بليون فجبال الألب حتى نزلوا ميلانو . ومن هناك قصدوا البحيرات الايطالية التى كانت منذ القدم مغنى الشعراء وملهمة الموسيقيين والمصورين ورجال الفن جميعا . وأعجب شاعرنا بهذه البحيرات و (بكومو) منها بنوع خاص ، حتى لرأى أن ليس يعدلها أو يزيد عليها جمالا غير بحيرات كلارنى الارلندية . على أنهم لم يجدوا فى منطقة البحيرات

الدار التى تعجبهم فعادوا الى ميلانو حيث وجد شلى فى كنيستها ملجأ تطمئن له روحه التى كانت ثائرة من قبل على كل كنيسة وعلى كل دين • وكنيسة ميلانو جديرة بأن تطمئن النفس لجمال ظاهرها وهيبة داخلها هيبة تبعث الى النفس طمأنينة الاسلام للحياة ولما بعد الحياة • لكن أمر شلى لم يقف عند حد الاعجاب بجمال كنيسة ميلانو وهيبتها ، بل ان نفسه التى كانت جموحا ثائرة على كل شىء قد وجدت فى آلام الحياة وصدماتها المتوالية ما هد من ثورتها وما أراها ضعف الانسان وعجزه التام أمام الوجود ، فعاد الى نوع من الايمان بعظمة الوجود ممثلا فى الكنائس والبيع وبيوت الله جميعا ، وجعل يرى فيه ملجأ يحتمى به الانسان من ضعفه ، بل يستريح فيه الى هذا الضعف ويطمئن له •

ومن ميلانو كتب شلى الى بيرون فى شأن اللجرا منبئا اياه بوجود أمها معهم • ورد عليه بيرون معلنا ، فى صراحة وقحة ، أنه لن يرى لجين وجها ولن يسمح أن تعرف اليه طريقا • ورأى شلى أن لا وسيلة للتخفيف ولو بعض الشىء من حدة صاحبه الا أن يذهب اليه فى البندقية • وغادر مارى وابنيهما وذهب مستصحبا جين التى ألحت فى السفر رجاء أن ترى ابنتها ولو خلسة ومن غير أن يعلم بيرون بوجودها • وتقابل الشاعران وتحادثا فى الأمر حديثا انتهى بيرون معه الى السماح بأن تقيم الطفلة مع أمها وشلى فى دار له بناحية « است » شهرين كاملين على ألا يكون لجين بعدهما مطلب عنده أو رجـاء فيه • وأعجب شـلى بالمدينة السابحة غرقى فى لجة الادرياتيك وبجزرها وكنائسها وبهوائها العطر بأريج الحب المتغنى والها فترات من الليل بأناشيده ، الذاهب

فى المتاع به الى حـدود الاستغفار عنه باقامة الكنائس الكثيرة علها تسع ذنوب أهل المدينة جميعا وعلى احداها تكون أقرب من الأخرى الى دعاء مستجاب .

ورأى بعد الذى عرضه بيرون وبعد ذهابه وجـين وابنتها الى است أن المكاتبة بينه وبين مارى أصبحت لا تكفى فدعاها لتقيم معهما . ومن هناك عرفت مارى البندقية وتعلقت بها وبرمال الليدو ومصيفها . على انها ازدادت من بعد بهذه الرمال تعلقا أن خلفت فيها ذكرى فاجعة هى الأولى فى حياتها . فان شهرى «است» ما كادا يقاربان التمام ليعود شلى ورهطه الى ميلانو حتى كانت ابنته كلارا قد مرضت . وبرغم ما بذلت أمها من عناية بها ظل المرض متابعا سيره حتى رأوا ضرورة الذهاب الى البندقية لاستشارة طبيب رجوا أن يكون أكثر من طبيب « است » حذقا ومهارة . لكنهم ما لبثوا أن وصلوا هناك حتى كانت الفتاة فى آخر لحظاتها وحتى أسلمت روحها البريئة الطفلة قبل أن يحاول طبيبها الحيلولة بينها وبين بارئها . وذهب شـلى وذهبت مارى يحملان الجسم الصغير الى الليدو فدفناه فى رماله المختلطة صفرتها البهيجة بزرقة الموج المحيطة بها والدائمة الصفو برغم ما تحوى من أجداث ورموس يخلع عليها جلالها جالا .

وجرحت أمومة مارى جرحها الأول وعرف الحزن الى قلبها السـبيل . لكنها سرعان ما تعزت وظهرت بمظهر القوى الذى لا يتزعزع حين تمر به أعاصير القدر . وكان مظهرها هذا بعض تعاليم أبيها . فنحن فى الحياة نؤدى للحياة واجبها بالبر بالانسان والعطف عليه ، وبتخليد النوع والقيام على تربيته ، وبنشر العرفان

والنور والعمل لتمتلىء بها القلوب جميعا ، وبالجهاد فى سبيل الحرية كى تتمتع بها البشرية كلها • وما أحسنا أداء هذا الواجب فمن حقنا أن نكون سعداء أيا كانت النتيجة التى يسفر عنها عملنا • وكل شر لا سلطان لنا عليه ولا قوة لنا فى دفعه لا موضع للأسى من أجله ، وثكل الوالد ولده بعض مالا سلطان لنا عليه من أعاصير القدر ، فليكن موقفنا منه موقف اباء وكرامة لا موقف ضعف وحزن • ليكن موقفنا منه موقفنا من خصم يناوئنا ليبتز مالنا ، أفترانا اذا ابتزه فأتلفه خاضعين له متخاذلين أمامه ؟ أم أنا على العكس من ذلك نزداد أمامه كبرا وأنفة ؟ كذلك ظهرت مارى أنوفا لم يعرف الهم ولا عرفت الدموع الى عينها ولا الى قلبها سبيلا • ولعل هذه التعاليم لم تكن وحدها مصدر شجاعتها ومبعث قوتها • فهذا ولدها وليم ما يزال فى أحضانها فلها فيه عزاء • وهاهي ذى ما تزال ، كما لا يزال شلى، فى مقتبل العمر وقوة الشباب، فما يزال لهما فى المستقبل وأبنائه وبناته وسعادته رجاء • وكلارا التى فقدت كانت ما تزال بعد طفلة يعد عمرها بالشهور ، فلا موضع للأسى عليها حتى عند أشد الناس تخاذلا أمام الحزن الا بمقدار •

فأما شلى فقد احتمل موت طفلته فى سكينة ، ثم احتمل نفسه وأهله وسافر واياهم من البندقية • وكان يشعر بأن المقام فى شمال ايطاليا ، وبخاصة عند مقدم الشتاء ، ليس مما يبعث الى نفسه السكينة والى صدره دوام ما يرجو له من عافية وبرء ، فساروا منحدرين جنوبا حتى وصلوا الى روما حيث زار شلى من آثار المدينة الخالدة مازاده قدرا لشعر فرجيل ولشعر دانت • وبعد اقامة قصيرة بها قصدوا الى نابولى • وهناك على شاطىء خليجها الساحر

البديع ألقى شلى عصا تسياره آملا أن يجد فيها الطمأنينة التى تيسر له الانخراط فى خيالاته وتأملاته وتتيح له أن يتم قصيدته (بروموتيه الطليق) ينادى فيها كما نادى فى قصيدة (الملكة ماب) بمبادىء الحرية والفضيلة ، ويضع فيها الانسان بازاء قوى الطبيعة وما وراء الطبيعة وقد قيدته كلها بقيودها فاذا هو يحاول من طريق ارادته ومن طريق حرية فكره أن يحطم هذه القيود وأن يتغلب على هذه القوى وأن يقف منها جميعا موقف المتحكم فيها المسير لها ، ثم اذا محاولته تنتهى به الى الفوز على القوى جميعا بفضيلة صدق العزيمة والايمان بالحرية وتقديس الحياة والجمال فيها وبالحب الطاهر الذى لا يعرف الأثرة ، وانما يشترك فيه الانسان وسائر مافى الكون اجلالا وتقديسا لما أبدعت الحياة فى الكون من جمال وجلال . وهو يضع قصيدته هذه فى صورة الرواية التمثيلية جاعلا أشخاصها آلهة الأولمب وعلى رأسهم جوبتر ومن حولهم الأرض والمحيط وعذاراه والكون وأرواحه والكواكب وأفلاكها والوقت وانسيابه ، و (بروموتيه) بازاء ذلك كله يجاهده وينتصر عليه . وهو هنا يخالف الأسطورة القديمة التى تجعل هذا البطل وقد كبلته الآلهة وألزمته قيده بسبب محاولته مناجزتها والتغلب عليها بالعقل والحيلة . وان كثيرين من النقاد ليذهبون الى تفضيل هذه القصيدة من قصائد شلى على كل ما سواها ويعتبرونها الدرة من شعره . فأما آخرون فيذهبون الى تفضيل رواية (سنسى) اذ يرتفعون بها الى مقام روايات شكسبير . على أن (بروموتيه) قد نسجت على غير طراز (سنسى) . فبينا هذه الأخيرة ، على ما سترى ، تعبر

عن حب آثم يقع فى الحياة بين أب وابنته اذا بتلك تتخذ من الكائنات كلها ومن الوجود وما فيه بعض مسرحها . وهى فى هذا قد سارت على طراز قصيدة ملتون (الفردوس المفقود) وان اختلفت عنها قوة بأن ارتفعت عليها فى بعض المواضع ولم تصل الى رفعتها فى مواضع أخرى .

ولم يطل بشلى المقام فى نابولى . وكأنما كانت يد القدر التى قست به حين مقامه على أرض وطنه فجعلته لا يطيل المكث فوقها الا ليعود الى الارتحال عنها محملا هموما وآلاما ماتزال لم يهدأ ثائرها عليه برغم ما كان يبدع فى الشعر من آيات ليست القصائد الكبرى الا بعضها . فلقد مرض ولده وليم أثناء كانوا فى طريقهم عائدين الى روما . وخيل الى مارى أن الأمر يسير وأن القدر لن يفجعها فجيعتين متواليتين ولن يسلبها هناءة الأمومة وهى ، بعد حب الصبا ، كل ما للمرأة فى الحياة من عزاء . وعاد الطبيب الطفل فنصح اليهم أن ينتقلوا به شمالا . لكنهم لم يكادوا يتهيأون للرحيل حتى أصابت الطفل نوبة من «الدوسنطاريا» ألزمتهم المكث الى جانبه وبقى شلى ستين ساعة ممسكا بيد طفله خائفا أن يفر الطفل منه الى غيابات الأبد . ذلك بأنه كان طفلا ذكيا عطوفا رقيقا ، وكان جميــل الصورة الى حد سحر النسوة الايطاليات بزرقة العينين زرقة جذابة وبشعره الذهبى المتموج تموج الحرير الناعم نعومته . ثم انه كان قد أصبح وحيد مارى بعد موت أخته كلارا ، فالفجيعة فيه تحيى من قلبها الفجيعة الأولى وتسدل على وجهها الضحوك وعلى ثغرها العذب الابتسام سحابة كآبة وهم يصيب شلى منهما حظ غير قليل . وكان لشلى فى القدر رجاء التصرف

بحكمته ازاء طفل لم يقترف ذنبا يجزى من أجله بالموت بله المرض وآلامه وتباريحه . لكن المرض والموت وكل ما يصيبنا فى هذا العالم من خير وشر ليس فى نظر القدر جزاء عمل من أعمالنا ، ولكنه لوح كتابنا لا مفر لنا من الاذعان له والسير فى خطواته . لذلك لم يعبأ بما كان مرجوا عند شلى ومات الطفل ودفن فى مقابر الانكليز بروما ، هذه المقابر التى أعجب بها شلى وتمنى لو يدفن فيها ، ولم يكن يومئذ يعلم أن مابقى من رفاته سيرقد هناك الى جانب جثمان طفله .

مات وليم فانهارت عند مارى كل تعاليم أبيها وأسلمت للألم نفسها ولم تطق للوجود جلادا . سكب الهم ظلمته فى قلبها واتشح الوجود كله بالسواد أمام بصرها ورسم الحزن على ثغرها وفى نظرتها صورة اليأس والبؤس وشرد لبها الى قفـار الانتحار ، وصورت لنفسها خاتمة أختها فانى املاى . وعبثا حاول شـلى تعزيتها بالترويح عنها بأن انتقل بها الى الريف من روما وأسكنها قصرا جميلا يحيط به الزهر والشجر . وما بهجة الزهر وخضرة الشجر أمام قلب كسير وبصر حزين ؟! انها كلها تنقلب سوادا وتزيده على همه هما وأسى . بل تصبح ضحكات الزهر بعض سخرية القدر ، وابتسامة الخضرة شماتة بنا فى مصابنا . وعبثا حاول أبوها لما علم عمق حزنها أن يردها الى صوابها والى تعاليمه . فالصواب والتعاليم والمنطق والعقل أوهام وصور ما تلبث أن تطير وتتلاشى اذا هى ارتطمت بقسوة الواقع . وأى واقع أشد قسوة من الموت ، بل من الثكل ، ثكل الأم لوحيدها ولأمومتها ؟ وشلى وحبه وحنانه أصبح هو الآخر مملولا ، ثم نسى كما نسى

غيره أن لم يبق من الوجود أمام مارى الا حزنها مجسما فى ذلك القبر الذى أوت اليه رفات وليم . فاذا ناداها شلى قائلا : « أين ذهبت ياعزيزتى العزيزة مارى تاركة اياى وحيدا فى هذا العالم القفر ؟ ان صورتك الساحرة ما تزال هنا الى جانبى ، لكنك أنت قد فررت عن طريق الوحدة المؤدى الى صوامع الحزن المظلم » . اذا ناداها شلى هذا النداء لم تزد على أن تمعن فى التماس صوامع الحزن تاركة اياه يبحث عن عزائه فى خير دواء لكل ألم وخير بلسم لأبلغ جرح : فى العمل المتصل لأداء ما ألقت عليه الأقدار رسالته كى يشدو بها الى العالم أنغاما سماوية . وأعانته سماء ايطاليا الصفو على متابعة تفكيراته وشدوه . على أن القدر الذى قسا كل هذه القسوة بمارى لم يلبث أن دس اليها من عنده بلسم عزاء . فقد حملت وأحست فى أحشائها روح الأمومة من جديد ، لكنها كانت فى خشية من معابثة القدر فظلت على عبوسها وان زالت سحابة الهم التى كانت تظلها مما جعلها تنظر للحياة مرة أخرى نظرة رجاء . ولما اقترب موعد وضعها ارتحل بها شلى الى فلورنسا لتكون فى رعاية طبيب صالح ، ثم ان فى جو فلورنسا الجميل ما يضاعف الرجاء لمن لديه ولو قبس من رجاء ، فيها أجمل ما فى ايطاليا من الآثار ، ويضوع ريحها باسماء دانتى ، وسافانارولا ، وجيوتو ، ودوناتلو . لذلك كانت للزوجين خير موئل . فيها وجد شلى خير ما يلهم شاعريته التواقة للجمال تلتمسه فى كل مظاهر الفن والطبيعة ، وفيها وجدت مارى مزيدا فى رجائها . حتى اذا وضعت وألفت نفسها أما من جديد فى ذراعيها طفل حملته أحشاؤها عاودت ثغرها أول ابتسامة من يوم مات وليم ، ودعت الوليد برسى فلورنس شلى ،

اعترافا بفضـــل زوجها فى تقويتها على اجتياز محنتها ، وبفضل فلورنسا التى عادت اليها فيها أمومتها وحياتها ورجاؤها ٠

ولما جاء الشتاء وقرس البرد فى المدينة « الجميلة » نصح الطبيب الى شلى بالسفر الى بيزا ، فذهب بأهله اليها وأقاموا بها ٠ وهنا تألفت حول شلى جماعة يعيش كل منهم عيش العزلة ، فلما وجدوا هذا الدائم الترحال استقر بينهم أحاطوا به وانضم اليهم قسيس لقبه أهل البلد بشيطان بيزا واسمه الأستاذ المبجل باكشيانى ٠ وكان قسيسا قليل الدين واستاذا لا يعلم الناس شيئا وزير نساء ومحبا خدمة معارفه ٠ وكل من يمر ببيزا كان يصبح من معارفه ٠ وقد قص هذا الشيطان على شلى قصة استدعت كل التفاته ٠ ذلك أن للكونت ففيانى ، أحد كبار أعيان بيزا ، فتاتين من زواج أول ، وأنه لما تزوج ثانية بعد وفاة زوجه الأولى ذهب بفتاتيه الى الدير ، أن كانت زوجه شديدة الغيرة منهما لفرط جمالهما ٠ وكان جمال كبراهما (امليا) رائعا روعة جمال الملائكة ، كما كان ذكاؤها حادا وخيالها متوقدا بما يبعث الى كل نفس أشد الاعجاب بها والاشفاق عليها ٠ وكان قصد أبيها من الذهاب بها وبأختها الدير أن يقيما فيه حتى يتزوجهما من شاء من غير أن يمهره الأب عنهما شيئا ٠ فلما سمع شلى بالقصة هاجت فى نفسه كل عواطفه القديمة ٠ أليس هو يريد الكمال مجسما فى انثى لها جمال المرأة وعقل الرجل ؟ وهـــذا هو قد ضل تقديره الكمال فى هاريت جروف وهاريت وستبروك ٠ وها هى ذى مارى جدوين وان كانت ما تزال من خير النسوة اللواتى عرف الا أنها أصبحت أمامه جسما محسوسا ذا حدود وأبعاد وذكاء متجليا له كل ما فيه من حكمة وشعر ، فلم يبق اذن

فيها المجهول الذى يبحث هو دائبا فى الكشف عنه والوصول اليه ! فلنر اذن ما عسى أن تكون اميليا فيفيانى هذه من صور الكمال وما عسى أن تلهمه من رائع الشعر والحكمة •

ولمح القسيس الشيطان هذه النوازع فى نفس شلى فعرض عليه أن يصحبه الى الدير • وما لبثت الفتاة أن دخلت عليهما المنظرة حتى سحر شلى وذهب به : قوام رخص فى لدونة واعتدال ، تخلع عليه ثياب الدير البسيط زينة وانسجاما وتزيد بهاء ما فيه من جمال فى كل انثناء وتنوء • ومشية هى للعين أنغــام تموج فى النفس والخيال فتهزهما وتبهرهما • وشعر فاحم السواد ملقى على اكتافها ليزيد وجهها البديع القسمات وضوحا وبهرا • وعيون دعجاء تفيض نظراتها حبا شهيا فيه قوة تلتهم من تقع عليه التهاما • وجبين مصقول ، وأنف أقنى ، وثغر عذب وشفاه تحدث عن فيض الرغبة • والى هذه الأنوثة القوية الجذابة بريق ذكاء يبدو بصيصه من حدق عيونها السوداء قويا ملتهبا • وألفت الفتاة ساعة دخولها المنظرة عصفورا فى قفص ، فتوجهت اليه بهذه الكلمات : « أيها الصغير المسكين ! • انك لتموت اكتئابا ! فما أشد اشفاقى عليك ! • ألا كم تتألم حين تسمع أسراب أمثالك تناديك ثم تطير مع الرياح من غيرك الى بلاد مجهولة ! أنت مثلى محتوم عليك أن تقضى هنا فى سواد حظك • أواه ! لو كنت أستطيع انقاذك ! » • وانطلقت مرتجلة مثل هذه العبارات بصوت عذب ساحر تزيده اللغــة الايطالية بموسيقاها ســحرا وعذوبة • وزادت أنشودتها للطائر الحبيس بهر شلى فاستأذنها أن يعود اليها وأن يستصحب زوجته واختها ، فرضيت طيبة النفس •

وتزاوروا وتكاتبوا وأبدت مارى اعجابها بجمال امليا وتقدير شلى اياه على انه الجمال الاسمى . أما شلى فانطلق من فوره يضع قصيدته (ابسشديون) يصف فيها الجمال والحب ويدعو فيها املى لتذهب واياه الى قصر قديم فى جزيرة أبدعها خيـاله بين جزر الادرياتيك ليعيشا هناك وليسبحا بين جمال تلك الجزيرة وأشجارها وأنهارها فى عزلة لا ينغصها عليهم أحد من الانس . وانك لتقرأ القصيدة وتبلغ أبياتها أربعة وستمائة بيت فلا ترى فيها أكثر من هذا الذى ذكرنا . لكنك تراه اثيريا يطير بك فى عالم الجمال وينسيك نفسك بموسيقاه وحلاوة صوره وبديع خياله وينساب الى روحك عذبا سلسبيلا فلا تزداد الا تعلقا به وتقـديرا اياه . وفى ختام القصيدة يقول : « اذهبى أيتها الأبيات الضعيفة فاسجدى عند قدمى سيدتك وقولى : اننى سيدة عبدك فمرى أمرك فينا وفيه . ثم تنادين مع اخواتكن من سائر شـعرى واسجعن متغنيات : عذب فى الحب حتى آله . لكن جزاءه فى هذا العالم قدسى لأنه ان لم ينلنا فى الحيـاة تبعنـا الى ما وراء قبرنا . وأنت لا ريب ستحيين فى حين أكون أنا قد أويت الى هناك . فاسرعى فوق قلوب العباد حتى تقابلى ماريتا وفآنا وبريموس وسائر صواحبك ، ثم أهيبى بهن أن يحب بعضهن بعضا وأن يبارك بعضهن بعضا ، ودعى فيما وراءك قطيع الخاطئين الطاعنين على غيرهم بخطاياهم وتعالى فكونى ضيفى — فانما أنا ضيف الحب » .

وقبل أن يتم قصيدته ، تزوجت اميليا من غنى اسمه بيوندى قبل أن يعقد عليها من غير أن يمهرها أبوها . فلما علم الشاعر بأمرها أسقط فى يده ولم يطق اتمام قصيدته . فهاهى ذى رمز الحب فى طهارته

قد فعلت فعلة ابنة عمه هاريت جروف وفعلة النساء جميعا ممن عرف • هاهى ذى سقطت الى مستوى القطيع تاركة اياه يعض البنان ندما على خطئه فى أمرها ويصب عليها اللعنة ان أضاعت عليه وحيه والهامه •

وفيما كان شلى فى هيامه باميليا كان بيرون يتخطى خليلة الى خليلة حتى انتهى الى أجمل نسوة البندقية وتدعى جيوكشولا • وكانت من عائلة نبيلة ومتزوجة رجلا نبيلا • لكن صـلة المرأة بخليل لم تكن فى البندقية يومئذ أمرا ادا ، حتى فى نظر زوجها • على أن هذه السيدة اضطرت للسفر مع هذا الزوج الى رافنا ومن هناك دعت بيرون ليترك البندقية ويقيم عندها • فلما تلكأ بعثت اليه تخبره بأنها مريضة فطار اليها وأقام الى جانبها • وكما انتقل هو من البندقية فقد نقل ابنته اللجرا الى بولونيا • فلما علمت جين كليرمونى بأمر ابنتها بعثت الى بيرون تستعطفه أن يبعث بها اليها • فرد عليها ردا غليظا يقول لها فيه : ان التربية فى بيت شلى على أساس النباتية فى الحياة المادية والالحاد فى الحياة الروحية مما لا تطمئن له نفسه ، ورفض أن يسلم البنت لها • فجن جنونها وبعثت اليه بخطابات قاسية اعتذر له عنها شلى فى خطاب بعث به اليه يقول فيه : ان جين أم ، وانه وان لم يطلع على ما تكتب لوالد ابنتها الا انه يرجوه أن ينظر اليها بعين الرحمة والمغفرة • لكن بيرون رأى فى هذا كله ما أغضبه ، فأراد أن ينتقم لنفسه من شلى • وكان قد وصله خطاب من قنصل انكلترا فى البندقية ، يقول له فيه : ان الناس يتهمون شلى بمعاشرة جين ، وان مربية كانت فى خدمة شـلى تذيع أن جين حملت منه فأجهضها فى نابولى حين كانت

زوجه فى روما . وتنفيذا لانتقامه بعث بيرون يستدعى شلى الى رافنا « لامور خطيرة » . فلما كان عنده أطلعه على خطاب القنصل مما هاج ثائرة شلى وجعله يكتب الى زوجه يطلب اليها أن تكذب ما تذيع خادمهم الخؤون . وأظهر بيرون اقتناعه بما كتبت مارى وان لم يقم بأى مجهود لدى القنصل فى البندقية يبدد به ما علق بذهنه من أكاذيب .

وزار شلى اللجرا فى الدير الذى بعث بهـا اليه أبوها ، فى بانيو كافالو ، فألفاها كبرت ولكن النحول بدا عليها . ومع نحولها بدت وسط الأطفال قريناتها فى جمال جـذاب يدل على أنها أرق منهن وأرقى منبتا . غير أن حياة الدير كانت بحيث تعرض صحتها بل تعرض حياتها للخطر .

وكانت خليلة بيرون معتزمة السفر الى سويسرا . فطلب بيرون الى صديقه أن يكتب اليها ، ولو لم تسبق له بها معرفة ، ليقنعها بالعدول عن فكرتها والذهاب الى فلورنسا أو الى بيزا . وفاضت السعادة بشلى حين علم أنها قبلت الذهاب الى بيزا للمقام على مقربة منهم . ولم يبد بيرون اعتراضا أن كانت جين قد تركت تلك المدينة الى فلورنسا حيث قامت بأمر التعليم فى احدى مدارسها . ولم يلبث اللورد أن نزل المدينة الصغيرة التى يقيم فيها شلى حتى أبدت جمعيتها كل الاعجاب به ، فصار قصره مقصد المتأنقين فى حين بقى شلى الرسول الروحى لأهل المدينة جميعا . وكانت حياة بيرون حياة ترف لم يطقه شلى . فقد كان يسهر الليل كله ثم ينام فى الصباح الى ما بعد الظهر ويذهب من بعد ذلك للصيد ويعود الى سهره ، ثم الى مكتبه ليدبج قصائده التى استوقفت أنظـار

انكلترا كلها فكانت تلتهمها التهاما . وكان حقا على شلي أن يحتمل هذه الحيـاة زمنا كان يعتبره صاحبه ضيفا عليه فى بيزا . لكنه ما لبث أن رأى مارى تريد الانخراط فى سلك هذه الجماعة المترفة حتى صدف عنها وعاد الى حياته البسيطة الأولى . ووجد فى أسرة انكليزية مقيمة ببيزا ما يسر له الابتعاد عن بيرون وجماعته . تلك أسرة وليمز وزوجه جين . وكانت جين وليمز رشيقة رقيقة هادئة النفس موسيقية الصوت يريح وجودها أعصاب من يتصل بها . وكان صوتها حلو الغناء مما أتاح لشلي أن يذهب وهو معها فى أحلامه الشعرية وكأنه يسير وسط حديقة غناء ، وزاده اعجابا بجين وليمز ما دأبت عليه مارى من الشكوى من أنها لا تجد من أسباب المسرة فى الحياة ما يجد غيرها .

وكان لأسرة وليمز صديق بحار من الأشقياء يدعى ترلونى . وقد دعوه الى بيزا ، فاشترط أن يكونوا سبب تعارف بينه وبين شلي ، وبينه وبين بيرون بنوع خاص . فوعده وليمز بهذا ولم يكن عليه عسيرا . وجاء ترلونى فانضم الى عصبتهم . ولما ربطت المعرفة بينه وبين شلي برباط وثيق طلب اليه أن يبنى له ولوليمز يختا يشتركان فيه ، واختار لنفسه ولوليمز بيتا على الشاطىء قريبا من بيزا فأقاما فيه ومعهما مارى وجين ، وجعل شلي من يخته مركبا لرياضته وخيالاته وأحلامه ، وشعر بالسعادة تفيض عنه وبآلهة الشعر نواتيه بالهامها من كل جانب .

والحق أن آلهة الشعر لم تضن على شلي بالهامها يوما من الأيام . لكنها كانت فى هذه الفترة وخلال الأربع السنوات والنصف التى أقامها فى ايطاليا أشد بالهامها فيضا ، حتى ليدهش الانسان حين

يرجع الى ديوانه متى استطاع أن يكتب هذا الشعر الملائكى كله ، ثم ليزداد دهشة اذا رجع الى رسائله والى نثره فرآها لا تقل عن الهامه الشعرى غزارة فيض ولا قوة عبارة ولا ملكا لعالم الجمال وكل ما حوى . ولو أنك أردت أن تحصى ما كتب من شعر فى هذه الآونة وحدها لبلغ عشرات الألوف من الأبيات بل مئات الألوف ! وليس يقف ما كتب من هذا عنـد قصائده الكبرى كقصيـدة (بروموتيه) و (سنسى) و (ساحرة الأطلس) و (ابسشديون) و (قناع الفوضى) و (أدونا ييس) و (هلاس) وغيرها وغيرها . بل ان له لمقطوعات يقر مترجموه جميعا بأنها أبقى الشعر الانسانى كله على الدهر . وهذه المقطوعات التى يتحدث بها مرة الى قبرة ، وأخرى عن سحابة ، وغيرها عن شجرة حساسـة ، وأخرى الى النيل وعشرات ومئات غيرها ، هى لاريب خير ما تغنى به شلى معبرا به عن صلته بمملكة الجمال فى الوجود . ولقد تغنى فى هذه المقطوعات كما تغنى فى مواضع كثيرة من قصائده الكبرى ، فخلع على كل ما تغنى به حياة لم تكن لتحسبها له ، فاذا بك وقد قرأت شلى محسا بها لامسا اياها معترفا بأنك أنت الذى كنت عاجزا عن رؤيتها بحسك واكتناهها بقلبك . وليس شعره وحده هو الخالق حياة جديدة فى الوجود . بل ان لنثره من هذه القوة ما لشعره ، وان كانت موسيقى شعر شلى مما يزيد فى قوة خلقه حياة وقوة .

ولشعر شلى جوانب شتى لمح القارىء بعضها فيما قدمنا له من ترجمته . فثم جانب حياته هو وتغنيه بما كان يرجوه فيها . و (روح الوحدة) و (أبيسشديون) وكثير من مقطوعاته تعبر عن هـذا الجانب خير تعبير . تترنم القصيدة الأولى بيأس الشاعر وآلامه

وركوبه زورق الحياة على لجة الوجود ملتمسا فى العدم راحة من آلامه ، واجدا فى خيالات الحب لهـذه الاعرابية التى مرت به ثم تبعه طيفها عزاء نفسه عن بعض هذه الآلام حتى تسكن الى الموت سكونها الأخير . وقصيدته الثانية هى قصيدة الجمـال والحب مجسمين فى امليا ففيـافانى . أما الكثير من مقطوعاته فيتضوع بشذا الحب والجمال ويترنم بموسيقاهما على صورة لم تعرف فى شعر غير شعر شلى . فلقد كان من عباد جمال المرأة والذين يجدون فيه تمثال الكمال الانسانى مجسما . وكأنما كان جسمه يصبو الى هذه الأجسـام التى تتمثل فيها روح الانسانية بكل نوازعها معنى الجمال الانسانى . لكنه كان يسبح من عبادته هذا الجمال فى خيال قسرته عليه فضيلته وألزمتـه اياه آراؤه ومبادئه . لذلك لم يكن يدع لصبوة جسمه أن تنزلق مع تيار الغريزة باحثة عن الاتصال بمن صبا اليه ، بل كان يدع هذا الاتصال لعقله وخياله ولشعره يصوغ من الاتصال آى الحكمة وأهازيج الجمال . وهو هنا يختلف عن بيرون وعن كثيرين من الشعراء الذين يجـدون فى صبوة الجسم الى الجسم شفاء لغريزة تخليد النوع كل ما يسعى اليه الحب بل كل ما يحرك فى النفس هذه العاطفة . وهذا المعنى الذى تراه صريحا جليا فى شعر شلى هو الذى كان ينتهى باليأس الى نفوس كل من أحببنه من النسوة ، وبما يشبه اليأس الى نفس مارى أكثرهن ذكاء وأسماهن حكمة . فالمرأة التى ترى فى فضيلة شلى معنى من معانى الرواقية والزهد فى الحياة والرغبة عنها تشعر بنقص فى الحياة على حين خلقتها الطبيعة لتزيد فيها وتستزيد منها .

على أن جمال المرأة وان زان كل جمال فى الوجود وتوجه فليس

مافى الوجود سواه من جمال أقل الهاما لنفس الشاعر وتحدثا الى قلبه . بل ان كثيرا من جمال الوجود ليخلع على المرأة جمالا وزينة بمقدار ما تزينه هى وتجمله . ولئن كنت ترى هذين اللونين من الجمال مقترنين آكثر الأحايين فى نفس آكثر الشعراء ، الا أن لجمال الوجود مكانة خاصة من نفس شلى تكاد تجعل الجمال لذاته آية ايمانه فى الحياة . وهو فى هذا أصدق من كثيرين غيره نظرة وأدق حسا . وهو لهذا كان يريد أن يفصل بين المرأة كمثال للجمال والمرأة كمخلدة للنوع وكان يبحث فيها عن الجمال فى مثله الأعلى ، وكان لذلك لا يرى لجمال الجسد قيمة مالم يصحبه روح جميل هو الآخر .

وفيما سوى هذا الجانب من جوانب شعر شلى كانت المدينة الفاضلة غاية قصده من آكثر قصائده . المدينة الفاضلة بما فيها من اخاء وتسامح وحرية وتبادل محبة . المدينة الفاضلة المنزهة عن دنيا الشهوات ، السامية الى مكانة هى وحدها الجذيرة بالانسانية المهذبة . و (الملكة ماب) و (بروموتيه) و (سنسى) نفسها اندفاعات صادقة فى الدعوة الى هذه الغاية العليا وحرب شعواء على الجمود وعلى التعصب وعلى ما يؤدى اليه الجمود والتعصب من تحكم الشهوات الدنيا فى الروح الانسانية تحكما ينتهى بها الى فسادها وذلها . ولعل هذه الصورة التى صورها الشاعر من آثار الجمود والتحكم أشد ما تكون وضوحا فى (سنسى) منها فى أية قصيدة أو رواية أخرى . فقصة هــذه الرواية التى وضعها الكثيرون من النقــاد والكتاب فى صف روايات شكسبير ، أن الكونت سنسى بلغ من كراهية ابنته وابنه من زوجة متوفاة ، أن حدثته نفسه بالفتك بعفاف ابنته بياتريس . وشعرت الفتاة بالكريهة

التى يريدها أبوها عليها فدبرت مع أخيها وزوج أمها مؤامرة للتخلص من حياة ظالمهم جميعا . وانما لجأوا الى الائتمار بحياته بعد أن لجأوا الى البابا والى كبراء روما فلم يجدوا منهم منصفا . وكشف الأب المؤامرة فشكاهم الى قداسة البابا فأمر باعدامهم وفاقا لارادة الكونت الذى اشترى من القداسة العليا العفو عن كثير من جرائمه بثمن زاد على مائة ألف من الجنيهات . ولو أن العدل أخذ مجراه فى هذه المؤامرة لكان (سنسى) هو الخليق بأن يجزى أشد الجزاء . لكن فى اعدامه اعداما للأموال الطائلة التى كان يغدقهـا على الخزانة البابوية ! فليعدم الفقراء ، وان كانوا أنصار الفضيلة ، ولتبق الجاعة على حياة الرذيلة ما دامت تفيـد منها . ثم لتثر الفضيلة على لسان شلى فى أشعار هـذه الرواية الخالدة ثورة تدك عرش الظلم وتهز قوائم الظالمين .

وهو هذا الدفاع عن الحرية وعن الفضيلة ومحاولة الارتفاع بجمال المرأة ليكون مثالا لهما هو الذى كان يفرق بين شلى وبيرون ويجعل من كل واحد ند صاحبه . وطبيعى أن كان اقبال الجمهور يومئذ على شعر بيرون . فالجمهور أسير الشهوات يلتمسها فى واقع الحياة . ولئن صح أن كانت ألسنة الخلق أقلام الحق فلبيرون أن يزهى على صاحبه وأن ينظر اليه مشفقا عليه . لكنه كان فى الخيال كما كان فى الواقع يستشعر الغيرة منه ، وكأنما كان يجرى به خياله الى لجج المستقبل يلتمسها فيتبين خلالها ما أعده لشلى من عظمة وخلد ينافسان خلده وعظمته ويدعو الكثيرين لتفضيله عليه .

وكان حب شلى للجمال ودفاعه عن الحرية أثرا من آثار طيبة قلبه وحبه الناس وبره بأصدقائه . وقد عرف أثناء مقامه بكازامانى

بالقرب من بيزا أن صديقه لى هنت فى عوز فدعاه الى ايطاليـا ، واتفق ولورد بيرون أن يصدر هنت جريدة فى ايطاليا يكون لها امتياز السبق الى نشر قصائد بيرون • وفيما كان هنت فى طريقه الى بلاد الشمس والضياء ، كان شلى سعيدا بيخته سعيدا بزورق صغير صنع له كى ينقله وصاحبه وليمز من اليخت الى بيته أن كانت مياه البحر لا تسمح برسو اليخت على الشاطىء • وكان كثيرا ما يستلقى أثناء رحلاته على الماء تاركا السفين يلعب به الموج ذاهبا هو فى تيهاء تأملاته وأحلامه • فاذا عاد الى داره التمس فى مجاوراته مكانا منعزلا بين الغياض والشجر وقضى نهاره يقرض من شعره الموسيقى الساحر ما يهبه للحياة وللحرية تارة ولزوجه مارى طورا ولجين وليمز التى أصبحت ربة شعره فى هذه الفترة الأخيرة أكثر الأحايين • وكثيرا ما كان ينقضى النهار وهو فى عمله عند جذع شجرة اتخذها وسط الغابة مكتبا ، ناسيا أثناء ذلك طعامه وشرابه ، مكبا على خياله وشعره ، حتى لكانت زوجه وكان صاحبـه ترلونى يذهبان اليه ينتشلان من عالمه الجميـل السعيد ويردانه الى الحياة التى يعيش فيها على طريقته من التقشف والزهد •

ووصل لى هنت ، فذهب شلى وقابله فى ليفورنو ، ومن هناك ذهب به الى بيرون فى بيزا ليتموا الاتفاق فى شأن الجريدة التى تحدث شلى لصاحبه الشاعر الكبير عنها • ومع ما بعث به فقر هنت وسوء حال أولاده من التقزز الى نفس بيرون ، فقد ظل به شلى حتى انتهى بالزامه أن يقوم بعمل من أعمال البر لرجل أخلص للأدب وللشعر حياته • فلما آن له أن يرتحل عائدا الى بيته فوق سفينته عصفت ريح جعلت السفرة مخوفة ، حتى لقد تردد ترلونى

الذى قضى فوق لج البحر حياته فى أن ينصح لهما بالسفر . لكن شلى كان اذا اعتزم فعل . فاصطحب صديقه وليمز وغلاما معهما وأقلعوا يوم الاثنين الثامن من أغسطس سنة ١٨٢٢ وانتظرتهما زوجاهما فى ذلك اليوم الذى انقضى من غير أن تقفا لهما على خبر . وانقضى الثلاثاء والأربعاء بعده فجن جنونهما وطاش صوابهما وذهبتا الى ليفورنو باحثتين عنهما . وعلم ترلونى بحال الزوجتين فأيقن أن صاحبيه هلكا فى زورقهما . وأخذ نفسه بالبحث على شاطىء البحر ما بين ليفورنو وكازامانى حتى اذا كان الرابع عشر من أغسطس عثر الغائصون بجثة عبثت الأسماك بوجهها وان لم تخف معالمه . وألفى ترلونى فى جيب « الكاكتة » كتاب اسكيلوس فلم تبق لديه ريبة فى أنها جثة شلى . ثم لم يطل بالغائصين البحث حتى عثروا بجثة وليمز . ودفنهما ترلونى فى الرمل ثم ذهب مكتئبا حزينا الى كازامانى . وحاول أن يدخل فخانته قواه فجعل يدور حول المنزل حتى لمحته خادم ، أخبرت سيدتيها بالأمر . فما لبثتا رأتاه حتى تبدد كل وهم من رجاء بقى عندهما وحتى انهدتا الى الأرض صعقتين قضى عليهما الترمل والهم .

ولما أفاقتا ذكرت مارى ما كان يرجو زوجها أن يدفن فى مقابر الانكليز بروما . لكن نقل الجثة من بيزا الى روما غير جائز بحكم قانون البلاد الا أن تحرق الجثة وتنقل بقية التراب منها . ففى ظهر السادس عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٢٢ ، وقف لورد بيرون والشاعر لى هنت والبحار ترلونى فوق رمال الشاطىء الايطالى على مقربة من ليفورنو يحيط بهم عدد من أهل تلك المنطقة ويقف الى جانبهم جماعة من الضباط والعساكر الايطاليين ، وكلهم محدق

ببصره الى نار تضطرم قد بوركت بالنبيذ صب عليها وبالملح ألقى فيها ويفوح منهـا ريح اللحم الانسانى ، وكلهم واجم مخلوع القلب ذاهب فى تيهاء الهلع والذهول • وظل هذا المنظر المروع أمامهم ثلاث ساعات تباعا يهز نفوسهم هزا فلا يزدادون ازاءه الا وجوما وذهولا ، وتنـدى عين بعضهم بالدمع ثم تذرفه أن لا تستطيع حبسه • ويحدق ترلونى بالعظـام تحترق وباللحم تذيبه النـار ، ثم تبدأ النار بعـد ذلك تخبو رويدا رويدا تاركة وراءها حفنـة من تراب هى كل ما بقى من رفات قيثارة الشعر الانكليزى شلى • ويحمل ترلونى الحفنـة الى الأرملة البائسة مارى شـلى لتتولى ويتولى هوولى هنت معها حملهـا الى مقابر البروتستانت فى روما كى تستقر هناك فى أرض غريبة عن ثرى الوطن ولكن لتسعد مع ذلك باستقرارها الى جانب رفات عزيزة محبوبة هى رفات ابنه وليم • ويقع هذا المنظر المروع وتنقل تلك الرفات القدسية الى روما ، ولم يكن شلى قد بلغ الى يوم وفاته فى الثامن من أغسطس تمام الثلاثين من عمره ، وان كان قد خلف من شعره على الحيـاة مالا يزال فخر الشعر الانجليزى عذوبة وموسيقى تأخذان بالنفس وتملكان على المرء حسه ولبه وتبعثان الى كل ماتنشدانه وتترنمان به الحيـاة والخلد ، سـواء أكان ما تنشدانه وتترنمان به انسانا أم طيرا أم حيوانا أم جمادا أم مجرد خيال لا وجود فى الحياة له ، ذلك بأن الحياة كانت تسرى فى كل ما لامس نفس شـلى لتبقى قائمـة به قرونا ودهورا بعـد موت باعثها •

فهرس

صفحة

الاهـداء ٣

مقـدمة ٥

الكتاب الأول « تراجم مصرية »

كليوباطـرة ٢٩

الخـديوى الأول اسماعيل باشا ٤٧

الخديوى توفيق باشا ٧٣

محمد قدرى باشا ١٠١

بطرس باشا غالى ١١٠

مصطفى كامل باشا ١٢٩

قاسم بك أمين ١٥٢

اسماعيـل باشا صبرى ١٦٧

محمود باشا سليمان ١٨١

عبد الخالق ثروت باشا ١٨٨

الكتاب الثانى « تراجم غربية »

بتهـوفن ٢١٩

هبوليت أدولف تين ٢٤٣

وليم شكسبير ٢٦٨

برسى بيش شلى ٢٨٤

Bibliotheca Alexandrina
0546108B